فقه التصوف

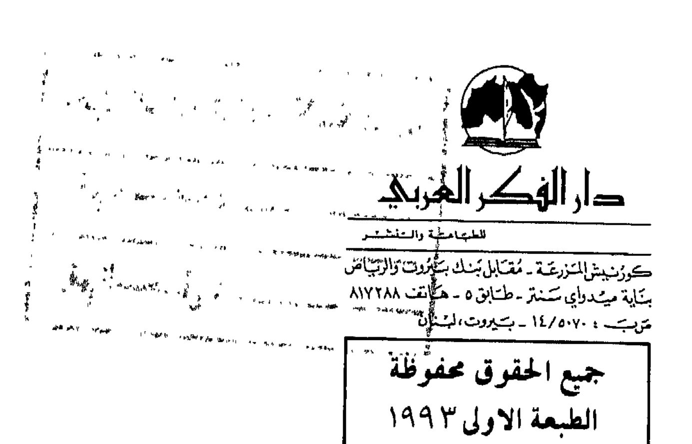
لشيخ الإسلام الإمام ابن تيمية

تهذيب وتعليق
الشيخ زهير شفيق الكبي



دار الفكر العربي
بيروت

فقه التصوف


دار الفكر العربي
للطباعة والنشر
كورنيش المزرعة - مقابل بنك بيروت والرياض
بناية ميدواي سنتر - طابق ٥ - هاتف ٨١٧٢٨٨
ص.ب ١٤/٥٠٧٠ - بيروت، لبنان
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الاولى ١٩٩٣



المقدمة

ما فتىء شيخ الإسلام أحمد بن تيمية يغوص في العلوم الشرعية مبيناً ما يوافق الشريعة السمحة مما يخالفها. ففي رسائل في التصوف جمعناها في كتاب واحد، حاول الإمام ابن تيمية أن يعيد فكرة التصوف إلى صراط الشريعة المنزلة مستهدياً لذلك بما ورد في الكتاب والسنة، وما أثر عن كبار الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم، وينقيها مما شابها عبر السنين من الانحرافات، حتى طغت عليها البدع، التي هي في كثير من أحوالها مخرجة عن الدين ولا تستهدي بعملها إلا ما توارثه المتصوف عن الفرس أو الروم، أو عن عادات مستحدثة مقتبسة عن بعض الحركات التي ادعت الإسلام والإسلام منها براء.

فالكتاب الذي بين أيدينا دراسة معمقة لفكرة التصوف في تسعة أبواب أساسية مقسمة إلى فصول، فالباب الأول يتحدث عن أصل الصوفية وعلاقة الفقر بها. والباب الثاني يتحدث عن أهل الصفة من هم وما أصل هذه التسمية وما هي حالهم وسبب تفضيلهم على غيرهم. والباب الثالث في الفتوة وما أصل الكلمة، وما هي حالهم وشروطهم. والباب الرابع في الفقير والغني ومن هو الأفضل منهما. وأما الباب الخامس فكان في الحمد والشكر. والباب السادس، وهو أطول باب في الكتاب، وفيه شرح واف حول أولياء الرحمن وأولياء الشيطان من هم وما هي صفتهم، وما هي الأسماء التي تسموا بها، وفضل الأنبياء على الأولياء. والباب السابع تحدث فيه شيخ الإسلام عن المعجزات والكرامات. والباب الثامن فيه ذكر لبعض المصطلحات التي استعملها المتصوفة وأصل هذه المصطلحات. أما الباب الأخير ففيه مناظرة بين ابن تيمية وبعض أتباع أحمد بن الرفاعي، فيعرض فيها

الإمام لبعض أعمالهم وطرقهم في عباداتهم ويفندها واحدة تلو الأخرى.

أما عملي في هذا الكتاب، فهو أني عمدت إلى المجلد الحادي عشر من مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية الذي جمعه ورتبه عبد الرحمن العاصمي النجدي الحنبلي، الخاص بالتصوف، فانتقيت منه بعض الفصول التي وجدت من الضروري إثباتها في هذا الكتاب، وهذبت منها بعض الفقرات مخافة الإطالة، ووضعت لها العناوين المناسبة إعانة للقارىء على فهم النص، ثم عمدت إلى الأحاديث فخرجت ما ترك المصنف تخريجه أو تصحيحه أو تحسينه، وخرجت أيضاً الآيات، وعلقت على بعض المسائل بطريقة مختصرة بما وجدت فيه فائدة مهمة للقارىء، وقد عرفت ببعض الأعلام الذين خِلت أن القارىء يحتاج فيهم إلى بعض علم.

هذا والله أسأل أن أكون قد وفقت في هذا العمل، وأن أكون قد زدت بعض الفائدة إلى هذا الكتاب القيم، راجياً من الله القبول، والنفع لعباد الله الصالحين.

زهير شفيق الكبي
بيروت ٢٠ جمادى الثانية ١٤١٣ هـ
١٥ كانون الأول ١٩٩٢ م



المؤلف في سطور

هـو أحمـد بن عبـد الحليم بن عبـد السـلام بن عبـد الله بن أبي القـاسم الخضر بن محمد بن تيمية الحراني ثم الدمشقي، تقي الدين أبو العباس.

الإمام العلامة الفقيه المجتهد الحافظ الزاهد العابد المجاهد المفسر الناقد البارع الأصولي، شيخ الإسلام، علم الزهاد، نادرة دهره، ابن الشيخ المفتي شهاب الدين عبد الحليم، ابن الإمام المجتهد شيخ الإسلام مجد الدين، شهرته تغني عن الإطناب في ذكره، والإسهاب في أمره.

ولد بحران يوم الاثنين عاشر ربيع الأول سنة إحدى وستين وستمائة، وقدم به والده وبأخويه عند استيلاء التتار على البلاد إلى دمشق سنة سبع وستين، فسمع بها من ابن عبد الدائم، وابن أبي اليسر، والمجد بن عساكر، ويحيى بن الصيرفي الفقيه، وابن أبي الخير الحداد، والقاسم الإربلي، والشيخ شمس الدين ابن أبي عمر، والمسلم بن علان، وابراهيم بن الدرجي، وغيرهم كثير. وعني بالحديث وسمع المسند مرات والكتب الستة، ومعجم الطبراني الكبير. وما لا يحصر من الكتب والأجزاء.

وقرأ بنفسه وكتب بخطه جملة من الأجزاء، وأقبل على العلوم في صغره، فأخذ الفقه والأصول عن والده، وعن الشيخ شمس الدين ابن أبي عمر، والشيخ زين الدين ابن المنجا، وبرع في ذلك، وناظر وقرأ العربية على ابن عبد القوي. ثم أخذ كتاب سيبويه فتأمله وفهمه. وأقبل على تفسير القرآن الكريم وبرز فيه. وأحكم أصول الفقه، والفرائض والحساب والجبر والمقابلة، وغير ذلك من العلوم، ونظر

في علم الكلام والفلسفة وبرز في ذلك على أهله، ورد على رؤوسائهم وأكابرهم، ومهر في هذه الفضائل.

قال ابن كثير عنه: «. . . وقرأ بنفسه الكثير، وطلب الحديث وكتب الطباق والاثبات، ولازم السماع بنفسه مدة سنين، وقل أن سمع شيئاً إلا حفظه، ثم اشتغل بالعلوم، وكان ذكياً كثير المحفوظ، فصار إماماً في التفسير وما يتعلق به، عارفاً بالفقه، فيقال إنه كان أعرف بفقه المذاهب من أهلها من الذين كانوا في زمانه وغيره. وكان عالماً باختلاف العلماء، عالماً في الأصول والفروع والنحو واللغة، وغير ذلك من العلوم النقلية والعقلية. وما قطع في مجلس ولا تكلم معه فاضل في فن من الفنون إلا ظن أن ذلك الفن فنه، ورآه عارفاً به متقناً له. وأما الحديث فكان حامل رايته حافظاً له مميزاً بين صحيحه وسقيمه، عارفاً برجاله متضلعاً من ذلك»[1].

وتأهل للفتوى والتدريس وله دون العشرين سنة، وأفتى من قبل العشرين أيضاً، وامده الله بكثرة الكتب وسرعة الحفظ وقوة الإدراك والفهم، وبطء النسيان، ثم توفي والده وكان له حينئذ إحدى وعشرين سنة، فقام بوظائفه بعده، فدرس بدار الحديث السكرية في أول سنة ثلاث وثمانين وستمائة، وهناك شرع في تفسير القرآن من أوله، وكان يورد من حفظه في المجلس نحو كراسين أو أكثر. وفي سنة تسعين ذكر على الكرسي يوم جمعة شيئاً من الصفات، فقام بعض المخالفين وسعوا في منعه من الجلوس، فلم يمكنهم ذلك.

قال الداوودي: «عرف أقوال المتكلمين، ورد عليهم، ونبه على أخطائهم، وحذر منهم، ونصر السنة بأوضح حجج وأبهر براهين. وأوذي في ذات الله من المخالفين، وأضيف في نصر السنة المحضة، حتى أعلا الله مناره، وجمع قلوب أهل التقوى على محبته والدعاء له، وكبت أعدائه، وهدى به رجالاً من أهل الملل والنحل، وجبل قلوب الملوك والأمراء على الانقياد له غالباً، وعلى طاعته،

---

(١) البداية والنهاية ١٤/١٣٧.

وأحيي به الشام. بل الإسلام، بعد أن كاد ينثلم بتثبيت أولي الأمر لما أقبل حزب التتر والبغي في خيلاتهم...»[1].

وأثنى عليه الزملكاني وكان عمره يومئذ نحو الثلاثين سنة قائلاً:

ماذا يقول الواصفون له ... وصفاته جلت عن الحصر
هو حجة لله قاهرة ... هو بيننا أعجوبة الدهر
هو آية في الخلق ظاهرة ... أنوارها أربت على الفجر

صنف كثيراً من الكتب، وله تعاليق مفيدة في الأصول والفروع، كل منها جملة وبيضت وكتبت عنه وقرئت عليه أو بعضها، وجملة كبيرة لم يكملها، من تصانيفه: «الصارم المسلول على منتقص «أوشاتم» الرسول» و«اقتضاء الصراط المستقيم» و«رفع الملام عن الأئمة الأعلام» و« السياسة الشرعية» و«الكلم الطيب» و«مناسك الحج» و«الفرقان بين أولياء الله وأولياء الشيطان» و«منهاج السنة» و«نظرية العقد» و«الرد على الأخنائي»... الخ.

مات سنة ٧٢٨ هـ. بقلعة دمشق بالقاعة التي كان محبوساً بها، وحضر جمع كثير الى القلعة، وأذن لهم في الدخول عليه، وجلس جماعة عنده قبل الغسل وقرأوا القرآن، فلما فرغ من غسله أخرج ثم اجتمع الخلق بالقلعة والطريق إلى الجامع، وامتلأ الجامع أيضاً وصحنه والكلاسة وباب البريد وباب الساعات إلى باب اللبادين والغوارة، ووضعت الجنازة في الجامع، والجند قد احتاطوا بها يحفظونها من الناس من شدة الزحام، وصلي عليه أولاً بالقلعة، تقدم في الصلاة عليه أولاً الشيخ محمد بن تمام. ثم صلي عليه بالجامع الأموي عقيب صلاة الظهر، وقد تضاعف اجتماع الناس. ثم تزايد الجمع إلى أن ضاقت الرحاب والأزقة والأسواق بأهلها ومن فيها، وخرج الناس من الجامع من أبوابه كلها وهي شديدة الزحام، ثم حمل إلى مقبرة الصوفية فدفن إلى جانب أخيه شرف الدين عبدالله رحمهما الله ، وكان دفنه قبل العصر بيسير.

وكان قد مكث معتقلاً في القلعة من شعبان سنة ست وعشرين إلى ذي

---

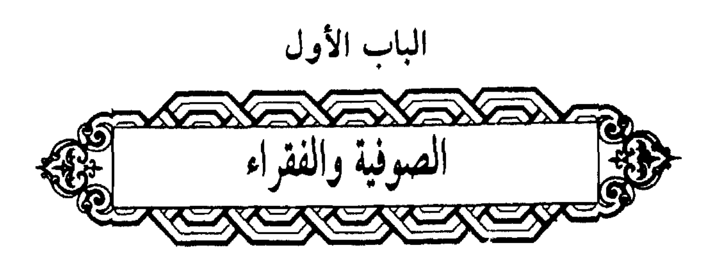
(١) طبقات المفسرين ١/٤٩.

القعدة سنة ثمان وعشرين، ثم مرض بضعة وعشرين يوماً، ولم يعلم أكثر الناس بمرضه ولم يفجأهم إلا موته، وكانت وفاته في سحر ليلة الاثنين ذكره مؤذن القلعة على منارة الجامع، وتكلم به الحرس على الأبرجة فتسامع الناس بذلك[1].

---

(١) انظر ترجمته في طبقات المفسرين ١/٤٦، وشذرات الذهب ١/٨٠، والبداية والنهاية ١٤/١٦٣، وتذكرة الحفاظ ٤/١٤٩٦، والدرر الكامنة ١/١٥٤، ومرآة الجنان ٤/٢٧٧، والنجوم الزاهرة ٢/٢٧١.

الباب الأول



الصوفية والفقراء

سُئِل شيخ الإسلام قدسَ اللَّه روحُه عن «الصوفية» وانهم اقسام «والفقراء» اقسام، فما صفة كل قسم؟ وما يجب عليه؟ ويستحب له أن يسلكه؟

فأجاب: الحمد لله. أما لفظ «الصوفية» فإنه لم يكن مشهوراً في القرون الثلاثة، وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك، وقد نقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة والشيوخ: كالإمام أحمد بن حنبل، وأبي سليمان الداراني[1]، وغيرهما. وقد روي عن سفيان الثوري أنه تكلم به، وبعضهم يذكر ذلك عن الحسن البصري، وتنازعوا في «المعنى» الذي أضيف إليه الصوفي، فإنه من أسماء النسب: كالقرشي، والمدني، وامثال ذلك.

فقيل: إنه نسبة إلى «أهل الصفة» وهو غلط؛ لأنه لو كان كذلك لقيل: صُفِّيّ. وقيل نسبة إلى الصف المقدم بين يدي الله، وهو أيضاً غلط؛ فإنه لو كان كذلك لقيل: صَفِّيّ. . وقيل نسبة إلى الصَفْوَة من خلق الله وهو غلط؛ لأنه لو كان كذلك لقيل: صَفَوي، وقيل: نسبة إلى صوفة بن بشر بن أدّ بن طابخة، قبيلة من العرب[2] كانوا يجاورون بمكة من الزمن القديم، ينسب إليهم النساك، وهذا وإن كان موافقاً للنسب من جهة اللفظ، فإنه ضعيف أيضاً؛ لأن هؤلاء غير مشهورين، ولا معروفين عند أكثر النساك، ولأنه لو نسب النساك إلى هؤلاء لكان هذا النسب

---

(١) واسمه عبد الرحمن بن أحمد بن عطية الداراني الزاهد المشهور، والداراني نسبة إلى داريا، وهي قريطة من غوطة دمشق. (انظر اللباب في تهذيب الأنساب ١/٤٨٢).

(٢) بطن من مضر، من العدنانية، وينقسم إلى عدة أفخاذ (انظر معجم قبائل العرب ٢/٦٧٢).

في زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم أولى، لأن غالب من تكلم باسم «الصوفي» لا يعرف هذه القبيلة، ولا يرضى أن يكون مضافاً إلى قبيلة في الجاهلية لا وجود لها في الإسلام.

وقيل: ـ وهو المعروف ـ أنه نسبة إلى لبس الصوف؛ فإنه أول ما ظهرت الصوفية في البصرة، وأول من بنى دويرة الصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد وعبد الواحد من أصحاب الحسن[1]، وكان في البصرة من المبالغة في الزهدوالعبادة والخوف ونحو ذلك، ما لم يكن في سائر أهل الأمصار، ولهذا كان يقال: فقه كوفي، وعبادة بصرية. وقد روى أبو الشيخ الأصبهاني باسناده عن محمد بن سيرين أنه بلغه أن قوماً يفضلون لباس الصوف، فقال: إن قوماً يتخيرون الصوف، يقولون: إنهم متشبهون بالمسيح بن مريم، وهدي نبينا أحب إلينا، وكان النبي ﷺ يلبس القطن وغيره أو كلاماً نحواً من هذا.

ولهذا غالب ما يحكى من المبالغة في هذا الكتاب إنما هو عن عباد أهل البصرة، مثل حكاية من مات أو غشي عليه في سماع القرآن، ونحوه. كقصة زرارة بن أوفى قاضي البصرة فإنه قرأ في صلاة الفجر: ﴿**فإذا نقر في الناقور**﴾[2] فخر ميتاً، وكقصة أبي جهير الأعمى الذي قرأ عليه صالح المري فمات، وكذلك غيره ممن روي أنهم ماتوا باستماع قراءته، وكان فيهم طوائف يصعقون عند سماع القرآن، ولم يكن في الصحابة من هذا حاله؛ فلما ظهر ذلك أنكر ذلك طائفة من الصحابة والتابعين: كأسماء بنت أبي بكر، وعبد الله بن الزبير، ومحمد بن سيرين، ونحوهم.

والمنكرون لهم مأخذان:

منهم من ظن ذلك تكلفاً وتصنعاً. يذكر عن محمد بن سيرين أنه قال: ما بيننا وبين هؤلاء الذين يصعقون عند سماع القرآن إلا أن يقرأ على أحدهم وهو على حائط فإن خر فهو صادق.

---

(١) أي الحسن البصري الإمام المشهور صاحب علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) سورة المدثر آية ٨.

ومنهم من أنكر ذلك لأنه رآه بدعة مخالفاً لما عرف من هدي الصحابة، كما نقل عن أسماء، وابنها عبد الله.

والذي عليه جمهور العلماء أن الواحد من هؤلاء إذا كان مغلوباً عليه لم ينكر عليه، وإن كان حال الثابت أكمل منه؛ ولهذا لما سئل الإمام أحمد عن هذا قال: قرىء القرآن على يحيى بن سعيد القطان فغشي عليه، ولو قدر أحد أن يدفع هذا عن نفسه لدفعه يحيى بن سعيد، فما رأيت أعقل منه، ونحو هذا. وقد نقل عن الشافعي أنه أصابه ذلك، وعلي بن الفضيل بن عياض قصته مشهورة. وبالجملة فهذا كثير ممن لا يستراب في صدقه.

لكن الأحوال التي كانت في الصحابة هي المذكورة في القرآن، وهي وجل القلوب، ودموع العين، واقشعرار الجلود، كما قال تعالى: ﴿**إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر الله وَجِلت قلوبهم، وإذا تُليت عليهم آياته زادتهم إيماناً، وعلى ربهم يتوكلون**﴾[1] وقال تعالى: ﴿**الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله**﴾[2] وقال تعال: ﴿**إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً**﴾[3] وقال: ﴿**وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق**﴾[4] وقال: ﴿**ويخرون للاذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً**﴾[5].

وقد يذم حال هؤلاء لما فيه من قسوة القلوب والرين عليها، والجفاء عن الدين، ما هو مذموم، وقد فعلوا، ومنهم من يظن أن حالهم هذا أكمل الأحوال وأتمها وأعلاها، وكلا طرفي هذه الأمور ذميم.

بل المراتب ثلاث:

أحدها: حال الظالم لنفسه الذي هو قاسي القلب، لا يلين للسماع والذكر، وهؤلاء فيهم شَبَه من اليهود. قال الله تعالى: ﴿**ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة، وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وان منها لما**

---

(١) سورة الأنفال آية ٢.
(٢) سورة الزمر آية ٢٣.
(٣) سورة مريم آية ٥٨.
(٤) سورة المائدة آية ٨٣.
(٥) سورة الإسراء آية ١٠٩.

يشقق فيخرج منه الماء، وان منها لما يهبط من خشية الله، وما الله بغافل عما تعملون﴾[1] وقال تعالى: **﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون﴾**[2].

والثانية: حال المؤمن التقي الذي فيه ضعف عن حمل ما يرد على قلبه، فهذا الذي يصعق صعق موت، أو صعق غشي، فإن ذلك إنما يكون لقوة الوارد، وضعف القلب عن حمله، وقد يوجد مثل هذا في من يفرح أو يخاف أو يحزن أو يحب أموراً دنيوية، يقتله ذل أو يمرضه أو يذهب بعقله. ومن عباد الصور من أمرضه العشق أو قتله أو جننه، وكذلك في غيره، ولا يكون هذا إلا لمن ورد عليه أمر ضعفت نفسه عن دفعه، بمنزلة ما يرد على البدن من الأسباب التي تمرضه أو تقتله، أو كان أحدهم مغلوباً على ذلك.

فإذا كان لم يصدر منه تفريط ولا عدوان، لم يكن فيه ذنب فيما أصابه، فلا وجه للريبة. كمن سمع القرآن السماع الشرعي، ولم يفرط بترك ما يوجب له ذلك، وكذلك ما يرد على القلوب مما يسمونه السكر والفناء[3]، ونحو ذلك من الأمور التي تغيب العقل بغير اختيار صاحبها؛ فإنه إذا لم يكن السبب محظوراً لم يكن السكران مذموماً، بل معذوراً فإن السكران بلا تمييز، وكذلك قد يحصل ذلك بتناول السكر من الخمر والحشيشة فإنه يحرم بلا نزاع بين المسلمين، ومن استحل السكر من هذه الأمور فهو كافر، وقد يحصل بسبب محبة الصور وعشقها كما قيل:

سكران: سكر هوى، ويكر مُدمة ومتى إفاقة من به سكران

وهذا مذموم، لأن سببه محصور، وقد يحصل بسبب سماع الأصوات المطربة التي تورث مثل هذا السُكر، وهذا أيضاً مذموم، فإنه ليس للرجل أن يسمع من الأصوات التي لم يؤمر بسماعها ما يزيل عقله، إذ إزالة العقل محرم،

(١) سورة البقرة آية ٧٤.

(٢) سورة الحديد آية ١٦.

(٣) ربما هذه هي الحال الثالثة، حيث لم يذكرها المصنف بوضوح.

ومتى أفضى إليه سبب غير شرعي كان محرماً، وما يحصل في ضمن ذلك من لذة قلبية أو روحية، ولو بأمور فيها نوع من الإيمان، فهي مغمورة بما يحصل معها من زوال العقل، ولم يأذن لنا الله أن نمتع قلوبنا ولا أرواحنا من لذات الإيمان ولا غيرها بما يوجب زوال عقولنا؛ بخلاف من زال عقله بسبب مشروع. أو بأمر صادفه لا حيلة له في دفعه.

وقد يحصل السكر بسبب لافعل للعبد فيه، كسماع لم يقصده يهيج قاطنه، ويحرك ساكنه، ونحو ذلك. وهذا لا ملام عليه فيه، وما صدر عنه في حال زوال عقله فهو فيه معذور؛ لأن القلم مرفوع عن كل من زال عقله بسبب غير محرم، كالمغمي عليه والمجنون ونحوهما.

ومن زال عقله بالخمر. فهل هو مكلف حال زوال عقله؟فيه قولان مشهوران، وفي طلاق من هذه حاله نزاع مشهور، ومن زال عقله بالبنج يلحق به، كما يقوله من يقوله من أصحاب الشافعي وأحمد، وقيل يفرق بينه وبين الخمر؛ لأن هذا يشتهي، وهذا لا يشتهي؛ ولهذا أوجب الحد في هذا دون هذا، وهذا هو المنصوص عن أحمد ومذهب أبي حنيفة.

ومن هؤلاء من يقوى عليه الوارد حتى يصير مجنوناً، إما بسبب خلط يغلب عله، وإما بغير ذلك، ومن هؤلاء عقلاء المجانين الذين يعدون في النساك، وقد يسمون المولهين. قال فيهم بعض العلماء: هؤلاء قوم أعطاهم الله عقولاً وأحوالاً؛ فسلب عقولهم، وأسقط ما فرض بما سلب.

فهذه الأحوال التي يقترن بها الغشي أو الموت أو الجنون أو السكر أو الفناء حتى لا يشعر بنفسه ونحو ذلك، إذا كانت أسبابها مشروعة وصاحبها صادقاً عاجزاً عن دفعها كان محموداً على ما فعله من الخير وما ناله من الإيمان، معذوراً فيما عجز عنه وأصابه بغير اختياره وهم أكمل ممن لم يبلغ منزلتهم لنقص إيمانهم وقسوة قلوبهم ونحو ذلك من الأسباب التي تتضمن ترك ما يحبه الله أو فعل ما يكرهه الله.

ولكن من لم يزل عقله مع أنه قد حصل له من الإيمان ما حصل لهم أو مثله أو أكمل منه فهو أفضل منهم. وهذه حال الصحابة رضي الله عنهم، وهو حال نبينا

ﷺ فإنه أسري به إلى السماء وأراه الله ما أراه وأصبح كبائت لم يتغير عليه حاله، فحاله أفضل من حال موسى ﷺ الذي خر صعقاً لما تجلى ربه للجبل وحال موسى حال جليلة علية فاضلة: لكن حال محمد ﷺ أكمل وأعلا وأفضل.

والمقصود: إن هذه الأمور التي فيها زيادة في العبادة والأحوال خرجت من البصرة، وذلك لشدة الخوف، فإن الذي يذكرونه من خوف عتبة الغلام وعطاء السليمي وأمثالهما أمر عظيم. ولا ريب أن حالهم أكمل وأفضل ممن لم يكن عنده من خشية الله ما قابلهم أو تفضل عليهم. ومن خاف الله خوفاً مقتصداً يدعوه إلى فعل ما يحبه الله وترك ما يكرهه الله من غير هذه الزيادة فحاله أكمل وأفضل من حال هؤلاء، وهو حال الصحابة رضي الله عنهم وقد روي: أن عطاء السليمي - رضي الله عنه - رؤي بعد موته فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: قال لي, يا عطاء! أما استحيت مني أن تخافني كل هذا؟! أما بلغك أني غفور رحيم؟!.

وكذلك ما يذكر عن أمثال هؤلاء من الأحوال من الزهد والورع والعبادة، وأمثال ذلك قد ينقل فيها من الزيادة على حال الصحابة رضي الله عنهم وعلى ما سنه الرسول أمور توجب أن يصير الناس طرفين.

قوم يذمون هؤلاء وينتقصونهم وربما أسرفوا في ذلك.

وقوم يغلون فيهم ويجعلون هذا الطريق من أكمل الطرق واعلاها.

والتحقيق أنهم في هذه العبادات والأحوال مجتهدون كما كان جيرانهم من أهل الكوفة مجتهدين في مسائل القضاء والإمارة ونحو ذلك. وخرج فيهم الرأي الذي فيه من مخالفة السنة ما أنكره جمهور الناس.

وخيار الناس من «أهل الفقه والرأي» في أولئك الكوفيين على طرفين.

قوم يذمونهم ويسرفون في ذمهم.

وقوم يغلون في تعظيمهم ويجعلونهم أعلم بالفقه من غيرهم وربما فضلوهم على الصحابة. كما أن الغلاة في أولئك العباد قد يفضلونهم على الصحابة، وهذا باب يفترق فيه الناس.

والصواب: للمسلم أن يعلم أن خير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي

محمد ﷺ، وخير القرون القرن الذي بعث فيهم[1]، وأن أفضل الطرق والسبل إلى الله ما كان عليه هو وأصحابه، ويعلم من ذلك أن على المؤمنين أن يتقوا الله بحسب اجتهادهم ووسعهم، كما قال الله تعالى: **﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾**[2] وقال ﷺ: «إذا امرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»[3] وقال: **﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾**[4]. وإن كثيراً من المؤمنين ـ المتقين أولياء الله ـ قد لا يحصل لهم من كمال العلم والإيمان ما حصل للصحابة فيتقي الله ما استطاع ويطيعه بحسب اجتهاده فلا بد أن يصدر منه خطأ إما في علومه وأقواله، وإما في أعماله وأحواله، ويثابون على طاعتهم ويغفر لهم خطاياهم؛ فإن الله تعالى قال: **﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾** ـ إلى قوله ـ **﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾**[5] قال الله تعالى: قد فعلت.

فمن جعل طريق أحد من العلماء والفقهاء أو طريق أحد من العباد والنساك أفضل من طريق الصحابة فهو مخطيء، ضال مبتدع، ومن جعل كل مجتهد في طاعة أخطأ في بعض الأمور مذموماً معيباً ممقوتاً، فهو مخطىء ضال مبتدع.

ثم الناس في الحب والبغض والموالاة والمعاداة هم أيضاً مجتهدون، يصيبون تارة، ويخطئون تارة، وكثير من الناس إذا علم من الرجل ما يحبه، أحب الرجل مطلقاً، وأعرض عن سيئاته، وإذا علم منه ما يبغضه أبغضه مطلقاً، وأعرض عن حسناته، محاط (؟) وحال من يقول بالتحافظ (؟) وهذا من أقوال أهل البدع والخوارج والمعتزلة والمرجئة.

وأهل السنة والجماعة يقولون ما دل عليه الكتاب والسنة والإجماع وهو أن

---

(١) مأخوذ من حديث النبي ﷺ: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» أخرجه أحمد والترمذي (انظر كشف الخفاء ومزيل الإلباس ١/٤٧٥ ـ ٤٧٦).

(٢) سورة التغابن آية ١٦.

(٣) أخرجه البخاري في الاعتصام ٢، ومسلم في الحج حديث رقم ٤١٢، والنسائي في المناسك ١، وابن ماجة في المقدمة ١، وأحمد ٢/٢٤٧، ٢٥٨، ٣١٤، ٣٦٨، ٤٩٥، ٥٠٨.

(٤) سورة البقرة آية ٢٨٦.

(٥) آخر سورة البقرة.

المؤمن يستحق وعد الله وفضله الثواب على حسناته، ويستحق العقاب على سيئاته، وإن الشخص الواحد يجتمع فيه ما يثاب عليه، وما يعاقب عليه، وما يحمد عليه وما يذم عليه، وما يحب منه وما يبغض منه، فهذا هذا.

وإذا عرف أن منشأ «التصوف» كان من البصرة، وأنه كان فيها من يسلك طريق العبادة والزهد، مما له فيه اجتهاد، كما كان في الكوفة من يسلك من طريق الفقه والعلم ما له فيه اجتهاد، وهؤلاء نسبوا إلى اللبسة الظاهرة، وهي لباس الصوف. فقيل في أحدهم: «صوفي» وليس طريقهم مقيداً بلباس الصوف، ولا هم أوجبوا ذلك ولا علقوا الأمر به، لكن أضيفوا إليه لكونه ظاهر الحال.

ثم «التصوف» عندهم له حقائق وأحوال معروفة قد تكلموا في حدوده وسيرته وأخلاقه، كقول بعضهم: «الصوفي» من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر، واستوى عنده الذهب والحجر. التصوف كتمان المعاني، وترك الدعاوي. وأشباه ذلك: وهم يسيرون بالصوفي إلى معنى الصديق، وأفضل الخلق بعد الأنبياء الصديقون. كما قال الله تعالى: **﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾**[1] ولهذا ليس عندهم بعد الأنبياء أفضل من الصوفي؛ لكن هو في الحقيقة نوع من الصديقين، فهو الصديق الذي اختص بالزهد والعبادة على الوجه الذي اجتهدوا فيه، فكان الصديق من أهل هذه الطريق، كما يقال: صديقو العلماء، وصديقو الأمراء، فهو أخص من الصديق المطلق، ودون الصديق الكامل الصديقية من الصحابة والتابعين وتابعيهم.

فإذا قيل عن أولئك الزهاد والعباد من البصريين: إنهم صديقون فهو كما يقال عن أئمة الفقهاء من أهل الكوفة إنهم صديقون أيضاً، كل بحسب الطريق الذي سلكه من طاعة الله ورسوله بحسب اجتهاده، وقد يكونون من أجل الصديقين بحسب زمانهم، فهم من أكمل صديقي زمانهم، والصديق في العصر الأول أكمل منهم، والصديقون درجات وأنواع؛ ولهذا يوجد لكل منهم صنف من الأحوال والعبادات، حققه وأحكمه وغلب عليه، وإن كان غيره في غير ذلك الصنف أكمل منه وأفضل منه.

---

(١) سورة النساء آية ٦٩.

ولأجل ما وقع في كثير منهم من الاجتهاد والتنازع فيه تنازع الناس في طريقهم؛ فطائفة ذمت «الصوفية والتصوف». وقالوا: إنهم مبتدعون، خارجون عن السنة، ونقل عن طائفة من الأئمة في ذلك من الكلام ما هو معروف، وتبعهم على ذلك طوائف من أهل الفقه والكلام.

وطائفة غلت فيهم، وادعوا أنهم أفضل الخلق، وأكملهم بعد الأنبياء وكلا طرفي هذه الأمور ذميم.

و «الصواب» أنهم مجتهدون في طاعة الله، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين، وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطىء، وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب.

ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه، عاص لربه.

وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة؛ ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم: كالحلاج[1] مثلاً؛ فإن أكثر مشائخ الطريق أنكروه، وأخرجوه عن الطريق. مثل: الجنيد بن محمد سيد الطائفة وغيره. كما ذكر ذلك الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي: في «طبقات الصوفية» وذكره الحافظ أبو بكر الخطيب في تاريخ بغداد.

فهذا أصل التصوف. ثم أنه بعد ذلك تشعب وتنوع، وصارت الصوفية «ثلاثة أصناف» صوفية الحقائق وصوفية الأرزاق وصوفية الرسم.

فأما «**صوفية الحقائق**» فهم الذين وصفناهم.

وأما «**صوفية الأرزاق**» فهم الذين وقفت عليهم الوقوف كالخوانك فلا يشترط

---

(١) الحلاج: هو الحسين بن منصور بن محمي الفارسي الحلاج، تصوف ثم قدم بغداد فصحب الجنيد والنوري، وتعبد فبالغ في المجاهدة والترقب، ثم فتن ودخل عليه الداخل من الكبر والرياسة، فسافر إلى الهند وتعلم السحر فحصل به حال شيطاني وهرب منه الحال الإيماني، ذاع كفره وادعاؤه الربوبية، قتل سنة تسع وثلاثمائة هجرية. (تنظر ترجمة في شذرات الذهب ٢/٢٥٣ ـ ٢٥٧، والبداية والنهاية ١١/١٣٢ ـ ١٤٤).

في هؤلاء أن يكونوا من أهل الحقائق. فإن هذا عزيز وأكثر أهل الحقائق لا يتصفون بلزوم الخوانك؛ ولكن يشترط فيهم ثلاثة شروط:

أحدها: العدالة الشرعية بحيث يؤدون الفرائض ويجتنبون المحارم.

والثاني: التأدب بآداب أهل الطريق، وهي الآداب الشرعية في غالب الأوقات، وأما الآداب البدعية الوضعية فلا يلتفت إليها.

والثالث: أن لا يكون أحدهم متمسكاً بفضول الدنيا، فأما من كان جمَّاعاً للمال، أو كان غير متخلق بالأخلاق المحمودة، ولا يتأدب بالآداب الشرعية، أو كان فاسقاً فإنه لا يستحق ذلك.

وأما «**صوفية الرسم**» فهم المقتصرون على النسبة، فهمهم في اللباس والآداب الوضعية، ونحو ذلك فهؤلاء في الصوفية بمنزلة الذي يقتصر على زي أهل العلم وأهل الجهاد ونوع ما من أقوالهم وأعمالهم بحيث يظن الجاهل حقيقة أمره أنه منهم وليس منهم.

وأما اسم «**الفقير**» فإنه موجود في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لكن المراد به في الكتاب والسنة الفقير المضاد للغني. كما قال النبي ﷺ[1].

«والفقراء والفقر» أنواع: فمنه المسوغ لأخذ الزكاة. وضده الغني المانع لأخذ الزكاة، كما قال النبي ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني ولا لقوي مكتسب»[2] والغني الموجب للزكاة غير هذا عند جمهور العلماء. كمالك والشافعي وأحمد. وهو ملك النصاب وعندهم قد تجب على الرجل الزكاة، ويباح له أخذ الزكاة خلافاً لأبي حنيفة.

والله سبحانه قد ذكر الفقراء في مواضع؛ لكن ذكر الله الفقراء المستحقين للزكاة في آية والفقراء المستحقين للفيء في آية. فقال في الأولى: ﴿إن تبدوا

---

(١) المؤلف لم يذكر مثالاً من السنة، وربما سقط من النساخ سهواً، ونمثل له بقول النبي ﷺ: «اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء» أخرجه البخاري ١١٩/٨ تحت عنوان: «فضل الفقر».

(٢) أخرجه أبو داود في الزكاة ٢٤، والنسائي في الزكاة ٩١، وأحمد ٢٢٤/٤، و٣٦٢/٥.

الصدقات فنعماّهي؛ وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم﴾ إلى قوله ﴿للفقراء المهاجرين الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا﴾[1] . وقال في الثانية : ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى﴾ الآية إلى قوله ﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون﴾[2] .

وهؤلاء «الفقراء» قد يكون فيهم من هو أفضل من كثير من الأغنياء، وقد يكون من الأغنياء من هو أفضل من كثير منهم.

وقد تنازع الناس أيما أفضل: الفقير الصابر، أو الغني الشاكر؟ والصحيح: أن أفضلهما أتقاهما؛ فإن استويا في التقوى استويا في الدرجة كما قد بيناه في غير هذا الموضع، فإن الفقراء يسبقون الأغنياء إلى الجنة [لأنه] لا حساب عليهم. ثم الأغنياء يحاسبون، فمن كانت حسناته أرجح من حسنات فقير، كانت درجته في الجنة أعلى، وإن تأخر عنه في الدخول. ومن كانت حسناته دون حسناته كانت درجته دونه؛ لكن لما كان جنس الزهد في الفقراء أغلب صار الفقر في اصطلاح كثير من الناس عبارة عن طريق الزهد وهو من جنس التصوف[3] .

فإذا قيل: هذا فيه فقر أو ما فيه فقر لم يرد به عدم المال، ولكن يراد به ما يراد باسم الصوفي من المعارف والأحوال والأخلاق، والآداب ونحو ذلك.

وعلى هذا الاصطلاح قد تنازعوا أيما أفضل: الفقير، أو الصوفي؟ فذهب طائفة إلى ترجيح الصوفي، كأبي جعفر السهروردي[4] ونحوه، وذهب طائفة إلى ترجيح الفقير، ـ كطوائف كثيرين ـ وربما يختص هؤلاء بالزوايا وهؤلاء بالخوانك ونحو ذلك، وأكثر الناس قد رجحوا الفقير.

---

(١) سورة البقرة الآيات ٢٧١ ـ٢٧٣.

(٢) سورة الحشر آية ٨.

(٣) أفاض في ذكر هذه المسألة الغزالي في إحياء علوم الدين من الجزء الرابع.

(٤) ضبتها الفتني في المغني بضم السين وفتح واو (ص ١٤٠).

والتحقيق أن أفضلهما أتقاهما، فإن الصوفي إن كان أتقى لله كان أفضل منه، وهو أن يكون أعمل بما يحبه الله، وأترك لما لا يحبه فهو أفضل من الفقير، وإن كان الفقير أعمل بما يحبه الله وأترك لما لا يحبه كان أفضل منه. فإن استويا في فعل المحبوب وترك غير المحبوب استويا في الدرجة.

و «أولياء الله» هم المؤمنون المتقون، سواء سمي أحدهم فقيراً أو صوفياً أو فقيهاً أو عالماً أو تاجراً أو جندياً أو صانعاً أو أميراً أو حاكماً أو غير ذلك.

قال الله تعالى: **﴿ألا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾**[1].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يقول الله تعالى: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه؛ فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش يمشي، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لاعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته، ولا بد له منه»، وهذا الحديث قد بين فيه أولياء الله المقتصدين، أصحاب اليمين والمقربين السابقين.

فالصنف الأول: الذين تقربوا إلى الله بالفرائض. والصنف الثاني الذي تقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض، وهم الذين لم يزالوا يتقربون إليه بالنوافل حتى أحبهم، كما قال تعالى.

وهذان الصنفان قد ذكرهم الله في غير موضع من كتابه كما قال: **﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا: فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات﴾**[2] وكما قال الله تعالى: **﴿إن الابرار لفي نعيم. على الارائك ينظرون. تعرف في وجوهم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامة**

---

(١) سورة يونس آية ٦٢ - ٦٣.

(٢) سورة فاطر آية ٣٢.

مسك. وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم. عيناً يشرب بها المقربون﴾[1] قال ابن عباس: يشرب بها المقربون صرفاً وتمزج لأصحاب اليمين مزجاً. وقال تعالى: **﴿ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً. عيناً فيها تسمى سلسبيلا﴾**[2] وقال تعالى: **﴿وأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة. وأصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة. والسابقون السابقون. أولئك المقربون﴾**[3].

وهذا الجواب فيه جمل تحتاج إلى تفصيل طويل لم يتسع له هذا الموضع. والله اعلم.

[فصل]

[التصوف والفقر]

وَسُئِلَ ما تقول الفقهاء ـ رضي الله عنهم ـ في رجل يقول: إن الفقر لم نتعبد به، ولم نؤمر به، ولا جسم له، ولا معنى، وأنه غير سبيل موصل إلى رضا الله تعالى وإلى رضا رسوله، وإنما تعبدنا بمتابعة أمر الله واجتناب نهيه من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وإن أصل كل شيء العلم والتعبد به، والتقوى والورع عن المحارم، «والفقر» المسمى على لسان الطائفة والأكابر هو الزهد في الدنيا، والزهد في الدنيا يفيده العلم الشرعي فيكون الزهد في الدنيا العمل بالعلم، وهذا هو الفقر، فإذاً الفقر فرع من فروع العلم، والأمر على هذا. وما ثم طريق أوصل من العلم والعمل بالعلم، على ما صح وثبت عن النبي ﷺ.

ويقول: إن الفقر المسمى المعروف عند أكثر أهل الزي المشروع في هذه الأعصار من الزي والألفاظ والاصطلاحات المعتادة غير مرضي لله ولا لرسوله، فهل الأمر كما قال، أو غير ذلك؟ أفتونا مأجورين.

فأجاب الشيخ تقي الدين ابن تيمية ـ رضي الله عنه ـ الحمد لله. أصل هذه

---

(١) سورة المطففين الآيات ١٢ ـ ٢٨.

(٢) سورة الإنسان آية ١٧ ـ ١٨.

(٣) سورة الواقعة الآيات ٨ ـ ١١.

«المسألة» أن الألفاظ التي جاء بها الكتاب والسنة علينا نتبع ما دلت عليه، مثل لفظ الإيمان، والبر، والتقوى، والصدق، والعدل، والإحسان، والصبر، والشكر، والتوكل، والخوف والرجاء، والحب لله، والطاعة لله وللرسول، وبر الوالدين، والوفاء بالعهد ونحو ذلك مما يتضمن ذكر ما أحبه الله ورسوله من القلب والبدن. فهذه الأمور التي يحبها الله ورسوله هي الطريق الموصل إلى الله، مع ترك ما نهى الله عنه ورسوله: كالكفر، والنفاق والكذب، والإثم والعدوان، والظلم والجزع والهلع، والشرك والبخل والجبن، وقسوة القلب والغدر وقطيعة الرحم ونحو ذلك. فعلى كل مسلم أن ينظر فيما أمر الله به ورسوله فيفعله، وما نهى الله عنه ورسوله فيتركه. هذا هو طريق الله وسبيله ودينه الصراط المستقيم. صراط الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وهذا «الصراط المستقيم» يشتمل على علم وعمل: علم شرعي، وعمل شرعي، فمن علم ولم يعمل بعلمه كان فاجراً، ومن عمل بغير علم كان ضالاً، وقد أمرنا الله سبحانه أن نقول: ﴿**إهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين**﴾[1]. قال النبي ﷺ: «اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون»[2] وذلك أن اليهود عرفوا الحق ولم يعملوا به، والنصارى عبدوا الله بغير علم.

ولهذا كان السلف يقولون: احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون. وكانوا يقولون: من فسد من العلماء ففيه شبه من اليهود؛ ومن فسد من العباد ففيه شبه من النصارى. فمن دعا إلى العلم دون العمل المأمور به كان مضلاً، ومن دعا إلى العمل دون العلم كان مضلاً، وأضل منهما من سلك في العلم طريق أهل البدع؛ فيتبع أموراً تخالف الكتاب والسنة يظنها علوماً وهي جهالات. وكذلك من سلك في العبادة طريق أهل البدع. فيعمل أعمالاً تخالف الأعمال المشروعة يظنها عبادات وهي ضلالات. فهذا وهذا كثير في المنحرف المنتسب إلى فقه أو فقر. يجتمع فيه أنه يدعو إلى العلم دون العمل،

---

(١) آخر سورة الفاتحة.

(٢) خرجه ابن كثير بعدة روايات فلينظر في تفسير سورة الفاتحة من تفسير القرآن العظيم (١/٤٧ - ٤٨).

والعمل دون العلم، ويكون ما يدعو إليه فيه بدع تخالف الشريعة. وطريق الله لا تتم إلا بعلم وعمل، يكون كلاهما موافقاً الشريعة.

فالسالك طريق «**الفقر والتصوف والزهد والعبادة**» أن لم يسلك بعلم يوافق الشريعة، وإلا كان ضالاً عن الطريق، وكان ما يفسده أكثر مما يصلحه. والسالك من «**الفقه والعلم والنظر والكلام**» إن لم يتابع الشريعة ويعمل بعلمه وإلا كان فاجراً ضالاً عن الطريق. فهذا هو الأصل يجب اعتماده على كل مسلم.

وأما التعصب لأمر من الأمور بلا هدى من الله فهو من عمل الجاهلية. ﴿**ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله**﴾[1].

ولا ريب ان لفظ «الفقر» في الكتاب والسنة وكلام الصحابة والتابعين وتابعيهم لم يكونوا يريدون به نفس طريق الله، وفعل ما أمر به. وترك ما نهى عنه، والأخلاق المحمودة ولا نحو ذلك؛ بل الفقر عندهم ضد الغنى. و«الفقراء» هم الذين ذكرهم الله في قوله: ﴿**إنما الصدقات للفقراء والمساكين**﴾[2] وفي قوله: ﴿**للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله**﴾[3] و«الغني» هو الذي لا يحل له أخذ الزكاة، أو الذي تجب عليه الزكاة، أو ما يشبه ذلك؛ لكن لما كان الفقر مظنة الزهد طوعاً أو كرهاً؛ إذ من العصمة أو لا تقدر، وصار المتأخرون كثيراً ما يقرنون بالفقر معنى الزهد، والزهد قد يكون مع الغنى، وقد يكون مع الفقر. ففي الأنبياء والسابقين الأولين ممن هو زاهد مع غناه كثير.

و«الزهد» المشروع ترك ما لا ينفع في الدار الآخرة، وأما كل ما يستعين به العبد على طاعة الله فليس تركه من الزهد المشروع بل ترك الفضول التي تشغل عن طاعة الله ورسوله هو المشروع. وكذلك في أثناء المائة الثانية صاروا يعبرون عن ذلك بلفظ «الصوفي»؛ لأن لبس الصوف يكثر في الزهاد، ومن قال إن الصوفي نسبة إلى الصفة، أو الصفا فهي اقوال ضعيفة ثم لفظ الفقرة والتصوف قد ادخل

---

(١) سورة القصص آية ٥٠.

(٢) سورة التوبة آية ٦٠.

(٣) سورة البقرة آية ٢٧٣.

فيها امور يحبها الله ورسوله فتلك يؤمر بها وإن سميت فقراً أو تصوفاً، لأن الكتاب والسنة إذا دل على استحبابها لم يخرج عن ذلك بأن تسمى باسم آخر كما يدخل في ذلك أعمال القلوب بالتوبة والصبر والشكر والرضا والخوف والرجاء والمحبة والأخلاق المحمودة، وقد أدخل فيها أمور يكرهها الله ورسوله كما يدخل فيه بعضهم نوعاً من الحلول والاتحاد، وآخرون نوعاً من الرهبانية المبتدعة في الإسلام، وآخرون نوعاً من مخالفة الشريعة، إلى أمور ابتدعوها إلى أشياء آخر فهذه الأمور ينهى عنها بأي اسم سميت، وقد يدخل فيه أمور مسائل الأحكام فهذه للمصيب فيها أجران وللمخطيء أجر، وقد يدخل فيها التقييد بلبسة معينة وعادة معينة في الأقوال والأفعال بحيث من خرج عن ذلك عد خارجاً عن ذلك، وليست من الأمور التي تعينت بالكتاب والسنة، بل إما أن تكون مباحة وإما أن تكون ملازمتها مكروهة، فهذا بدعة ينهى عنه وليس هذا من لوازم طريق الله وأوليائه، فهذا وأمثاله من البدع والضلالات يوجد في المنتسبين إلى طريق الفقر كما يوجد في المنتسبين إلى العلم أنواع من البدع في الاعتقاد والكلام المخالف للكتاب والسنة والتقيد بألفاظ واصطلاحات لا أصل لها في الشريعة، فقد وقع كثير من هذا في طريق هؤلاء. والمؤمن الكيس يوافق كل قوم فيما وافقوا فيه الكتاب والسنة وأطاعو فيه الله ورسوله ولا يوافقهم فيما خالفوا فيه الكتاب والسنة أو عصوا فيه الله ورسوله، ويقبل من كل طائفة ما جاء به الرسول كما قال ﷺ «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»[1] ومتى تحرى الإنسان الحق والعدل بعلم ومعرفة كان من أولياء الله المتقين وحزب الله المفلحين وجند الله الغالبين [. . .][2] أو الصف الأول، أو صوفة بن بشر بن اد بن طابخة، أو صوفة القفا؛ فهؤلاء أكفر من اليهود والنصارى؛ لكن من الناس من قد لمحوا الفرق في بعض الأمور دون بعض، بحيث يفرق بين المؤمن والكافر ولا يفرق بين البر والفاجر، أو يفرق بين بعض الأبرار وبين بعض الفجار، ولا يفرق بين آخرين اتباعاً لظنه وما يهواه، فيكون

(١) أخرجه البخاري في الصلح ٥، ومسلم في الأقضية ١٧، وابن ماجة في المقدمة ٢، وأحمد ٦/ ٢٧٠.

(٢) هنا نقص في الأصل.

ناقص الإيمان بحسب ما سوى بين الأبرار والفجار، ويكون معه من الإيمان بدين الله تعالى الفارق، بحسب ما فرق به بين أوليائه وأعدائه.

ومن أقر بالأمر والنهي الدينيين دون القضاء والقدر، وكان من القدرية كالمعتزلة ونحوهم، الذين هم مجوس هذه الأمة، فهؤلاء يشبهون المجوس، وأولئك يشبهون المشركين الذين هم شر من المجوس، ومن أقر بهما وجعل الرب متناقضاً فهو من اتباع إبليس الذي اعترض على الرب سبحانه وخاصمه، كما نقل ذلك عنه. فهذا التقسيم في القول والاعتقاد.

وكذلك هم في «الأحوال، والأفعال» فالصواب منها حالة المؤمن الذي يتقي الله فيفعل المأمور، ويترك المحظور، ويصبر على ما يصيبه من المقدور، فهو عند الأمر والدين والشريعة، ويستعين بالله على ذلك، كما قال تعالى: ﴿**إياك نعبد، وإياك نستعين**﴾ وإذا أذنب استغفر وتاب لا يحتج بالقدر على ما يفعله من السيئات، ولا يرى المخلوق حجة على رب الكائنات؛ بل يؤمن بالقدر ولا يحتج به، كما في الحديث الصحيح الذي فيه سيد الاستغفار أن يقول العبد: «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني، وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» فيقر بنعمة الله عليه في الحسنات. ويعلم أنه هو هداه ويسره لليسرى. ويقر بذنوبه من السيئات ويتوب منها. كما قال بعضهم: أطعتك بفضلك، والمنة لك. وعصيتك بعلمك، والحجة لك. فاسألك بوجوب حجتك علي، وانقطاع حجتي إلا غفرت لي.

وفي الحديث الصحيح الإلهي[1]: «يا عبادي! إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» وهذا له تحقيق مبسوط في غير هذا الموضع.

وآخرون قد يشهدون «الأمر» فقط، فتجدهم يجتهدون في الطاعة حسب الاستطاعة، لكن ليس عندهم من مشاهدة القدر ما يوجب لهم حقيقة الاستعانة

(١) أي ما نسميه بالحديث القدسي.

والتوكل والصبر. وآخرون يشهدون «القدر» فقط، فيكون عندهم من الاستعانة والتوكل والصبر ما ليس عند أولئك لكنهم لا يلتزمون أمر الله ورسوله، واتباع شريعته، وملازمة ما جاء به الكتاب والسنة من الدين. فهؤلاء يستعينون الله ولا يعبدونه، والذين من قبلهم يريدون أن يعبدوه ولا يستعينوه. والمؤمن يعبده ويستعينه.

والقسم الرابع شر الأقسام وهو من لا يعبده ولا يستعينه، فلا هو مع الشريعة الأمرية؛ ولا مع القدر الكوني. وانقسامهم إلى هذه الأقسام هو فيما يكون قبل المقدور من توكل واستعانة، ونحو ذلك. وما يكون بعده من صبر ورضا ونحو ذلك، فهم في التقوى وهي طاعة الأمر الديني والصبر على ما يقدر عليه من القدر الكوني أربعة أقسام:

أحدها: أهل التقوى والصبر، وهم الذين أنعم الله عليهم أهل السعادة في الدنيا والآخرة.

والثاني: الذين لهم نوع من التقوى بلا صبر مثل الذين يمتثلون ما عليهم من الصلاة ونحوها، ويتركون المحرمات؛ لكن إذا أصيب أحدهم في بدنه بمرض ونحوه أو ماله أو في عرضه، أو ابتلى بعدو يخيفه، عظم جزعه، وظهر هلعه.

والثالث: قوم لهم نوع من الصبر بلا تقوى: مثل الفجار الذين يصبرون على ما يصيبهم في مثل أهوائهم كاللصوص، والقطاع الذين يصبرون على الآلام في مثل ما يطلبونه من الغصب، وأخذ الحرام، والكتاب وأهل الديوان[1] الذين يصبرون على ذلك في طلب ما يحصل لهم من الأموال بالخيانة وغيرها، وكذلك طلاب الرياسة والعلو على غيرهم يصبرون من ذلك على أنواع من الأذى التي لا يصبر عليها كثير من الناس.

وكذلك أهل المحبة للصور المحرمة من أهل العشق وغيرهم يصبرون في مثل ما يهوونه من المحرمات على أنواع من الأذى والآلام، وهؤلاء هم الذين يريدون علواً في الأرض أو فساداً من طلاب الرياسة، والعلو على الخلق، ومن

---

(١) الديوان: الدفتر يكتب فيه أسماء الجيش وأهل العطاء، وأهل الديوان هم الكتبة.

طلاب الأموال بالبغي والعدوان والاستمتاع بالصور المحرمة نظراً أو مباشرة وغير ذلك، يصبرون على أنواع من المكروهات ولكن ليس لهم تقوى فيما تركوه من المأمور، وفعلوه من المحظور، وكذلك قد يصبر الرجل على ما يصيبه من المصائب: كالمرض والفقر وغير ذلك، ولا يكون فيه تقوى إذا قدر.

وأما القسم الرابع: فهو شر الأقسام لا يتقون إذا قدروا. ولا يصبرون إذا ابتلوا؛ بل هم كما قال الله تعالى: ﴿**إن الانسان خلق هلوعا. إذا مسه الشر جزوعا. وإذا مسه الخير منوعا**﴾[1]. فهؤلاء تجدهم من أظلم الناس وأجبرهم إذا قدروا، ومن أذل الناس وأجزعهم إذا قهروا، إن قهرتهم ذلوا لك، ونافقوك، وحبوك واسترحموك، ودخلوا فيما يدفعون به عن أنفسهم من أنواع الكذب والذل، وتعظيم المسؤول، وإن قهروك كانوا من أظلم الناس، وأقساهم قلباً، رحمة وإحساناً وعفواً. كما قد جربه المسلمون في كل من كان عن حقائق الإيمان أبعد: مثل التتار الذين قاتلهم المسلمون، ومن يشبههم في كثير من أمورهم، وإن كان متظاهراً بلباس جند المسلمين وعلمائهم وزهادهم وتجارهم وصناعهم، فالاعتبار بالحقائق. **فإن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى اموالكم، وانما ينظر إلى قلوبكم** وأعمالكم[2].

فمن كان قلبه وعمله من جنس قلوب التتار وأعمالهم، كان شبيهاً لهم من هذا الوجه، وكان ما معه من الإسلام أو ما يظهره منه بمنزلة ما معهم من الإسلام وما يظهرونه منه، بل يوجد في غير التتار المقاتلين من المظهرين للإسلام من هو أعظم ردة وأولى بالإخلاق الجاهلية وأبعد عن الإخلاق الإسلامية من التتار. وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان يقول في خطبه: «خير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة».

وإذا كان خير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد، فكل من كان إلى

---

(١) سورة المعارج الآيات ١٩ ـ ٢١.

(٢) يشير إلى الحديث الذي أخرجه أحمد في المسند، ولفظه: قال رسول الله ﷺ «إن الله عزّ وجل لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم»(٢/ ٢٨٥).

ذلك أقرب، وهو به أشبه، كان إلى الكمال أقرب، وهو به أحق، ومن كان عن ذلك أبعد وشبهه أضعف، كان عن الكمال أبعد وبالباطل أحق. والكامل هو من كان لله أطوع، وعلى ما يصيبه أصبر، فكلما كان أتبع لما يأمر الله به ورسوله وأعظم موافقة لله فيما يحبه ويرضاه وصبر على ما قدره وقضاه كان أكمل وأفضل. وكل من نقص عن هذين كان فيه من النقص بحسب ذلك.

وقد ذكر الله تعالى الصبر والتقوى جميعاً في غير موضع من كتابه، وبين أنه ينصر العبد على عدوه من الكفار المحاربين والمعاهدين والمنافقين وعلى من ظلمه من المسلمين ولصاحبه تكون العاقبة، قال الله تعالى: **﴿بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا، يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾**[1] وقال الله تعالى: **﴿لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الامور﴾**[2] وقال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم اكبر، قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون. ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم، وتؤمنون بالكتاب كله، وإذا لقوكم قالوا آمنا، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ، قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور. إن تمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها، وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً؛ إن الله بما يعملون محيط﴾**[3].

وقد قرن الصبر بالأعمال الصالحة عموماً وخصوصاً فقال تعالى: **﴿واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين﴾**[4] وفي اتباع ما أوحي إليه التقوى كلها: تصديقاً لخبر الله. وطاعة لامره، وقال تعالى: **﴿وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل، إن الحسنات يذهبن السيئات، ذلك ذكرى للذاكرين. واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾**[5] وقال تعالى: **﴿فاصبر إن وعد الله**

---

(١) سورة آل عمران آية ١٢٥.

(٢) سورة آل عمران آية ١٨٦.

(٣) سورة آل عمران الآيات ١١٨ ـ ١٢٠.

(٤) سورة يونس آية ١٠٩.

(٥) سورة هود آية ١١٥.

حق، واستغفر لذنبك، وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار﴾[1] وقال تعالى: ﴿فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل﴾[2] فهذه مواضع قرن فيها الصلاة والصبر.

وقرن بين الرحمة والصبر في مثل قوله تعالى: ﴿وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة﴾[3] وفي الرحمة الإحسان إلى الخلق بالزكاة وغيرها، فإن القسمة أيضاً رباعية. إذ من الناس من يصبر ولا يرحم: كأهل القوة والقسوة، ومنهم من يرحم ولا يصبر: كأهل الضعف واللين، مثل كثير من النساء ومن يشبههن، ومنهم من لا يصبر ولا يرحم كأهل القسوة والهلع، والمحمود هو الذي يصبر ويرحم، كما قال الفقهاء في صفة المتولي[4]: ينبغي أن يكون قوياً من غير عنف، ليناً من غير ضعف، فبصبره يقوى، وبلينه يرحم، وبالصبر ينصر العبد، فإن النصر مع الصبر، وبالرحمة يرحمه الله تعالى. والله أعلم

(١) سورة غافر آية ٥٥.

(٢) سورة ق آية ٣٩.

(٣) سورة البلد آية ١٧.

(٤) أي ممن يتولى أمور المسلمين.

الباب الثاني



أهل الصفة

سُئِل شيخ الإسلام وقدوة الأنام ومفتي الفرق وناصر السنة: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية ـ رضي الله عنه ـ عن «أهل الصفة» كم كانوا؟ وهل كانوا بمكة أو بالمدينة؟ واين موضعهم الذي كانوا يقيمون فيه؟ وهل كانوا مقيمين بأجمعهم لا يخرجون إلا خروج حاجة؟ أو كان منهم من يقعد بالصفة؟ ومنهم من يتسبب في القوت؟ وما كان تسببهم. هل يعملون بأبدانهم، أم يشحذون بالزنبيل؟ وفي من يعتقد أن «أهل الصفة» قاتلوا المؤمنين مع المشركين؟ وفيمن يعتقد أن «أهل الصفة» أفضل من أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم؟ ومن الستة الباقين من العشرة؟ ومن جميع الصحابة؟ وهل كان فيهم أحد من العشرة؟ وهل كان في ذلك الزمان أحد ينذر لأهل الصفة؟ وهل تواجدوا على دف أو شبابة؟ أو كان لهم حاد ينشد الأشعار ويتحركون عليها بالتصدية ويتواجدون؟

وعن هذه الآية وهي قوله تعالى: **﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾**[1] هل هي مخصوصة بأهل الصفة؟ أم هي عامة؟ وهل الحديث الذي يرويه كثير من العامة ويقولون: إن رسول الله ﷺ قال: «ما من جماعة يجتمعون إلا وفيهم ولي لله: لا الناس يعرفونه ولا الولي يعرف أنه ولي» صحيح]؟ وهل تخفى حالة الأولياء أو طريقهم على أهل العلم أو غيرهم؟ ولماذا سمي الولي ولياً؛ وما المراد بالولي؟

---

(١) سورة الكهف آية ٢٨.

وما الفقراء الذين يسبقون الأغنياء إلى الجنة؟ وما الفقراء الذين أوصى بهم في كلامه. وذكرهم سيد خلقه، وخاتم أنبيائه ورسله محمد ﷺ في سنته. هل هم الذين لا يملكون كفايتهم أهل الفاقة والحاجة أم لا؟؟

فأجاب: شيخ الاسلام: تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية ـ رضي الله عنه ـ بقلمه ما صورته:

الحمد لله رب العالمين.

أما «الصفة» التي ينسب إليها أهل الصفة من أصحاب النبي ﷺ فكانت في مؤخر مسجد النبي ﷺ في شمالي المسجد بالمدينة النبوية، كان يأوى إليها من فقراء المسلمين من ليس له أهل ولا مكان يأوي إليه؛ وذلك أن الله سبحانه وتعالى أمر نبيه ﷺ والمؤمنين أن يهاجروا إلى المدينة النبوية، حين آمن من آمن من أكابر أهل المدينة من الأوس والخزرج، وبايعهم بيعة العقبة عند منى، وصار للمؤمنين دار عز ومنعة، جعل المؤمنون من أهل مكة وغيرهم يهاجرون إلى المدينة، وكان المؤمنون السابقون بها صنفين: المهاجرين الذين هاجروا إليها من بلادهم، والأنصار الذين هم أهل المدينة وكان من لم يهاجر من الأعراب وغيرهم من المسلمين لهم حكم آخر. وآخرون كانوا ممنوعين من الهجرة لمنع أكابرهم لهم بالقيد والحبس، وآخرون كانوا مقيمين بين ظهراني الكفار المستظهرين عليهم.

فكل هذه «الأصناف» مذكورة في القرآن، وحكمهم باق إلى يوم القيامة في أشباههم ونظرائهم. قال الله تعالى: ﴿**إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله. والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض، والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا، وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق، والله بما تعملون بصير. والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير. والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله، والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم**﴾[1] فهذا في السابقين.

---

(١) سورة الأنفال الآيات ٧٢ ـ ٧٤.

ثم ذكر من اتبعهم إلى يوم القيامة فقال: **﴿والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم، وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم﴾**(١) وقال الله تعالى: **﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾**(٢) الآية.

وذكر في السورة الأعراب المؤمنين، وذكر المنافقين من أهل المدينة ومن حولها، وقال سبحانه وتعالى: **﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا: فيم كنتم؟ قالوا: كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً، الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم، وكان الله عفواً غفوراً﴾**(٣).

فلما كان المؤمنون يهاجرون إلى المدينة النبوية كان فيهم من ينزل على الأنصار بأهله، أو بغير أهله؛ لأن المبايعة كانت على أن يؤووهم، ويواسوهم، وكان في بعض الأوقات إذا قدم المهاجر اقترع الأنصار على من ينزل [عنده] منهم، وكان النبي ﷺ قد حالف بين المهاجرين والأنصار. وآخى بينهم، ثم صار المهاجرون يكثرون بعد ذلك شيئاً بعد شيء؛ فإن الإسلام صار ينتشر والناس يدخلون فيه.

والنبي ﷺ يغزو الكفار تارة بنفسه، وتارة بسراياه فيسلم خلق تارة ظاهراً وباطناً، وتارة ظاهراً فقط، ويكثر المهاجرون إلى المدينة من الفقراء والأغنياء، والأهلين والعزاب، فكان من لم يتيسر له مكان يأوي إليه، يأوي إلى تلك الصفة التي في المسجد، ولم يكن جميع أهل الصفة يجتمعون في وقت واحد، بل منهم من يتأهل، أو ينتقل إلى مكان آخر يتيسر له. ويجيء ناس بعد ناس، فكانوا تارة يقلون، وتارة يكثرون، فتارة يكونون عشرة أو أقل، وتارة يكونون عشرين وثلاثين وأكثر، وتارة يكونون ستين وسبعين.

---

(١) سورة الأنفال آية ٧٥.

(٢) سورة التوبة آية ١٠٠.

(٣) سورة النساء آية ٩٧.

وأما جملة من أوى إلى الصفة مع تفرقهم، فقد قيل: كانوا نحو أربعمائة من الصحابة، وقد قيل: كانوا أكثر من ذلك ولم يعرف كل واحد منهم. وقد جمع أسماءهم «الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي»[1] في «كتاب تاريخ أهل الصفة» جمع ذكر من بلغه أنه كان من «أهل الصفة» وكان معتنياً بذكر أخبار النساك، والصوفية؛ والآثار التي يستندون إليها، والكلمات المأثورة عنهم؛ وجمع أخبار زهاد السلف. وأخبار جميع من بلغه أنه كان من أهل الصفة؛ وكم بلغوا. وأخبار الصوفية المتأخرين بعد القرون الثلاثة. وجمع أيضاً في الأبواب: مثل حقائق التفسير. ومثل أبواب التصوف الجارية على أبواب الفقه. ومثل كلامهم في التوحيد والمعرفة والمحبة؛ ومسألة السماع وغير ذلك من الأحوال. وغير ذلك من الأبواب. وفيما جمعه فوائد كثيرة. ومنافع جليلة.

وهو في نفسه رجل من أهل الخير والدين والصلاح والفضل وما يرويه من الآثار فيه من الصحيح شيء كثير. ويروى احياناً اخباراً ضعيفة بل موضوعة. يعلم العلماء انها كذب. وقد تكلم بعض حفاظ الحديث في سماعه.

فالذي جمعه (الشيخ أبو عبد الرحمن) ونحوه في «تاريخ أهل الصفة» واخبار زهاد السلف، وطبقات الصوفية، يستفاد منه فوائد جليلة، ويجتنب منه ما فيه من الروايات الباطلة، ويتوقف فيما فيه من الروايات الضعيفة.

فَصْل
[حال أهل الصفة]

وأما حال «أهل الصفة» هم وغيرهم من فقراء المسلمين الذين لم يكونوا في الصفة، أو كانوا يكونون بها بعض الأوقات، فكما وصفهم الله تعالى في كتابه،

(١) هو محمد بن الحسين بن محمد الأزدي السلمي النيسابوري، صوفي، محدث، حافظ، مفسر، مؤرخ، بلغت تصانيفه مائة مصنف، قال محمد النيسابوري كان يضع للصوفية، ذكر البغدادي في كشف الظنون اسم مصنفه: «تاريخ أهل الصفوة، مات سنة ٤١٢ هـ (انظر ترجمته في شذرات الذهب ٣/ ٢٩٥، وطبقات الشافعية للسبكي ٣/ ٦٠ ـ ٦٢، وكشف الظنون ١/ ٢٨٦).

حيث بين مستحقي الصدقة منهم، ومستحقي الفيء منهم. فقال: ﴿**إن تبدوا الصدقات فنعماً هي، وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير**﴾ إلى قوله ﴿**للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً**﴾[1]. وقال في أهل الفيء: ﴿**للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، وينصرون الله ورسوله، أولئك هم الصادقون**﴾[2].

وكان فقراء المسلمين من أهل الصفة وغيرهم يكتسبون عند إمكان الاكتساب الذي لا يصدهم عما هو أوجب أو أحب إلى الله ورسوله من الكسب، وأما إذا أحصروا في سبيل الله عن الكسب، فكانوا يقدمون ما هو أقرب إلى الله ورسوله، وكان أهل الصفة ضيوف الإسلام، يبعث إليهم النبي ﷺ بما يكون عنده، فإن الغالب كان عليهم الحاجة لا يقوم ما يقدرون عليه من الكسب بما يحتاجون إليه من الرزق.

وأما «المسألة»[3] فكانوا فيها كما أدبهم النبي ﷺ حيث حرمها على المستغني عنها، وأباح منها أن يسأل الرجل حقه، مثل أن يسأل ذا السلطان أن يعطيه حقه من مال الله، أو يسأل إذا كان لا بد سائلاً الصالحين الموسرين إذا احتاج إلى ذلك، ونهى خواص أصحابه عن المسألة مطلقاً، حتى كان السوط يسقط من يد أحدهم فلا يقول لأحد: ناولني إياه.

وأما الجائز منها فمثل ما أخبر الله تعالى عن موسى والخضر: أنهما أتيا أهل قرية فاستطعما أهلها. ومثل قوله: «لا تحل المسألة إلا لذي دم موجع، أو غرم مفظع، أو فقر مدقع»[4] ومثل قوله لقبيصة ابن مخارق الهلالي: «يا قبيصة! لا تحل

---

(١) سورة البقرة الآيات ٢٧١ - ٢٧٣.

(٢) سورة الحشر آية ٨.

(٣) قصد بها سؤال الناس بعض المال.

(٤) أنظر أبو داود في الزكاة ٢٦، والترمذي في الزكاة ٢٣، وابن ماجة في التجارات ٢٥، وأحمد ١١٤/٣، ١٢٧.

المسألة إلا لثلاثة: رجل اصابته جائحة اجتاحت ماله: فسأل حتى يجد سداداً من عيش، أو قواماً من عيش، ثم يمسك. ورجل اصابته فاقة. حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجا من قومه فيقولون: لقد اصابت فلاناً فاقة، فسأل حتى يجد سداداً من عيش، أو قواماً من عيش، ثم يمسك. ورجل تحمل حمالة فسأل حتى يجد حمالته، ثم يمسك. وما سوى ذلك من المسألة فإنما هي سحت يأكله صاحبه سحتاً»[1].

ولم يكن في الصحابة ـ لا أهل الصفة ولا غيرهم ـ من يتخذ مسألة الناس، ولا الإلحاف[2] في المسألة بالكدية، والشحاذة لا بالزنبيل ولا غيره صناعة وحرفة، بحيث لا يبتغي الرزق إلا بذلك، كما لم يكن في الصحابة أيضاً أهل فضول من الأموال يتركون، لا يؤدون الزكاة ولا ينفقون أموالهم في سبيل الله، ولا يعطون في النوائب. بل هذان الصنفان الظالمان المصران على الظلم الظاهر، من مانعي الزكاة. والحقوق الواجبة، والمتعدين حدود الله تعالى في أخذ أموال الناس كانا معدومين في الصحابة المثنى عليهم.

فَصْل
[هل قاتل أهل الصفة مع الكفار]

وأما من قال: إن احداً من الصحابة أهل الصفة أو غيرهم أو التابعين أو

(١) ولفظ الحديث في مسلم: عن قبيصة بن مخارق الهلالي قال: تحملت حمالة، فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها، فقال: «أقم حتى تأتينا الصدقة، فنأمر لك بها» قال: ثم قال: «يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة، حتى يصيبها ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتحاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش (أو قال سداداً من عيش) ورجل أصابته فاقة، حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجا من قومه لقد أصابت فلاناً فاقة، فحلت له المسألة، حتى يصيب قواماً من عيش (أو قال سداداً من عيش) فما سواهن من المسألة يا قبيصة، سحتاً يأكلها صاحبها سحتاً»(صحيح مسلم ٢/٧٢٢) وأخرجه أيضاً أبو داود والترمذي والنسائي والدارمي وأحمد

(٢) الإلحاف: إلحاح السائل وهو غني عن المال.

تابعي التابعين قاتل مع الكفار، أو قاتلوا النبي ﷺ أو أصحابه، أو أنهم كانوا يستحلون ذلك، أو أنه يجوز ذلك. فهذا ضال غاو؛ بل كافر يجب أن يستتاب من ذلك. فإن تاب وإلا قتل. **﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً﴾**(١): بل كان أهل الصفة وغيرهم كالقراء الذين قنت النبي ﷺ يدعو على من قتلهم من أعظم الصحابة إيماناً وجهاداً مع رسول الله ﷺ ونصراً لله ورسوله، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: **﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون﴾**(٢) وقال: **﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً﴾** إلى قوله **﴿ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار﴾**(٣) وقال **﴿من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه، أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين. يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله واسع عليم﴾**(٤).

وقد غزا النبي ﷺ غزوات متعددة، وكان القتال منها في تسع مغاز: مثل بدر. وأحد. والخندق. وخيبر. وحنين. وانكسر المسلمون يوم أحد وانهزموا. ثم عادوا يوم حنين، ونصرهم الله ببدر وهم أذلة، وحصروا في الخندق حتى دفع الله عنهم أولئك الأعداء، وفي جميع المواطن كان يكون المؤمنون من أهل الصفة وغيرهم مع النبي ﷺ، لم يقاتلوا مع الكفار قط. وإنما يظن هذا ويقوله من الضلال والمنافقين قسمان:

قسم منافقون. وإن أظهروا الإسلام، وكان في بعضهم زهادة وعبادة، يظنون أن إلى الله طريقاً غير الإيمان بالرسول ومتابعته، وأن من أولياء الله من يستغني عن

(١) سورة النساء آية ١١٥.

(٢) سورة الحشر آية ٨.

(٣) سورة الفتح آية ٢٩.

(٤) سورة المائدة آية ٥٤.

متابعة الرسول، كاستغناء الخضر عن متابعة موسى. وفي هؤلاء من يفضل شيخه أو عالمه أو ملكه على النبي ﷺ: إما تفضيلاً مطلقاً، أو في بعض صفات الكمال. وهؤلاء منافقون كفار يجب قتلهم بعد قيام الحجة عليهم.

فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ إلى جميع الثقلين: إنسهم وجنهم وزهادهم وملوكهم. وموسى عليه السلام إنما بعث إلى قومه لم يكن مبعوثاً إلى الخضر، ولا كان يجب على الخضر اتباعه؛ بل قال له: إني على علم من علم الله تعالى علمنيه الله لا تعلمه. وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه. وقد قال النبي ﷺ: «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة»[1] وقال الله تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً. الذي له ملك السموات والأرض﴾[2] وقال تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً﴾[3].

والقسم الثاني من يشاهد ربوبية الله تعالى لعباده التي عمت جميع البرايا، ويظن أن دين الله الموافقة للقدر، سواء كان في ذلك عبادة الله وحده لا شريك له، أو كان فيه عبادة الأوثان واتخاذ الشركاء والشفعاء من دونه، وسواء كان فيه الإيمان بكتبه ورسله، أو الإعراض عنهم والكفر بهم، بهم، وهؤلاء يسوون بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات وبين المفسدين في الأرض، وبين المتقين والفجار، ويجعلون المسلمين كالمجرمين، ويجعلون الإيمان والتقوى والعمل الصالح بمنزلة الكفر والفسوق والعصيان، وأهل الجنة كأهل النار، وأولياء الله كأعداء الله، وربما جعلوا هذا من «باب الرضا بالقضاء» وربما جعلوه «التوحيد والحقيقة» بناء على أنه توحيد الربوبية الذي يقربه المشركون، وأنه «الحقيقة الكونية».

وهؤلاء يعبدون الله على حرف: فإن أصابهم خير اطمأنوا به، وإن أصابتهم فتنة انقلبوا على وجوههم، خسروا الدنيا والآخرة[4]، وغالبهم يتوسعون في ذلك

---

(١) أخرجه البخاري في التيمم والصلاة ٥٦ والغسل ٢٦، والدارمي في السير ٢٨، وأوله: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي...».

(٢) سورة الأعراف آية ١٥٨.

(٣) سورة الأنبياء آية ١٠٧.

(٤) اقتبس هذا الكلام من قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به =

حتى يجعلوا قتال الكفار قتالاً لله، ويجعلون أعيان الكفار والفجار والأوثان من نفس الله وذاته، ويقولون: ما في الوجود غيره، ولا سواه، بمعنى أن المخلوق هو الخالق، والمصنوع هو الصانع، وقد يقولون: **﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء﴾**[1] ويقولون: **﴿أنطعم من لو يشاء الله أطعمه﴾**[2] إلى نحو ذلك من الأقوال والأفعال التي هي شر من مقالات اليهود والنصارى، بل ومن مقالات المشركين والمجوس، وسائر الكفار، من جنس مقالة فرعون والدجال، ونحوهما ممن ينكر الصانع الخالق البارىء رب العالمين، أو يقولون: إنه هو، أو أنه حل فيه.

وهؤلاء كفار بأصلي الإسلام وهما: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

فإن التوحيد الواجب أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، ولا نجعل له نداً في إلهيته، لا شريكاً ولا شفيعاً. فأما «توحيد الربوبية» وهو الإقرار بأنه خالق كل شيء، فهذا قد أقر به المشركون الذين قال الله فيهم: **﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾**[3] قال ابن عباس: تسألهم من خلق السموات والأرض؟ فيقولون: الله وهم يعبدون غيره، وقال تعالى: **﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض؟ ليقولن الله﴾**[4] وقال تعالى: **﴿قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون. سيقولون: لله، قل أفلا تذكرون. قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم. سيقولون لله، قل: أفلا تتقون قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا**

= **وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين﴾** (سورة الحج آية ١١) ومعنى الآية كما روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «كان ناس من الأعراب يأتون النبي ﷺ فيسلمون، فإذا رجعوا إلى بلادهم فإن وجدوا عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن، قالوا: إن ديننا هذا لصالح فتمسكوا به، وإن وجدوا عام جدوبة وعام ولاد سوء وعام قحط، قالوا: ما في ديننا هذا خير» فأنزلت هذه الآية (انظر تفسير ابن كثير ٣/٣٣٥).

(١) سورة الأنعام آية ١٤٨.

(٢) سورة يس آية ٤٧.

(٣) سورة يونس آية ١٠٦.

(٤) سورة لقمان آية ٢٥.

يجار عليه إن كنتم تعلمون. سيقولون: لله، قل: فأني تُسحرون﴾[1].

فالكفار المشركون مقرون أن الله خالق السموات والأرض، وليس في جميع الكفار من جعل لله شريكاً مساوياً له في ذاته وصفاته وأفعاله، هذا لم يقله أحد قط، لا من المجوس الثنوية، ولا من أهل التثليث، ولا من الصابئة المشركين الذين يعبدون الكواكب والملائكة، ولا من عباد الأنبياء والصالحين. ولا من عباد التماثيل والقبور وغيرهم: فإن جميع هؤلاء ـ وإن كانوا كفاراً مشركين متنوعين في الشرك ـ فهم مقرون بالرب الحق الذي ليس له مثل في ذاته وصفاته، وجميع أفعاله؛ ولكنهم مع هذا مشركون به في الوهيته، بأن يعبدوا معه آلهة أخرى، يتخذونها شفعاء أو شركاء: أو في ربوبيته بأن يجعلوا غيره رب بعض الكائنات دونه مع اعترافهم بأنه رب ذلك الرب، وخالق ذلك الخلق.

وقد أرسل الله جميع الرسل، وأنزل جميع الكتب بالتوحيد الذي هو عبادة الله وحده، لا شريك له. كما قال الله تعالى: **﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾**[2] وقال تعالى: **﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون؟!﴾**[3] وقال تعالى: **﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت. فمنهم من هدى الله. ومنهم من حقت عليه الضلالة﴾**[4]

وقد قالت الرسل كلهم مثل نوح وهود وصالح وغيرهم: **﴿أن اعبدوا الله واتقوه واطيعون﴾**[5] فكل الرسل دعوا إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وإلى طاعتهم.

ويحتجون بما يفترونه: أن أهل الصفة قاتلوه. وأنهم قالوا: نحن مع الله من كان الله معه كنا معه، يريدون بذلك القدر و«الحقيقة الكونية» دون الأمر و«الحقيقة الدينية» ويحتج بمثل هذا من ينصر الكفار والفجار، ويخفرهم بقلبه وهمته، وتوجهه من ذوي الفقر ويعتقدون مع هذا أنهم من أولياء الله، وأن الخروج

(١) سورة المؤمنون الآيات ٨٤ ـ ٨٩.

(٢) سورة يوسف آية ١٠٩.

(٣) سورة الزخرف آية ٤٥.

(٤) سورة النحل آية ٣٦.

(٥) سورة نوح آية ٣.

عن الشريعة المحمدية سائغ لهم، وكل هذا ضلال وباطل. وإن كان لأصحابه زهد وعبادة، فهم في العباد؛ مثـل أوليائهم من التتار ونحوهم في الأجناد فإن «المرء على دين خليله» و«المرء مع من أحب» هكـذا قال النبي ﷺ، وقـد جعل الله المؤمنين بعضهم أولياء بعض، والكافرين بعضهم أولياء بعض.

وقد أمر النبي ﷺ بقتال المارقين من الإسلام مع عبادتهم العظيمة الذين قال فيهم النبي ﷺ: «يحقر احدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم. وقراءته مع قراءتهم. ويقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الاسلام كما يمرق السهم من الرمية. أينما لقيتموهم فاقتلوهم؛ فإن في قتلهم أجـراً عند الله لمن قتلهم يوم القيامة، لئن أدركتهم لاقتلنهم قتل عاد»(1) وهؤلاء قاتلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب لما خرجوا عن شريعة رسول الله ﷺ عليه وسلم وسنته، وفارقوا جماعة المسلمين، فكيف بمن يعتقد ان المؤمنين كانوا يقاتلون النبي ﷺ؟!

ومثل هذا ما يرويه بعض هؤلاء المفترين: أن أهل الصفة سمعوا ما خاطب الله به رسوله ليلة المعراج؛ وأن الله أمره أن لا يعلم به أحداً. فلما أصبح وجدهم يتحدثون، فانكر ذلك، فقال الله تعالى: «أنا أمرتك أن لا تعلم به أحداً؛ لكن أنا الذي أعلمتهم به». إلى امثال هذه الأكاذيب التي هي من أعظم الكفر. وهي كذب واضح؛ فإن «أهل الصفة» لم يكونوا إلا بـالمدينـة؛ لم يكن بمكة أهـل صفة؛ والمعراج إنما كان من مكة.

ومما يشبه هذا من بعض الوجوه: رواية بعضهم عن عمر أنه قال: كان النبي ﷺ يتحدث هو وأبو بكر وكنت كالزنجي بينهما. وهذا من الإفك المختلق. ثم انهم مع هذا يجعلون عمر الذي سمع كلام النبي ﷺ وصديقه، وهو أفضل الخلق بعد الصديق لم يفهم ذلك الكلام، بل كان كالزنجي. ويدعون أنهم هم سمعوه وعرفوه ثم كل منهم يفسره بما يدعيه من الضلالات الكفرية التي يزعم أنها «علم الاسرار والحقائق» [ويريدون بذلك] إما الاتحاد وإما تعطيل الشرائع ونحو ذلك.

---

(1) أخرجه البخاري في المناقب ٢٥. وفضائل القرآن ٣٦، ومسلم في المسافرين ٢٧٥، والزكاة ١٤٢ - ١٤٤، وأبو داود في السنة ٢٨، والنسائي في الزكاة ٧٩ وتحريم الدم ٢٦، وفي موطأ مالك في باب القرآن ١٠، وأحمد ٣/٥، ٣٥٣، ٤٨٦.

مثل ما تدعي النصيرية. والاسماعيلية؛ والقرامطة والباطنية الثنوية، والحاكمية وغيرهم، من الضلالات المخالفة لدين الإسلام. وما ينسبونه إلى علي بن أبي طالب؛ أو جعفر الصادق أو غيرهما من أهل البيت كالبطاقة والهفت والجدول والجفر وملحمة بن عنضب، وغير ذلك من الأكاذيب المفتراة باتفاق جميع أهل المعرفة، وكل هذا باطل.

فإنه لما كان لآل رسول الله ﷺ به اتصال النسب والقرابة، وللأولياء الصالحين منهم ومن غيرهم به اتصال الموالاة والمتابعة، صار كثير ممن يخالف دينه وشريعته وسنته يموه باطله ويزخرفه بما يفتريه على أهل بيته وأهل موالاته ومتابعته، وصار كثير من الناس يغلو إما في قوم من هؤلاء، أو من هؤلاء، حتى يتخذهم آلهة أو يقدم ما يضاف إليهم على شريعة النبي ﷺ وسنته، وحتى يخالف كتاب الله وسنة رسوله، وما اتفق عليه السلف الطيب من أهل بيته ومن أهل الموالاة له والمتابعة، وهذا كثير في أهل الضلال.

فَصْل
[تفضيل أهل الصفة على غيرهم]

واما تفضيل «أهل الصفة» على العشرة وغيرهم فخطأ وضلال، بل خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر، كما تواتر ذلك عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب موقوفاً ومرفوعاً، وكما دل على ذلك الكتاب والسنة، واتفق عليه سلف الأمة وأئمة العلم والسنة، وبعدهما عثمان وعلي وكذلك سائر أهل الشورى: مثل طلحة والزبير وسعد وعبدالرحمن بن عوف، وهؤلاء مع أبي عبيدة بن الجراح - أمين هذه الأمة - ومع سعيد بن زيد. هم العشرة المشهود لهم بالجنة.

قال الله عز وجل في كتابه: ﴿**لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلاً وعد الله الحسنى**﴾[1] ففضل الله السابقين قبل فتح الحديبية إلى الجهاد بأموالهم وأنفسهم على التابعين

(١) سورة الحديد آية ١٠.

بعدهم، وقال الله تعالى: ﴿**لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة**﴾[1] وقال تعالى: ﴿**والسابقون الأولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه**﴾[2] فرضي الله سبحانه عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار.

وقد ثبت في فضل البدريين ما تميزوا به على غيرهم، وهؤلاء الذين فضلهم الله ورسوله، فمنهم من هو من أهل الصفة، وأكثرهم لم يكونوا من أهل الصفة، والعشرة لم يكن فيهم من هو من أهل الصفة إلا سعد بن أبي وقاص. فقد قيل: إنه أقام بالصفة مرة، وأما أكابر المهاجرين والأنصار مثل الخلفاء الأربعة، ومثل سعد بن معاذ، وأسيد بن الحضير، وعباد بن بشر، وأبي أيوب الأنصاري، ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب ونحوهم، فلم يكونوا من «أهل الصفة» بل عامة أهل الصفة إنما كانوا من فقراء المهاجرين؛ لأن الأنصار كانوا في ديارهم ولم يكن أحد ينذر لأهل الصفة ولا لغيرهم.

فَصْل
[تفضيل أهل الصفة]

وأما سماع المكاء والتصدية: وهو الاجتماع لسماع القصائد الربانية، سواء كان بكف، أو بقضيب، أو بدف، أو كان مع ذلك شبابة، فهذا لم يفعله أحد من الصحابة، لا من أهل الصفة ولا من غيرهم؛ بل ولا من التابعين، بل القرون المفضلة التي قال فيها النبي ﷺ: «خير القرون الذين بعثت فيهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»[3] لم يكن فيهم أحد يجتمع على هذا السماع، لا في الحجاز ولا في الشام ولا في اليمن، ولا العراق ولا مصر، ولا خراسان ولا

(١) سورة الفتح آية ١٨.

(٢) سورة التوبة آية ١٠٠.

(٣) أنظر روايات الحديث في البخاري في الشهادات ٩ وفضائل أصحاب النبي ١ والرقاق ٧، والترمذي في الفتن ٤٥ والشهادات ٤، وابن ماجة في الأحكام ٢٧، وأحمد ١/٣٧٨، ٤١٧، و٢/٢٢٨، ٤١٠، و٤/٢٦٧، ٤٢٧، و٥/٣٥٠.

المغرب. وإنما كان السماع الذي يجتمعون عليه سماع القرآن، وهو الذي كان الصحابة من أهل الصفة وغيرهم يجتمعون عليه، فكان أصحاب محمد ﷺ إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم يقرأ، والباقي يستمعون، وقد روي: «أن النبي ﷺ خرج على أهل الصفة وفيهم قارىء يقرأ فجلس معهم» وكان عمر بن الخطاب يقول لأبي موسى: يا أبا موسى! ذكرنا ربنا، فيقرأ وهم يستمعون. [وكان وجدهم على ذلك، وكذلك إرادة قلـوبهم] وكل من نقل أنهم كان لهم حاد ينشد القصائد الربانية بصلاح القلوب، أو أنهم لما أنشد بعض القصائد تواجدوا على ذلك. أو أنهم مزقوا ثيابهم، أو أن قائلاً أنشدهم:

قد لسعت حية الهوى كبدي ... فلا طبيب لها ولا راقي
إلا الطبيب الذي شغفت به ... فعنده رقيتي وترياقي

أو أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قال: «إن الفقراء يدخلون الجنة قبل الاغنياء بنصف يوم»[1] أنشدوا شعراً وتواجدوا عليه، فكل هذا وأمثاله إفك مفترى، وكذب مختلق باتفاق أهل الاتفاق من أهل العلم والإيمان، لا ينازع في ذلك إلا جاهل ضال، وإن كان قد ذكر في بعض الكتب شيء من ذلك فكله كذب باتفاق أهل العلم والإيمان.

فَصْل
[أولياء الله]

و«أولياء الله» هم ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾[2] كما ذكر الله تعالى في كتابه. وهم «قسمان»: المقتصدون أصحاب اليمين والمقربون السابقون.

فولي الله ضد عدو الله، قال الله تعالى: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون: الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾[3] وقال تعالى: ﴿إنما وليكم الله

(١) أخرجه أحمد وروايته: «قال يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم وهو خمسمائة عام» (٣٤٣/٢).
(٢) سورة يونس آية ٦٢.
(٣) سورة يونس آية ٦٢.

ورسوله والذين آمنوا﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾[1] وقال تعالى: **﴿لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء﴾**[2] وقال: **﴿ويوم يحشر اعداء الله إلى النار فهم يوزعون﴾**[3] وقال: **﴿افتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو﴾**[4].

وقد روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إليَّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه؛ فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه».

و «الولي» مشتق من الولاء وهو القرب، كما أن العدو من العدو هو البعد. فولي الله من والاه بالموافقة له في محبوباته ومرضياته، وتقرب إليه بماأمر به من طاعاته. وقد ذكر النبي ﷺ في هذا الحديث الصحيح الصنفين المقتصدين من أصحاب اليمين، وهم المتقربون إلى الله بالواجبات، والسابقين المقربين وهم المتقربون إليه بالنوافل بعد الواجبات

وذكر الله «الصنفين» في «سورة فاطر» و «الواقعة» و «الإنسان» و «المطففين» وأخبر أن الشراب الذي يروى به المقربون بشربهم إياه صِرفاً يمزج لأصحاب اليمين.

و «الولي المطلق» هو من مات على ذلك. فأما إن قام به الإيمان والتقوى وكان في علم الله أنه يرتد عن ذلك، فهل يكون في حال إيمانه وتقواه ولياً لله أو يقال لم يكن ولياً لله قط لعلم الله بعاقبته؟ هذا فيه قولان للعلماء. وكذلك عندهم

---

(١) سورة المائدة آية ٥٥ ـ ٥٦.

(٢) سورة الممتحنة آية ٤.

(٣) سورة فصلت آية ١٩.

(٤) سورة الكهف آية ٥٠.

الإيمان الذي يعقبه الكفر هل هو إيمان صحيح ثم يبطل بمنزلة ما يحبط من الأعمال بعد كماله، أو هو إيمان باطل بمنزلة من أفطر قبل غروب الشمس في صيامه ومن أحدث قبل السلام في صلاته. فيه أيضاً قولان: للفقهاء والمتكلمين والصوفية.

والنزاع في ذلك بين أهل السنة والحديث من أصحاب الإمام أحمد وغيرهم وكذلك يوجد النزاع فيه بين أصحاب مالك والشافعي وغيرهم. لكن أكثر أصحاب أبي حنيفة لا يشترطون سلامة العاقبة، وكثير من أصحاب مالك والشافعي وأحمد يشترط سلامة العاقبة، وهو قول كثير من متكلمي أهل الحديث: كالأشعري، ومن متكلمي الشيعة ويبنون على هذا النزاع :أن ولي الله هل يصير عدواً لله وبالعكس؟ ومن أحبه الله ورضي عنه. هل أبغضه وسخط عليه في وقت ما وبالعكس؟ ومن أبغضه الله وسخط عليه هل أحبه الله ورضي عنه في وقت ما على القولين؟

و «التحقيق» هو الجمع بين القولين. فإن علم الله القديم الأزلي وما يتبعه من محبته ورضاه، وبغضه وسخطه، وولايته وعداوته لا يتغير. فمن علم الله منه أنه يوافي حين موته بالإيمان والتقوى فقد تعلق به محبة الله وولايته ورضاه عنه أزلاً وأبداً. وكذلك من علم الله منه أنه يوافي حين موته بالكفر فقد تعلق به بغض الله وعداوته، وسخطه أزلاً وأبداً لكن مع ذلك فإن الله تعالى يبغض ما قام بالأول من كفر وفسوق قبل موته. وقد يقال: إنه يبغضه ويمقته على ذلك، كما ينهاه عن ذلك وهو سبحانه وتعالى يأمر بما فعله الثاني من الإيمان والتقوى، ويحب ما يأمر به ويرضاه، وقد يقال إنه يواليه حينئذ على ذلك.

والدليل على ذلك: اتفاق الأئمة على أن من كان مؤمناً ثم ارتد فإنه لا يحكم بأن إيمانه الأول كان فاسداً، بمنزلة من أفسد الصلاة والصيام والحج قبل الإكمال؛ وإنما يقال كما قال الله تعالى: **﴿ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله﴾**[1] وقال **﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾**[2] وقال: **﴿ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾**[3]

(١) سورة المائدة آية ٥.

(٢) سورة الزمر آية ٦٥.

(٣) سورة الأنعام آية ٨٨.

ولو كان فاسداً في نفسه لوجب الحكم بفساد أنكحته المتقدمة، وتحريم ذبائحه، وبطلان إرثه المتقدم، وبطلان عبادته جميعها، حتى لو كان قد حج عن غيره كان حجه باطلاً، ولو صلى مدة بقوم ثم ارتد كان عليهم أن يعيدوا صلاتهم خلفه، ولو شهد أو حكم ثم ارتد [لوجب] أن تفسد شهادته وحكمه ونحو ذلك. وكذلك أيضاً الكافر إذا تاب من كفره، لو كان محبوباً لله ولياً له في حال كفره، لوجب أن يقضي بعدم إحكام ذلك الكفر، وهذا كله خلاف ما ثبت بالكتاب والسنة والإجماع.

والكلام في هذه «المسألة» نظير الكلام في الأرزاق والآجال وهي أيضاً مبنية على «قاعدة الصفات الفعلية» وهي قاعدة كبيرة.

وعلى هذا يخرج جواب السائل، فمن قال: إن ولي الله لا يكون إلا من وافاه حين الموت بالإيمان والتقوى، فالعلم بذلك أصعب عليه وعلى غيره. ومن قال: قد يكون ولياً لله من كان مؤمناً تقياً وإن لم تعلم عاقبته فالعلم به أسهل.

ومع هذا يمكن العلم بذلك للولي نفسه ولغيره، ولكنه قليل ولا يجوز لهم القطع على ذلك، فمن ثبتت ولايته بالنص . وأنه من أهل الجنة كالعشرة وغيرهم فعامة أهل السنة يشهدون له بما شهد له به النص. وأما من شاع له لسان صدق في الأمة بحيث اتفقت الأمة على الثناء عليه فهل يشهد له بذلك؟ هذا فيه نزاع بين أهل السنة، والأشبه أن يشهد له بذلك. هذا في الأمر العام.

وأما «خواص الناس» فقد يعلمون عواقب أقوام بما كشف الله لهم، لكن هذا ليس ممن يجب التصديق العام به، فإن كثيراً ممن يظن به أنه حصل له هذا الكشف يكون ظاناً في ذلك ظناً لا يغني من الحق شيئاً، وأهل المكاشفات والمخاطبات يصيبون تارة؛ ويخطئون أخرى؛ كأهل النظر والاستدلال في موارد الاجتهاد؛ ولهذا وجب عليهم جميعهم أن يعتصموا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأن يزينوا مواجيدهم ومشاهدتهم وآرائهم ومعقولاتهم بكتاب الله وسنة رسوله؛ ولا يكتفوا بمجرد ذلك؛ فإن سيد المحدثين والمخاطبين الملهمين من هذه الأمة هو عمر بن الخطاب؛ وقد كانت تقع له وقائق فيردها عليه رسول الله ﷺ؛ أو صديقه التابع له الآخذ عنه الذي هو أكمل من المحدث الذي يحدثه قلبه عن ربه.

ولهذا وجب على جميع الخلق اتباع الرسول ﷺ وطاعته في جميع أموره

الباطنة والظاهرة، ولو كان أحد يأتيه من الله ما لا يحتاج إلى عرضه على الكتاب والسنة لكان مستغنياً عن الرسول ﷺ في بعض دينه. وهذا من أقوال المارقين الذين يظنون أن من الناس من يكون مع الرسول كالخضر مع موسى. ومن قال هذا فهو كافر.

وقد قال الله تعالى: **﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته، فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم﴾**[1] فقد ضمن الله للرسول وللنبي أن ينسخ ما يلقي الشيطان في أمنيته، ولم يضمن ذلك للمحدث؛ ولهذا كان في الحرف الآخر الذي كان يقرأ به ابن عباس وغيره: «وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محدث إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته».

ويحتمل والله اعلم أن [لا] يكون هذا الحرف متلواً، حيث لم يضمن نسخ ما ألقى الشيطان [في أمنية المحدث]؛ فإن نسخ ما ألقى الشيطان ليس إلا للأنبياء والمرسلين، إذ هم معصومون فيما يبلغونه عن الله تعالى أن يستقر فيه شيء من إلقاء الشيطان، وغيرهم لا تجب عصمته من ذلك، وإن كان من أولياء الله المتقين، فليس من شرط أولياء الله المتقين أن لا يكونوا مخطئين في بعض الأشياء خطأ مغفوراً لهم؛ بل ولا من شرطهم ترك الصغائر مطلقاً، بل ولا من شرطهم ترك الكبائر أو الكفر الذي تعقبه التوبة.

وقد قال الله تعالى: **﴿والذي جاء بالصدق وصدق به اولئك هم المتقون، لهم مايشاؤون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون﴾**[2] فقد وصفهم الله بأنهم هم المتقون. و«المتقون» هم أولياء الله، ومع هذا فأخبر أنه يكفر عنهم أسوأ الذي عملوا، وهذا أمر متفق عليه بين أهل العلم والإيمان.

وإنما يخالف في ذلك الغالية من الرافضة وأشباه الرافضة من الغلية في

---

(١) سورة الحج آية ٥٢.

(٢) سورة الزمر آية ٣٣.

بعض المشائخ، ومن يعتقدون أنه من الأولياء. فالرافضة تزعم أن «الإثني عشر»[1] معصومون من الخطأ والذنب. ويرون هذا من أصول دينهم، والغالية في المشائخ قد يقولون: إن الولي محفوظ والنبي معصوم. وكثير منهم إن لم يقل ذلك بلسانه؛ فحاله حال من يرى أن الشيخ والولي لا يخطىء ولا يذنب؛ وقد بلغ الغلو بالطائفتين إلى أن يجعلوا بعض من غلوا فيه بمنزلة النبي وأفضل منه، وإن زاد الأمر جعلوا له نوعاً من الإلهية، وكل هذا من الضلالات الجاهلية المضاهية للضلالات النصرانية. فإن في النصارى من الغلو في المسيح والأحبار والرهبان ما ذمهم الله عليه في القرآن؛ وجعل ذلك عبرة لنا؛ لئلا نسلك سبيلهم، ولهذا قال سيد ولد آدم: «لا تطروني. كما أطرت النصارى عيسى بن مريم. فإنما أنا عبد فقولوا: عبد الله؛ ورسوله»[2].

فَصْل
[أصناف الفقراء]

واما «الفقراء» الذين ذكرهم الله في كتابه فهم صنفان: مستحقوا الصدقات، ومستحقوا الفيء.

أما مستحقوا الصدقات فقد ذكرهم الله في كتابه في قوله: **﴿إن تبدوا الصدقات فنعماً هي، وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم﴾**[3] وفي قوله: **﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين﴾**[4]. وإذا ذكر في القرآن اسم «الفقير» وحده، و«المسكين» وحده - كقوله: **﴿أو إطعام عشرة مساكين﴾**[5] - فهما شيء واحد، وإذا ذكرا جميعاً فهما صنفان. والمقصود بهما أهل الحاجة. وهم الذين لا

---

(١) أي «الإئمة الاثني عشر» من الإمامية.

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء ٤٨، والدارمي في الرقاق ٦٨، وأحمد ٢٣/١، ٢٤، ٤٧، ٥٥، ٦٠.

(٣) سورة البقرة آية ٢٧١.

(٤) سورة التوبة آية ٦٠.

(٥) سورة المائدة آية ٨٩.

يجدون كفايتهم[1]، لا من مسألة ولا من كسب يقدرون عليه، فمن كان كذلك من المسلمين استحق الأخذ من الصدقات المفروضة، والموقوفة والمنذورة، والموصى بها، وبين الفقهاء نزاع في بعض فروع المسألة معروف عند أهل العلم.

وضد هؤلاء «الأغنياء» الذين تحرم عليهم الصدقة، ثم هم «نوعان»: نوع تجب عليهم الزكاة، وإن كانت الزكات تجب على من قد تباح له عند جمهور العلماء.

ونوع لا تجب عليه الزكاة.

وكل منهما قد يكون له فضل عن نفقاته الواجبة، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿**ويسألونك ماذا ينفقون. قل العفو**﴾[2]. وقد لا يكون له فضل، وهؤلاء الذين رزقهم قوت وكفاف هم أغنياء باعتبار غناهم عن الناس، وهم فقراء باعتبار أنه ليس لهم فضول يتصدقون بها.

وإنما يسبق الفقراء الأغنياء إلى الجنة بنصف يوم، لعدم فضول الأموال التي يحاسبون على مخارجها ومصارفها، فمن لم يكن له فضل كان من هؤلاء، وإن لم يكن من أهل الزكاة، ثم أرباب الفضول إن كانوا محسنين في فضول أموالهم، فقد يكونون بعد دخول الجنة أرفع درجة من كثير من الفقراء الذين سبقوهم، كما تقدم أغنياء الأنبياء والصديقين من السابقين وغيرهم على الفقراء الذين دونهم. ومن هنا قال الفقراء: «ذهب أهل الدثور بالأجور»[3] وقيل لما ساواهم الأغنياء في العبادات

---

(١) اختلف الفقهاء فيمن هو أشد حاجة الفقير أم المسكين، وتلخيص أقوالهم ما جاء في بداية المجتهد: قال البغداديون من أصحاب مالك: الفقير أحسن حالاً من المسكين. وقال أبو حنيفة وأصحابه والشافعي في أحد قوليه: المسكين أحسن حالاً من الفقير. وقال الشافعي في قوله الثاني وابن القاسم: انهما اسمان دالان على معنى واحد، ثم قال: «وهذا النظر هو لغوي إن لم تكن له دلالة شرعية، والأشبه عند استقراء اللغة أن يكونا اسمين دالين على معنى واحد يختلف بالأقل والأكثر في كل واحد منهما...» (بداية المجتهد ١/٢٥٢).

(٢) سورة البقرة آية ٢١٩.

(٣) الحديث أخرجه البخاري في الأذان ١٥٥ والدعوات ١٧، وأبو داود في الوتر ٢٤، وابن ماجة في الإقامة ٣٢، والدارمي في الصلاة ٩٠، وأحمد ٢/٢٣٨، ولفظه في صحيح مسلم: «إن فقراء المهاجرين أتوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم. =

البدنية، وامتازوا عنهم بالعبادات المالية: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء» فهذا هو «الفقير» في عرف الكتاب والسنة.

وقد يكون الفقراء سابقين، وقد يكونون مقتصدين، وقد يكونون ظالمي أنفسهم كالأغنياء، وفي كلا الطائفتين: المؤمن الصديق، والمنافق الزنديق.

وأما المستأخرون فـ«الفقير» في عرفهم عبارة عن السالك إلى الله تعالى، كما هو «الصوفي» في عرفهم أيضاً، ثم منهم من يرجح مسمى «الصوفي» على مسمى «الفقير» لأنه الذي قام بالباطن والظاهر منهم من يرجح مسمى الفقير لأنه عنده الذي قطع العلائق، ولم يشتغل في الظاهر بغير الأمور الواجبة، وهذه منازعات لفظية اصطلاحية.

و«التحقيق» أن المراد المحمود بهذين الاسمين، داخل في مسمى الصديق، والولي والصالح، ونحو ذلك من الأسماء التي جاء بها الكتاب والسنة، فمن حيث دخل في الأسماء النبوية، يترتب عليه من الحكم ما جاءت به الرسالة، وأما ما تميز به مما يعده صاحبه فضلاً وليس بفضل، أو مما يوالي عليه صاحبه غيره، ونحو ذلك من الأمور التي يترتب عليها زيادة الدرجة في الدين والدنيا، فهي أمور مهدرة في الشريعة إلا إذا جعلت من المباحات كالصناعات، فهذا لا بأس به، بشرط أن لا يعتقد أن تلك المباحات من الأمور المستحبات. وأما ما يقترن بذلك من الأمور المكروهة في دين الله: من أنواع البدع والفجور. فيجب النهي عنه كما جاءت به الشريعة.

* * *

وَسُئِلَ عن قوم يقولون: إن النبي ﷺ جاء إلى باب «أهل الصفة» فاستأذن، فقالوا: من أنت؟ قال: أنا محمد، قالوا: ماله عندنا موضع الذي يقول: أنا فرجع

= فقال: «وما ذاك» قالوا: يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق. فقال رسول الله ﷺ: «أفلا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين مرة» (١/٤١٦ ـ ٤١٧).

ثم استأذن ثانية، وقال: أنا محمد مسكين، فأذنوا له. فهل يجوز التكلم بهذا. أم هو كفر؟

فأجاب: هذا الكلام من أعظم الكذب على النبي ﷺ وعلى «أهل الصفة» فإن «أهل الصفة» لم يكن لهم مكان يستأذن عليهم فيه، إنما كانت الصفة في شمالي مسجد رسول الله ﷺ، يأوي إليها من لا أهل له من المؤمنين، ولم يكن يقيم بها ناس، معينون، بل يذهب قوم ويجيء آخرون، ولم يكن «أهل الصفة» خيار الصحابة؛ بل كانوا من جملة الصحابة؛ ولم يكن أحد من الصحابة يستخف بحرمة النبي ﷺ كما ذكر. ومن فعل ذلك فهو كافر، ومن اعتقد هذا بالنبي ﷺ فهو كافر فإنه يستتاب، فإن تاب وإلا قتل. والله أعلم.

الباب الثالث



الفتوة

وَسُئِلَ عن «الفتوة» المصطلح عليها الخ . . .

فأجاب ـ رضي الله عنه ـ قائلاً: أما ما ذكره من «الفتـوة» التي يلبس فيها الرجل لغيره سراويل، ويسقيه ماء وملحاً؛ فهذا لا أصل له. ولم يفعلها أحد من السلف لا علي ولا غيره. والإسناد الذي يذكرونه في «الفتوة» إلى أمير المؤمنين: علي بن أبي طالب، من طريقة الخليفة الناصر وغيره، إسناد مظلم، عامة رجاله مجاهيل لا يعرفون وليس لهم ذكر عند أهل العلم.

وقد ذكر أن أصل ذلك: أنه وضع سراويل عند قبر علي فأصبح مسدوداً، وهذا يجري عند غير علي، كما يجري أمثال ذلك من الأمور التي يظن أنها كرامة، في الكنائس وغيرها، مثل دخول مصروع إليها فيبرأ بنذر يجعل للكنيسة، ونحو ذلك. وهذا إذا لم يكن كذباً فإنه من فعل الشياطين. كما يفعل مثل ذلك عند الأوثان وأنا أعرف من ذلك وقائع متعددة.

والمقصود هنا أن سراويل الفتوة لا أصل له عن علي ولا غيره من السلف، وما يشترطه بعضهم من الشروط، إن كان مما أمر الله به ورسوله، فإنه يفعل لأن الله أمر به ورسوله، وما نهى عنه مثل التعصب لشخص على شخص، والإعانة على الإثم والعدوان. فهو مما ينهى عنه، ولو شرطوه.

ولفظ «الفتى» في اللغة هو الشاب. كما ذكر ذلك أهل اللغة. ومنه قولـه تعالى: ﴿ودخل معه السجن فتيان﴾[1] وقوله: ﴿إنهم فتية آمنوا بربهم﴾[2] ﴿وإذ

---

(١) سورة يوسف آية ٣٦.

(٢) سورة الكهف آية ١٣.

قال موسى لفتاه﴾[1]. وقد فتى يفتي فهو فتى، أي بين الفتا، والأفتا من الدواب خلاف المسان، وقد يعبر بـالفتى عن المملوك مطلقـاً. كما قـال تعالى: ﴿من فتياتكم المؤمنات﴾[2].

ولما كان الشاب ألين عريكة من الشيخ صار في طبعه من السخاء والكرم ما لا يوجد في الشويخ. فصاروا يعبرون بلفظ الفتى عن السخي الكريم. يقال: هو فتى بين الفتوة وقد يفتى. ويفاتى. والجمع فتيان وفتية.

واستعمال لفظ الفتى بمعنى المتصف بمكارم الأخلاق موجود في كلام كثير من المشايخ، وقد يظن أن لفظ القرآن يدل على هذا. ومنه قول بعض الشويخ: طريقنا تفتى وليس تنصر، يعني هو استعمال مكارم الأخلاق؛ ليس هو النسـك اليابس. ومنه قول أبي إسماعيل الانصاري: الفتوة أن تقرب من يقصدك، وتكرم من يؤذيك، وتحسن إلى من يسيء إليك، سماحة لا كظماً، وموادة لا مصابرة.

ونقل عن أحمد بن حنبل ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: الفتوة ترك ما تهوى لما تخشى. كما قال تعالى: ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى﴾[3] فمن دعا إلى ما دعا إليه الله ورسوله من مكارم الأخلاق كان محسناً، سواء سمى ذلك فتوة أو لم يسمه، ومن أحدث في دين الله ما ليس منه فهو رد.

والغالب أنهم يدخلون في الفتوة أموراً ينهى عنها فينهون عن ذلك، ويؤمرون بما أمر الله به ورسوله، كما ينهون عن الإلباس، والإسقاء. وإسناد ذلك إلى علي ـ رضي الله عنه ـ وأمثال ذلك[4].

---

(١) سورة الكهف آية ٦٠.

(٢) سورة النساء آية ٢٥.

(٣) سورة النازعات آية ٤٠.

(٤) هو مقتبس من الحديث الذي أخرجه مسلم ولفظه: قال رسول الله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» (٢/٣٤٣). وأخرجه البخاري في الصلح ٥، وابن ماجة في المقدمة ٢، وأحمد ٦/٢٧٠.

فصل
[حال الفتوة]

سئل الشّيخ الإمَام العَالم العَلّامة في جماعة يجتمعون في مجلس، ويلبسون لشخص منهم لباس «الفتوة» ويديرون بينهم في مجلسهم شربة فيها ملح وماء يشربونها ويزعمون أن هذا من الدين، ويذكرون في مجلسهم ألفاظاً لا تليق بالعقل والدين.

فمنها أنهم يقولون، إن رسول الله ﷺ ألبس علي بن أبي طالب ـ رضي الله تعالى عنه ـ لباس الفتوة، ثم أمره أن يلبس من شاء، ويقولون: إن اللباس أنزل على النبي ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ في صندوق، ويستدلون عليه بقوله تعالى: ﴿**يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم**﴾[1] الآية ـ فهل هو كما زعموا؟ أم كذب مختلق؟ وهل هو من الدين أم لا؟ وإذا لم يكن من الدين فما يجب على من يفعل ذلك أو يعين عليه؟ ومنهم من ينسب ذلك إلى الخليفة الناصر لدين الله أبي عبد الجبار ويزعم أن ذلك من الدين: فهل لذلك أصل أم لا؟ وهل الأسماء التي يسمون بها بعضهم بعضاً من اسم الفتوة، ورؤوس الأحزاب والزعماء فهل لهذا أصل أم لا؟ ويسمون المجلس الذي يجتمعون فيه «دسكرة» ويقوم للقوم نقيب إلى الشخص الذي يلبسونه فينزعه اللباس الذي عليه بيده، ويلبسه اللباس الذي يزعمون أنه لباس الفتوة بيده، فهل هذا جائز. أم لا؟ وإذا قيل: لا يجوز فعل ذلك ولا الإعانة عليه، فهل يجب على ولي الأمر منعهم من ذلك؟

وهل للفتوة أصل في الشريعة أم لا؟ إذا قيل: لا أصل لها في الشريعة فهل يجب على غير ولي الأمر أن ينكر عليهم، ويمنعهم من ذلك أم لا؟ مع تمكنه من الإنكار، وهل احد من الصحابة ـ رضي الله تعالى عنهم، أو التابعين، أو من بعدهم من أهل العلم فعل هذه الفتوة المذكورة أو أمر بها أم لا؟

وهل خلق النبي ﷺ من النور؟ أم خلق من الأربع عناصر؟ أم من غير ذلك؟ وهل الحديث الذي يذكره بعض الناس: «لولاك ما خلق الله عرشاً. ولا كرسياً،

---

(١) سورة الأعراف آية ٢٦.

ولا أرضاً، ولا سماء، ولا شمساً، ولا قمراً. ولا غير ذلك» صحيح هو أم لا؟

وهل «الأخوة» التي يواخيها المشائخ بين الفقراء في السماع وغيره يجوز فعلها في السماع ونحوه أم لا؟ وهل آخى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار؟ أم بين كل مهاجري وأنصاري؟ وهل آخى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ أم لا؟ بينوا لنا ذلك بالتعليل والحجة المبينة، وأبسطوا لنا الجواب في ذلك بسطاً شافياً مأجورين. أثابكم الله تعالى.

فأجاب:

الحمد لله. أما ما ذكر من إلباس لباس «الفتوة» السراويل أو غيره، وإسقاء الملح والماء فهذا باطل، لا أصل له، ولم يفعل هذا رسول الله ﷺ، ولا أحد من أصحابه. لا علي بن أبي طالب ولا غيره، ولا من التابعين لهم باحسان.

والإسناد الذي يذكرونه من طريق الخليفة الناصر إلى عبد الجبار إلى ثمامة، فهو إسناد لا تقوم به حجة، وفيه من لا يعرف، ولا يجوز لمسلم أن ينسب إلى النبي ﷺ بمثل هذا الإسناد المجهول الرجال أمراً من الأمور التي لا تعرف عنه، فكيف إذا نسب إليه ما يعلم أنه كذب وافتراء عليه؟! فإن العالمين بسنته وأحواله متفقون على أن هذا من الكذب المختلق عليه وعلى علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، وما ذكروه من نزول هذا اللباس في صندوق هو من أظهر الكذب، باتفاق العارفين بسنته.

و «اللباس الذي يواري السوءة» هو كل ما ستر العورة من جميع أصناف اللباس المباح. أنزل الله تعالى هذه الآية لما كان المشركون يطوفون بالبيت عراة، ويقولون: ثياب عصينا الله فيها لا نطوف فيها فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأنزل قوله: ﴿**خذوا زينتكم عند كل مسجد**﴾[1]

والكذب في هذا أظهر من الكذب فيما ذكر من لباس الخرقة، وأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تواجد حتى سقطت بالبردة عن ردائه، وأنه فرق الخرق

---

(١) سورة الأعراف آية ٣١.

على أصحابه، وأن جبريل أتاه وقال له: إن ربك يطلب نصيبه من زيق الفقر وأنه علق ذلك بالعرش. فهذا أيضاً كذب باتفاق أهل المعرفة؛ فإن النبي ﷺ لم يجتمع هو وأصحابه على سماع كف، ولا سماع دفوف وشبابات، ولا رقص ولا سقط عنه ثوب من ثيابه في ذلك، ولا قسمه على أصحابه، وكل ما يروى من ذلك فهو كذب مختلق باتفاق أهل المعرفة بسنته.

فَصْل
[شروط شيوخ الفتوة]

والشروط التي تشترطها شيوخ «الفتوة» ما كان منها مما أمر الله به ورسوله كصدق الحديث، وأداء الأمانة، وأداء الفرائض، واجتناب المحارم ونصر المظلوم، وصلة الأرحام والوفاء بالعهد. أو كانت مستحبة: كالعفو عن الظالم واحتمال الأذى، وبذل المعروف الذي يحبه الله ورسوله، وأن يجتمعوا على السنة، ويفارق أحدهما الآخر إذا كان على بدعة. ونحو ذلك. فهذه يؤمن بها كل مسلم سواء شرطها شيوخ الفتوة أو لم يشرطوها، وما كان منها مما نهى الله عنه ورسوله: مثل التحالف الذي يكون بين أهل الجاهلية، أن كلًا منهما يصادق صديق الآخر في الحق والباطل، ويعادي عدوه في الحق والباطل، وينصره على كل من يعاديه سواء كان الحق معه أو كان مع خصمه، فهذه شروط تحلل الحرام وتحرم الحلال، وهي شروط ليست في كتاب الله.

وفي السنن عنه أنه قال: «المسلمون عند شروطهم: إلا شرطاً أحل حراماً أو حرم حلالاً» وكل ما كان من الشروط التي بين القبائل والملوك والشيوخ والأحلاف وغير ذلك، فإنها على هذا الحكم باتفاق علماء المسلمين، ما كان من الأمر المشروط الذي قد أمر الله به ورسوله فإنه يؤمر به كما أمر الله به ورسوله. وإن كان مما نهى الله عنه ورسوله فإنه ينهى عنه، كما نهى الله عنه ورسوله، وليس لبني آدم أن يتعاهدوا ولا يتعاقدوا ولا يتحالفوا ولا يتشارطوا على خلاف ما أمر الله به ورسوله؛ بل على كل منهم أن يوفوا بالعقود والعهود التي عهدها الله إلى بني آدم

كما قال الله تعالى: ﴿وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم﴾[1].

وكذلك ما يعقده المرء على نفسه كعقد النذر أو يعقده الاثنان: كعقد البيع والإجارة، والهبة وغيرهما. أو ما يكون تارة من واحد وتارة من اثنين: كعقد الوقف والوصية؛ فإنه في جميع هذه العقود متى اشترط العاقد شيئاً مما نهى الله عنه ورسوله كان شرطه باطلاً. وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه». والعقود المخالفة لما أمر الله به ورسوله هي من جنس دين الجاهلية، وهي شعبة من دين المشركين وأهل الكتاب الذين عقدوا عقوداً أمروا فيها بما نهى الله عنه ورسوله، ونهوا فيها عما أمر الله به ورسوله.

فهذا أصل عظيم يجب على كل مسلم أن يتجنبه.

فَصْل
[تعريف الفتى]

وأما لفظ «الفتى» فمعناه في اللغة الحدث كقوله تعالى: ﴿إنهم فتية آمنوا بربهم﴾[2] وقوله تعالى: ﴿قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم﴾[3] وقوله تعالى: ﴿وإذ قال موسى لفتاه﴾[4]؛ لكن لما كانت أخلاق الأحداث اللين، صار كثير من الشيوخ يعبرون بلفظ «الفتوة» عن مكارم الأخلاق. كقول بعضهم: طريقنا تفتى وليس تنصر. وقول بعضهم. «الفتوة» أن تقرب من يقصيك، وتكرم من يؤذيك وتحسن إلى من يسيء إليك. سماحة لا كظماً، ومودة لا مضارة. وقول بعضهم: «الفتوة» ترك ما تهوى لما تخشى. وأمثال هذه الكلمات التي توصف فيها الفتوة بصفات محمودة محبوبة، سواء سميت فتوة أو لم تسم؛ وهي لم تستحق المدح في الكتاب والسنة

---

(١) سورة البقرة آية ٤٠.

(٢) سورة الكهف آية ١٣.

(٣) سورة الأنبياء آية ٦٠.

(٤) سورة الكهف آية ٦٠.

إلا لدخولها فيما حمده الله ورسوله من الأسماء. كلفظ الإحسان والرحمة، والعفو، والصفح، والحلم، وكظم الغيظ، والبر والصدقة، والزكاة والخير. ونحو ذلك من الأسماء الحسنة التي تتضمن هذه المعاني، فكل اسم علق الله به المدح والثواب في الكتاب والسنة كان أهله ممدوحين، وكل اسم علق به الذم والعقاب في الكتاب والسنة كان أهله مذمومين، كلفظ الكذب، والخيانة، والفجور، والظلم والفاحشة ونحو ذلك.

وأما لفظ «الزعيم» فإنه مثل لفظ الكفيل والقبيل والضمين، قال تعالى: ﴿**ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم**﴾[1] فمن تكفل بأمر طائفة فإنه يقال هو زعيم؛ فإن كان قد تكفل بخير كان محموداً على ذلك، وإن كان شراً كان مذموماً على ذلك.

وأما «رأس الحزب» فإنه رأس الطائفة التي تتحزب، أي تصير حزباً، فإن كانوا مجتمعين على ما أمر الله به ورسوله من غير زيادة ولا نقصان فهم مؤمنون، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم. وإن كانوا قد زادوا في ذلك ونقصوا مثل التعصب لمن دخل في حزبهم بالحق والباطل، والإعراض عمن لم يدخل في حزبهم، سواء كان على الحق والباطل، فهذا من التفرق الذي ذمه الله تعالى ورسوله، فإن الله ورسوله أمرا بالجماعة والائتلاف ونهيا عن التفرقة والاختلاف، وأمرا بالتعاون على البر والتقوى، ونهيا عن التعاون على الإثم والعدوان.

وفي الصحيحين عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر» وفي الصحيحين عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وشبك بين أصابعه. وفي الصحيح عنه أنه قال: «المسلم أخو المسلم لا يسلمه ولا يخذله» وفي الصحيح عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: «أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» قيل: يا رسول الله! أنصره مظلوماً، فكيف أنصره ظالماً؟! قال: «تمنعه من الظلم؛ فذلك نصرك إياه». وفي الصحيح عنه أنه قال: «خمس تجب للمسلم على المسلم:

---

(١) سورة يوسف آية ٧٢.

يسلم عليه إذا لقيه؛ ويعوده إذا مرض، ويشمته إذا عطس؛ ويجيبه إذا دعاه. ويشيعه إذا مات». وفي الصحيح عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه»

فهذه الأحاديث وأمثالها فيها أمر الله ورسوله بما أمر به من حقوق المؤمنين بعضهم على بعض. وفي الصحيحين عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: «لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخواناً». وفي الصحيحين عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا؛ وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم».

وفي السنن عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: «ألا أنبئكم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»؟ قالوا: بلى يا رسول الله! قال: صلاح ذات البين فإن فساد ذات البين هي الحالقة، لا اقول تحلق الشعر. ولكن تحلق الدين» فهذه الأمور مما نهى الله ورسوله عنه.

وأما لفظ «الدسكرة» فليست من الألفاظ التي لها أصل في الشريعة فيتعلق بها حمد أو ذم؛ ولكن هي في عرف الناس يعبر بها عن المجامع. كما في حديث هرقل: أنه جمع الروم في دسكرة؛ ويقال للمجتمعين على شرب الخمر: إنهم في دسكرة؛ فلا يتعلق بهذا اللفظ حمد ولا ذم؛ وهو إلى الذم أقرب؛ لأن الغالب في عرف الناس أنهم يسمون بذلك الاجتماع على الفواحش والخمر والغناء.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض على كل مسلم؛ لكنه من فروض الكفايات؛ فإن قام بهما من يسقط به الفرض من ولاة الأمر؛ أو غيرهم. والأوجب على غيرهم أن يقوم من ذلك بما يقدر عليه.

فصل
[خلق النبي ﷺ]

والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم خلق مما يخلق منه البشر؛ ولم يخلق

أحد من البشر من نور؛ بل قد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: «إن الله خلق الملائكة من نور؛ وخلق إبليس من مارج من نار؛ وخلق آدم مما وصف لكم» وليس تفضيل بعض المخلوقات على بعض باعتبار ما خلقت منه فقط؛ بل قد يخلق المؤمن من كافر؛ والكافر من مؤمن؛ كابن نوح منه وكابراهيم من آزر؛ وآدم خلقه الله من طين؛ فلما سواه؛ ونفخ فيه من روحه؛ وأسجد له الملائكة؛ وفضله عليهم بتعليمه أسماء كل شيء وبأن خلقه بيديه؛ وبغير ذلك. فهو وصالحوا ذريته أفضل من الملائكة؛ وإن كان هؤلاء مخلوقين من طين؛ وهؤلاء من نور.

وهذه «مسألة كبيرة» مبسوطة في غير هذا الموضع؛ فإن فضل بني آدم هو بأسباب يطول شرحها هنا[1]. وإنما يظهر فضلهم إذا دخلوا دار القرار: **﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾**[2]. والآدمي خلق من نطفة؛ ثم من مضغة؛ ثم من علقه، ثم انتقل من صغر إلى كبر، ثم من دار إلى دار، فلا يظهر فضله وهو في ابتداء أحواله؛ وإنما يظهر فضله عند كمال أحواله؛ بخلاف الملك الذي تشابه أول أمره وآخره. ومن هنا غلط من فضل الملائكة على الأنبياء حيث نظر إلى أحوال الأنبياء. وهم في أثناء الأحوال؛ قبل أن يصلوا إلى ما وعدوا به في الدار الآخرة من نهايات الكمال.

وقد ظهر فضل نبينا على الملائكة ليلة المعراج لما صار بمستوى يسمع فيه صريف الأقلام؛ وعلا على مقامات الملائكة؛ والله تعالى أظهر من عظيم قدرته وعجيب حكمته من صالحي الآدميين من الأنبياء والأولياء ما لم يظهر مثله من

---

(١) من ذلك ما ذكره الفخر الرازي في تفسيره حيث قال: «. . . أن من كانت مادته أفضل فصورته أفضل، فهذا هو محل النزاع والبحث، لأنه لما كانت الفضيلة عطية من الله ابتداء لم يلزم من ففضيلة المادة (النار) فضيلة الصورة. ألا ترى أنه يخرج الكافر من المؤمن والمؤمن من الكافر، والنور من الظلمة والظلمة من النور، ذلك يدل على أن الفضيلة لا تحصل إلا بفضل الله تعالى لا بسبب فضيلة الأصل والجوهر. وأيضاً التكليف إنما يتناول الحي بعد انتهائه إلى حد كمال العقل، فالمعتبر بما انتهى إليه لا بما خلق منه، وأيضاً فالفضل إنما يكون بالأعمال وما يتصل بها لا بسبب المادة، ألا ترى أن الحبشي المؤمن مفضل على القرشي الكافر» (١٤/٣٦).

(٢) سورة الرعد آية ٢٤.

الملائكة، حيث جمع فيهم ما تفرق في المخلوقات. فخلق بـدنه من الأرض، وروحه من الملأ الأعلى، ولهذا يقال: هـو العالم الصغيـر، وهو نسخـة العالم الكبير.

ومحمد سيد ولد آدم. وأفضل الخلق: وأكرمهم عليه. ومن هنـا قال من قال: إن الله خلق من أجله العالم. أو أنه لولا هو لما خلق عرشاً، ولا كرسياً، ولا سماء ولا أرضاً ولا شمساً ولا قمراً. لكن ليس هذا حديثاً عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا صحيحاً ولا ضعيفاً، ولم ينقله أحد من أهل العلم بالحديث عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم؛ بل ولا يعرف عن الصحابة، بل هو كلام لا يدرى قائله. ويمكن أن يفسر بوجه صحيح كقوله: **﴿سخر لكم ما في السموات وما في الأرض﴾**[1] وقوله: **﴿وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار. وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار. وآتاكم من كل ما سألتموه، وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾**[2] وأمثال ذلك من الآيات التي يبين فيها أنه خلق المخلوقات لبني آدم، ومعلوم أن لله فيها حكماً عظيمة غير ذلك، وأعظم من ذلك، ولكن يبين لبني آدم ما فيها من المنفعة، وما أسبغ عليهم من النعمة.

فإذا قيل: فعل كذا لكذا لم يقتض أن لا يكون فيه حكمة أخرى. وكذلك قول القائل: لـولا كـذا ما خلق كـذا، لا يقتضي أن لا يكون فيـه حكم أخرى عظيمة، بل يقتضي إذا كان أفضل صالحي بني آدم محمد، وكانت خلقته غاية مطلوبة، وحكمة بالغـة مقصودة [أعـظم] من غيره، صـار تمام الخلق، ونهـاية الكمال، حصل بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم.

والله خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وكان آخر الخلق يوم الجمعة، وفيه خلق آدم وهو آخر ما خلق، خلق يوم الجمعة بعد العصر في آخر يوم الجمعة. وسيد ولد آدم هو محمد ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ آدم فمن دونه

---

(١) سورة لقمان آية ٢٠.

(٢) سورة إبراهيم الآيات ٣٢ ـ ٣٤.

تحت لوائه ـ قال صلى الله تعالى عليه وسلم: «إني عند الله لمكتوب خاتم النبيين وأن آدم لمنجدل في طينته»[1] أي كتبت نبوتي وأظهرت لما خلق آدم قبل نفخ الروح فيه كما يكتب الله رزق العبد وأجله وعمله وشقي أو سعيد إذا خلق الجنين قبل نفخ الروح فيه. فإذا كان الإنسان هو خاتم المخلوقات وآخرها وهو الجامع لما فيها، وفاضلة هو فاضل المخلوقات مطلقاً، ومحمد إنسان هذا العين؛ وقطب هذه الرحى، وأقسام هذا الجمع كان كأنها غاية الغايات في المخلوقات، فما ينكر أن يقال: إنه لأجله خلقت جميعها، وإنه لولاه لما خلقت، فإذا فسر هذا الكلام ونحوه بما يدل عليه الكتاب والسنة قبل ذلك.

وأما إذا حصل في ذلك غلو من جنس غلو النصارى بإشراك بعض المخلوقات في شيء من الربوبية، كان ذلك مردوداً غير مقبول؛ فقد صح عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»[2] وقد قال تعالى: **﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق، إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم، إنما الله إله واحد﴾**[3].

والله قد جعل له حقاً لا يشركه فيه مخلوق فلا تصلح العبادة إلا له، ولا الدعاء إلا له، ولا التوكل إلا عليه، ولا الرغبة إلا إليه، ولا الرهبة إلا منه، ولا ملجأ ولا منجا منه إلا إليه، ولا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يذهب السيئات إلا هو، ولا حول ولا قوة إلا به **﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾**[4]. **﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا باذنه﴾**[5]. **﴿إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً. لقد أحصاهم وعدهم عداً. وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً﴾**[6] وقال

---

(١) أخرجه أحمد ٤/١٢٧، ١٢٨.

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء ٤٨، والدارمي في الرقاق ٦٨، وأحمد ١/٢٣، ٢٤، ٤٧، ٥٥.

(٣) سورة النساء آية ١٧١.

(٤) سورة سبأ آية ٢٣.

(٥) سورة البقرة آية ٢٥٥.

(٦) سورة مريم الآيات ٩٣ ـ ٩٥.

تعالى: ﴿**ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون**﴾[1] فجعل الطاعة لله للرسوله، وجعل الخشية والتقوى لله وحده، وكذلك في قوله: ﴿**ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله، وقالوا: حسبنا الله، سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون**﴾[2] فالإيتاء لله والرسول. وأما التوكل فعلى الله وحده، والرغبة إلى الله وحده.

فصل
[المؤاخاة]

وأما «المؤاخاة» فإن النبي ﷺ آخى بين المهاجرين والأنصار. لما قدم المدينة، كما آخى بين سلمان الفارسي وبين أبي الدرداء، وبين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، وكانوا يتوارثون بتلك المؤاخاة، حتى أنزل الله تعالى: ﴿**وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله**﴾[3] فصاروا يتوارثون بالقرابة. وفي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿**والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم**﴾[4] وهذا هو المحالفة. واختلف العلماء هل التوارث يمثل ذلك عند عدم القرابة والولاء محكم أو منسوخ؟ على قولين:

أحدهما: أن ذلك منسوخ، وهو مذهب مالك والشافعي وأحمد في أشهر الروايتين عنه، ولما ثبت في صحيح مسلم عنه أنه قال: «لا حلف في الإسلام، وما كان من حلف في الجاهلية فلم يزده الإسلام إلا شدة»

والثاني: إن ذلك محكم وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد في الرواية الأخرى عنه.

وأما «المؤاخاة» بين المهاجرين كما يقال: إنه آخى بين أبي بكر وعمر، وإنه

---

(١) سورة النور آية ٥٢.
(٢) سورة التوبة آية ٥٩.
(٣) سورة الأنفال آية ٧٥.
(٤) سورة النساء آية ٣٣.

آخى علياً ونحو ذلك، فهذا كله باطل، وإن كان بعض الناس ذكر أنه فعل بمكة، وبعضهم ذكر أنه فعل بالمدينة، وذلك نقل ضعيف: إما منقطع، وإما باسناد ضعيف. والذي في الصحيح هو ما تقدم، ومن تدبر الأحاديث الصحيحة، والسيرة النبوية الثابتة، تيقن أن ذلك كذب.

وأما عقد «الأخوة» بين الناس في زماننا، فإن كان المقصود منها التزام الأخوة الإيمانية التي أثبتها الله بين المؤمنين بقوله: ﴿**إنما المؤمنون إخوة**﴾[1] وقول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: «المسلم أخو المسلم لا يسلمه ولا يظلمه»[2] وقوله: «لا يبع احدكم على بيع أخيه، ولا يستام على سوم أخيه، ولا يخطب على خطبة أخيه»[3] وقوله: «والذي نفسي بيده لا يؤمن احدكم حتى يحب لاخيه من الخير ما يحبه لنفسه»[4] ونحو ذلك من الحقوق الإيمانية التي تجب للمؤمن على المؤمن. فهذه الحقوق واجبة بنفس الإيمان، والتزامها بمنزلة التزام الصلاة والزكاة والصيام والحج، والمعاهدة عليها كالمعاهدة على ما أوجب الله ورسوله. وهذه ثابتة لكل مؤمن على كل مؤمن، وإن لم يحصل بينهما عقد مؤاخاة، وإن كان المقصود منها إثبات حكم خاص كما كان بين المهاجرين والأنصار، فهذه فيها للعلماء قولان، بناء على أن ذلك منسوخ أم لا؟ فمن قال: إنه منسوخ - كمالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه. قال: إن ذلك غير مشروع. ومن قال: إنه لم ينسخ - كما قال: أبو حنيفة وأحمد في الرواية الأخرى - قال إنه مشروع.

وأما «الشروط» التي يلتزمها كثير من الناس في «السماع» وغيره، مثل أن

---

(١) سورة الحجرات آية ١٠.

(٢) انظر الحديث في البخاري في المظالم ٣ والإكراه ٧، وفي مسلم في البر ٥٨، وفي أبي داود في الإيمان ٧ والإمارة ٣٦، وفي الترمذي في الحدود ٣ والبر ١٨، وفي ابن ماجة في التجارات ٤٥، والكفارات ١٤، وفي مسند أحمد ٦/٢، ٨، ٢٧٧، و٩١/٣، و٦٦/٤، ٦٩.

(٣) أنظر صحيح البخاري كتاب البيوع ٥٨ و ٦٤ وكتاب الشروط ٨ وكتاب النكاح ٤٥، وصحيح مسلم كتاب النكاح حديث رقم ٤٩ وكتاب البيوع حديث رقم ٧ و ٨ و ١١، وسنن أبي داود كتاب النكاح ١٧ وكتاب البيوع ٤٣ و ٤٦، وسنن الترمذي كتاب النكاح ٣٨ وكتاب البيوع ٥٧، وسنن النسائي كتاب النكاح ٢٠ و ٢١ وكتاب البيوع ١٧ و ٢٠ و٢١، وسنن ابن ماجة في كتاب التجارات ١٣، ومسند أحمد ٢١/٢، ٦٣، ١٠٨، ١٥٣، ٣٦٠...

(٤) أخرجه البخاري في الإيمان ٧.

يقول: على المشاركة في الحسنات، وأينا خلص يوم القيامة خلص صاحبه، ونحو ذلك. فهذه كلها شروط باطلة؛ فان الأمر يومئذ لله، هو: **﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً﴾**[1] وكما قال تعالى: **﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة. وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء، لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون﴾**[2].

وكذلك يشترطون شروطاً من الأمور الدنيوية ولا يوفون بها، وما أعلم أحداً ممن دخل في هذه الشروط الزائدة على ما شرطه الله ورسوله وفى بها؛ بل هو كلام يقولونه عند غلبة الحال؛ لا حقيقة له في المآل. وأسعد الناس من قام بما أوجبه الله ورسوله، فضلاً عن أن يوجب على نفسه زيادات على ذلك.

---

(١) سورة الانفطار آية ١٩.

(٢) سورة الأنعام آية ٩٤.

الباب الرابع



الفقير والغني

وَسُئِلَ عمن قال: إن «الفقير، والغني» لا يفضل أحدهما صاحبة إلا بالتقوى. فمن كان أتقى لله كان أفضل وأحب إلى الله تعالى. وإن الحديث الصحيح الذي قال فيه ﷺ: «يدخل فقراء أمتي الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام» هذا في حق ضعفاء المسلمين، وصعاليكهم القائمين بفرائض الله تعالى، وليس مختصاً بمجرد ما عرف واشتهر في هذه الأعصار المتأخرة، من السجاد والمرقعة والعكاز، والألفاظ المنمقة؛ بل هذه الهيئات المعتادة في هذه الأزمنة مخترعة مبتدعة، فهل الأمر ما ذكر أم لا؟؟.

فأجاب ـ رضي الله عنه ـ الحمد لله رب العالمين.

قد تنازع من متأخري المسلمين في «الغني الشاكر، والفقير الصابر» أيهما أفضل؟ فرجح هذا طائفة من العلماء والعباد، ورجح هذا طائفة من العلماء والعباد، وقد حكي في ذلك عن الإمام أحمد روايتان. وأما الصحابة والتابعون فلم ينقل عنهم تفضيل أحد الصنفين على الآخر. وقال طائفة ثالثة ليس لأحدهما على الآخر فضيلة إلا بالتقوى فأيهما كان أعظم إيماناً وتقوى كان أفضل، وإن استويا في ذلك استويا في الفضيلة، وهذا أصح الأقوال؛ لأن الكتاب والسنة إنما تفضل بالإيمان والتقوى. وقد قال الله تعالى: **﴿إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما﴾**[1].

وقد كان في الأنبياء والسابقين الأولين من الأغنياء من هو أفضل من أكثر

(١) سورة النساء آية ١٣٥.

الفقراء، وكان فيهم من الفقراء من هو أفضل من أكثر الأغنياء، والكاملون يقومون بالمقامين، فيقومون بالشكر والصبر على التمام. كحال نبينا ﷺ، وحال أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما؛ ولكن قد يكون الفقر لبعض الناس أنفع من الغنى، والغنى أنفع لآخرين، كما تكون الصحة لبعضهم أنفع، كما في الحديث الذي رواه البغوي وغيره «إن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى. ولو أفقرته لأفسده ذلك. وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر. ولو أغنيته لأفسده ذلك. وإن من عبادي من لا يصلحه إلا السقم. ولو أصححته لأفسده ذلك، إني إدبر عبادي إني بهم خبير بصير».

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن فقراء المسلمين يدخلون الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم»[1] وفي الحديث الآخر لما علم الفقراء الذكر عقب الصلوات سمع بذلك الأغنياء فقالوا مثل ما قالوا. فذكر ذلك الفقراء للنبي ﷺ، فقال: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»[2] فالفقراء متقدمون في دخول الجنة لخفة الحساب عليهم، والأغنياء مؤخرون لأجل الحساب، ثم إذا حوسب أحدهم فإن كانت حسناته أعظم من حسنات الفقير كانت درجته في الجنة فوقه، وإن تأخر في الدخول كما أن السبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب، ومنهم عكاشة بن محصن[3]، وقد يدخل الجنة بحساب من يكون أفضل من أحدهم. وصلى الله وسلم على محمد.

---

(١) مر تخريجه.

(٢) مر الحديث بتمامة.

(٣) هوعكاشة بن محصن بن حرثان الأسدي حليف بني عبد شمس، صحابي، من السابقين الأولين وشهد بدراً، ذكر في الصحيحين من حديث ابن عباس في السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب، فقال عكاشة: «ادع إلى يجعلني منهم، قال أنت منهم، فقام آخر، فقال سبقك بها عكاشة» استشهد في قتال أهل الردة، قتله طليحة بن خويلد الذي ادعى النبوة ثم عاد إلى الإسلام. (انظر الإصابة في تمييز الصحابة ٢/٤٩٤ ـ ٤٩٥، وتاريخ الإسلام للذهبي عهد الخلفاء الراشدين ص ٥، ومشاهير علماء الأمصار ص ١٦).

فصل
[الفقير الصابر والغني الشاكر]

وسئل قد كثر تنازع الناس: أيهما أفضل «الفقير الصابر، أو الغني الشاكر»؟؟ وأكثر كلامهم فيها مشوب بنوع من الهوى، أو بنوع من قلة المعرفة، والنزاع فيها بين الفقهاء والصوفية، والعامة والرؤساء وغيرهم. وقد ذكر القاضي أبو الحسين بن القاضي أبي يعلى في كتاب «التمام لكتاب الروايتين والوجهين» لأبيه فيها عن أحمد روايتين.

إحداهما: إن الفقير الصابر أفضل. وذكر أنه اختار هذه الرواية أبو إسحاق بن شاقلا، ووالده القاضي أبو يعلى، ونصرها هو.

والثانية: إن الغني الشاكر أفضل، اختاره جماعة منهم ابن قتيبة.

و «القول الأول» يميل إليه كثير من أهل المعرفة والفقه والصلاح، من الصوفية والفقراء، ويحكى هذا القول عن الجنيد وغيره و «القول الثاني» يرجحه طائفة منهم. كأبي العباس بن عطاء وغيره وربما حكى بعض الناس في ذلك إجماعاً، وهو غلط.

وفي المسألة «قول ثالث» وهو الصواب أنه ليس هذا أفضل من هذا مطلقاً، ولا هذا أفضل من هذا مطلقاً بل أفضلهما أتقاهما. كما قال تعالى: ﴿**إن أكرمكم عند الله اتقاكم**﴾[1] وقال عمر بن الخطاب: الغنى والفقر مطيتان، لا أبالي أيتهما ركبت. وقد قال تعالى: ﴿**إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما**﴾[2] وهذا القول اختيار طائفة منهم الشيخ ابن حفص السهروردي[3]. وقد يكون هذا أفضل لقوم، وفي بعض الأحوال. وهذا أفضل لقوم وفي بعض الأحوال، فإن استويا في سبب الكرامة استويا في الدرجة، وإن فضل أحدهما الآخر في سببها ترجح عليه؛ هذا هو الحكم العام.

---

(١) سورة الحجرات آية ١٣.

(٢) سورة النساء آية ١٣٥.

(٣) السُهرُوردي: بضم السين وفتح واو وسكون راء ثانية وكسر دال (المغني في ضبط أسماء لرجال ص ١٤٠).

والفقر والغنى حالان يعرضان للعبد باختياره تارة وبغير اختياره أخرى كالمقام والسفر، والصحة والمرض، والإمارة والائتمار، والإمامة والائتمام. وكل جنس من هذه الأجناس لا يجوز إطلاق القول بتفضيله على الآخر؛ بل قد يكون هذا أفضل في حال؛ وهذا في حال، وقد يستويان في حال كما في الحديث المرفوع في «شرح السنة» للبغوي عن أنس عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه تعالى: «وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى؛ ولو افقرته لأفسده ذلك؛ وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر، ولو اغنيته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الصحة، ولو اسقمته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا السقم، ولو اصححته لأفسده ذلك، اني ادبر عبادي؛ إني بهم خبير بصير».

وفي هذا المعنى ما يروى: «إن الله يحمي عبده المؤمن الدنيا؛ كما يحمي احدكم مريضه الطعام والشراب». ويروى في مناجاة موسى نحو هذا. ذكره أحمد في الزهد. فهذا فيمن يضره الغنى ويصلحه الفقر، كما في الحديث الآخر «نعم المال الصالح للرجل الصالح»[1].

وكما أن الأقوال في المسألة «ثلاثة» فالناس «ثلاثة أصناف»: غني، وهو من ملك ما يفضل عن حاجته. وفقير؛ وهو من لا يقدر على تمام كفايته. وقسم ثالث: وهو من يملك وفق كفايته؛ ولهذا كان في اكابر الأنبياء والمرسلين والسابقين الاولين من كان غنياً: كابراهيم الخليل وأيوب، وداوود وسليمان، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة والزبير، وسعد بن معاذ وأسيد بن الحضير، وأسعد بن زرارة وأبي أيوب الأنصاري، وعبادة بن الصامت، ونحوهم. ممن هو من أفضل الخلق من النبيين والصديقين.

وفيهم من كان فقيراً: كالمسيح عيسى بن مريم، ويحيى بن زكريا وعلي بن أبي طالب، وأبي ذر الغفاري، ومصعب بن عمير، وسلمان الفارسي ونحوهم. ممن هو من أفضل الخلق، من النبيين والصديقين، وقد كان فيهم من اجتمع له الأمران: الغنى تارة والفقر أخرى؛ وأتى بإحسان الأغنياء وبصبر الفقراء: كنبينا ﷺ وأبي بكر وعمر.

(١) أخرجه أحمد ١٩٧/٤.

والنصوص الواردة في الكتاب والسنة حاكمة بالقسط؛ فإن الله في القرآن لم يفضل أحداً بفقر، ولا غنى، كما لم يفضل أحداً بصحة ولا مرض. ولا إقامة ولا سفر، ولا إمارة ولا ائتمار، ولا إمامة ولا ائتمام؛ بل قال: **﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾**[1] وفضلهم بالأعمال الصالحة: من الإيمان ودعائمه، وشعبه كاليقين والمعرفة، ومحبة الله والإنابة إليه، والتوكل عليه ورجائه، وخشيته وشكره والصبر له. وقال في آية العدل: **﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين. إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما. فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا﴾**[2].

ولذلك كان النبي ﷺ وخلفاؤه يعدلون بين المسلمين. غنيهم وفقيرهم في أمورهم. ولما طلب بعض الأغنياء من النبي ﷺ إبعاد الفقراء نهاه الله عن ذلك. وأثنى عليهم بأنهم يريدون وجهه. فقال: **﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم﴾**[3] الآية.

وقال: **﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم﴾**[4] ولما طلب بعض الفقراء من النبي ﷺ ما لا يصلح له نهاه عن ذلك. وقال: «يا أبا ذر! إني أراك ضعيفاً. وإني أحب لك ما أحب لنفسي. لا تأمرن على اثنين. ولا تولين مال يتيم».

وكانوا يستوون في مقاعدهم عنده، وفي الاصطفاف خلفه؛ وغير ذلك. ومن اختص منهم بفضل عرف النبي ﷺ له ذلك الفضل، كما قنت للقراء السبعين[5]، وكان يجلس مع أهل الصفة، وكان أيضاً لعثمان وطلحة والزبير، وسعد بن معاذ وأسيد بن الحضير وعباد بن بشر ونحوهم، من سادات المهاجرين والأنصار الأغنياء منزلة ليست لغيرهم من الفقراء، وهذه سيرة المعتدلين من الأئمة في الأغنياء

---

(١) سورة الحجرات آية ١٣.

(٢) سورة النساء آية ١٣٥.

(٣) سورة الأنعام آية ٥٢.

(٤) سورة الكهف آية ٢٨.

(٥) أخرج البخاري في ذلك قوله: «عن أنس رضي الله عنه قال: قنت رسول الله ﷺ شهراً حين قتل القراء، فما رأيت رسول الله ﷺ حزن حزناً قط أشد منه» (١٠٤/١).

والفقراء. وهذا هو العدل والقسط الذي جاء بـه الكتاب والسنـة، وهي طريقـة عمر بن عبد العزيز، والليث بن سعد، وابن المبارك ومـالك وأحمـد بن حنبل. وغيرهم. في معاملتهم للأقوياء والضعفاء والأغنياء والفقراء.

وفي الأئمة كالثورى ونحوه من كان يميل إلى الفقراء، ويميل على الأغنياء مجتهداً في ذلك طالباً به رضا الله، حتى عتب عليه ذلك في آخر عمره، ورجع عنه.

وفيهم من كان يميل مع الأغنياء والرؤساء: كالزهرى، ورجاء بن حيوة، وأبي الزناد، وأبي يوسف ومحمد وأناس آخرين، وتكلم فيهم من تكلم بسبب ذلك، ولهم في ذلك تأويل واجتهـاد، والأول هو العدل والقسط، الذي دل عليه الكتاب والسنة.

ونصوص النبي ﷺ معتدلة فإنه قد روي «ان الفقراء قالوا له: يا رسول الله! ذهب أهل الدثور بالأجـور. يصلون كما نصلي، ويصـومون كمـا نصوم، ولهم فضول أموال يتصدقون بها ولا نتصدق فقال: ألا أعلمكم شيئاً؟ إذا فعلتموه ادركتم به من سبقكم، ولم يلحقكم من بعدكم إلا من عمل مثل عملكم، فعلمهم التسبيح المائة في دبر كل صلاة. فجاءوا إليه فقالوا: ان اخواننا من الاغنياء سمعوا ذلك ففعلوه، فقال: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء» وهذه الزيادة في صحيح مسلم من مراسيل أبي صالح، فهذا فيه تفضيل للأغنياء الذين عملوا مثل عمل الفقراء من العبادات البدنية بالقلب والبدن، وزادوا عليهم بالانفاق في سبيل الله ونحوه من العبادات المالية.

وثبت عنه أيضاً في الصحيح أنه قال: «يدخل فقراء أمتي الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم ـ خمسمائة عام ـ وفي رواية بأربعين خريفاً» فهذا فيه تفضيل الفقراء المؤمنين بأنهم يدخلون الجنة قبل الأغنياء المؤمنين، وكلاهما حق؛ فإن الفقيـر ليس معه مال كثير يحاسب على قبضه وصرفه، فلا يؤخر عن دخول الجنة لأجل الحساب، فيسبق في الدخول، وهو أحوج إلى سرعة الثواب، لما فاته في الدنيا من الطيبات. والغني يحاسب، فإن كان محسناً في غناه غير مسيء وهو فوقه، رفعت درجته عليه بعد الدخول، وإن كان مثله ساواه، وإن كان دونه نزل عنه.

وليست حاجته إلى سرعة الثواب كحاجة الفقير.

ونظير هذا قوله ﷺ في «حوضه»: الذي طوله شهر وعرضه شهر: «ماؤه أبيض من اللبن، وأحلى من العسل، أول الناس علي وِرْدَاً فقراء المهاجرين: الدنسين ثياباً، الشعث رؤوساً، الذين لا ينكحون المتنعمات، ولا تفتح لهم أبواب الملوك، يموت أحدهم وحاجته تختلج في صدره لا يجد لها قضاء» فكانوا أسبق إلى الذي يزيل ما حصل لهم في الدنيا من اللأواء والشدة، وهذا موضع ضيافة عامة فإنه يقدم الأشد جوعاً في الإطعم، وإن كان لبعض المستأخرين نوع إطعام ليس لبعض المتقدمين لا ستحقاقه ذلك ببذله عنده أو غير ذلك، وليس في المسألة عن النبي ﷺ أصح من هذين الحديثين وفيها الحكم الفصل: إن الفقراء لهم السبق والأغنياء لهم الفضل، وهذا قد يترجح تارة، وهذا كالسبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب ومع كل ألف سبعين الفاً، وقد يحاسب بعدهم من إذا دخل رفعت درجته عليهم.

وما روي: «أن ابن عوف يدخل الجنة حبواً». كلام موضوع لا أصل له؛ فإنه قد ثبت بأدلة الكتاب والسنة أن أفضل الأمة أهل بدر، ثم أهل بيعة الرضوان، والعشرة مفضلون على غيرهم والخلفاء الأربعة أفضل الأمة. وقد ثبت في الصحاح أنه قال: «اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء» وثبت في الصحاح أيضاً أنه قال: «احتجت الجنة والنار فقالت الجنة: مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم وقالت النار: مالي لا يدخلني إلا الجبارون والمتكبرون» وقوله: «وقفت على باب الجنة فإذا عامة من يدخلها المساكين، وإذا أصحاب الجد محبوسون، إلا أهل النار فقد أمر بهم إلى النار» هذا مع قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير».

فهذه الأحاديث فيها معنيان: أحدهما أن الجنة دار المتواضعين الخاشعين، لا دار المتكبرين الجبارين سواء كانوا أغنياء أو فقراء؛ فإنه قد ثبت في الصحيح «أنه لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر، ولا يدخل النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان. فقيل: يا رسول الله! الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله

حسناً أفمن الكبر. ذاك فقال: لا ـ إن الله جميل يحب الجمال ولكن الكبر بطر الحق وغمط[1] الناس» فأخبر ﷺ؛ أن الله يحب التجمل في اللباس الذي لا يحصل إلا بالغنى، وأن ذلك ليس من الكبر. وفي الحديث الصحيح: «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: فقير مختال وشيخ زان. وملك كذاب» وكذلك الحديث المروي: «لا يزال الرجل يذهب بنفسه، ثم يذهب بنفسه، ثم يذهب بنفسه، حتى يكتب عند الله جباراً، وما يملك إلا أهله».

فعلم بهذين الحديثين: أن من الفقراء من يكون مختالاً؛ لا يدخل الجنة. وأن من الأغنياء من يكون متجملاً غير متكبر؛ يحب الله جماله. مع قوله ﷺ في الحديث الصحيح «إن الله لا ينظر إلى صوركم، ولا إلى أموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»

ومن هذا الباب قول هرقل لأبي سفيان: أفضعفاء الناس اتبعه أم أشرافهم؟ قال: بل ضعفاؤهم. قال: وهم أتباع الأنبياء. وقد قالوا لنوح: ﴿أنؤمن لك واتبعك الأرذلون﴾[2] فهذا فيه أن أهل الرئاسة والشرف يكونون أبعد عن الانقياد إلى عبادة الله وطاعته؛ لأن حبهم للرئاسة يمنعهم ذلك، بخلاف المستضعفين. وفي هذا المعنى الحديث المأثور ـ إن كان محفوظاً ـ «اللهم أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين»[3] فالمساكين ضد المتكبرين. وهم الخاشعون لله. المتواضعون لعظمته، الذين لا يريدون علواً في الأرض. سواء كانوا أغنياء أو فقراء.

ومن هذا الباب إن الله خيره: بين أن يكون عبداً رسولاً وبين أن يكون نبياً ملكاً، فاختار أن يكون عبداً رسولاً[4]؛ لأن العبد الرسول يتصرف بأمر سيده؛ لا

---

(١) الغمط: الاستصغار والاحتقار.

(٢) سورة الشعراء آية ١١١.

(٣) أخرجه ابن ماجة والطبراني في الدعاء، والحاكم في المستدرك، والبيهقي في الشعب، وله شواهد في الترمذي والبيهقي في الشعب. (انظر المقاصد الحسنة ص ٨٤ ـ ٨٥).

(٤) يشير إلى الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد في المسند ولفظه: عن أبي هريرة قال: جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء، فإذا ملك ينزل، فقال جبريل: إن هذا الملك ما نزل منذ خلق قبل=

لأجل حظه، وأما الملك فيتصرف لحظ نفسه، وإن كان مباحاً. كما قيل لسليمان: ﴿هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب﴾[1] ففي هذه الأحاديث: أنه اختار العبودية والتواضع. وإن كان هو الأعلى هو ومن اتبعه. كما قال: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون﴾[2] وقال: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾[3] ولم يرد العلو وإن كان قد حصل له. وقد أعطي مع هذا من العطاء ما لم يعطه غيره، وإنما يفضل الغني لأجل الإحسان إلى الخلق، والإنفاق في سبيل الله، والاستعانة به على طاعة الله وعبادته، وإلا فذات ملك المال لا ينفع، بل قد يضر وقد صبر مع هذا من اللأواء[4] والشدة على ما لم يصبر عليه غيره، فنال أعلى درجات الشاكرين وأفضل مقامات الصابرين، وكان سابقاً في حالي الفقر والغنى، لم يكن ممن لا يصلحه إلا أحدهما، كبعض أصحابه وأمته.

المعنى الثاني: أن الصلاح في الفقراء أكثر منه في الأغنياء. كما أنه إذا كان في الأغنياء فهو أكمل منه في الفقراء، فهذا في هؤلاء أكثر وفي هؤلاء أكثر، لأن فتنة الغنى أعظم من فتنة الفقر، فالسالم منها أقل. ومن سلم منها كان أفضل ممن سلم من فتنة الفقر فقط؛ ولهذا صار الناس يطلبون الصلاح في الفقراء، لأن المظنة فيهم أكثر. فهذا هذا والله أعلم.

فلهذا السبب صارت المسكنة نسبته، وكذلك لما رأوا المسكنة والتواضع في الفقراء أكثر، اعتقدوا أن التواضع والمسكنة هو الفقر وليس كذلك. بل الفقر هنا عدم المال، والمسكنة خضوع القلب، وكان النبي ﷺ: يستعيذ من فتنة الفقر، وشر فتنة الغنى، وقال: بعض الصحابة ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر، وقد قال ﷺ: «والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخاف أن تبسط عليكم

= الساعة، فلما نزل قال: يا محمد أرسلني إليك ربك قال) أفملكاً نبياً يجعلك أو عبداً رسولاً، قال جبريل: تواضع لربك يا محمد، قال بل عبداً رسولاً» (٢/ ٢٣١).

(١) سورة ص آية ٣٩.

(٢) سورة آل عمران آية ١٣٩.

(٣) سورة المنافقون آية ٨.

(٤) اللأواء: ضيق المعيشة أو شدة المرض.

الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها»[1] ولهذا كان الغالب على المهاجرين الفقر، والغالب على الأنصار الغنى، والمهاجرون أفضل من الأنصار، وكان في المهاجرين أغنياءهم من أفضل المهاجرين مع أنهم بالهجرة تركوا من أموالهم ما صاروا به فقراء بالنسبة إلى ما كانوا عليه.

(١) أنظر بغير هذا اللفظ مسند أحمد ٢/٣٠٨، ٥٣٩.

الباب الخامس



الحمد والشكر

وَسُئِلَ عن «الحمد والشكر» ما حقيقتهما؟ هل هما معنى واحد، أو معنيان؟ وعلى أي شيء يكون الحمد؟ وعلى أي شيء يكون الشكر؟.

فأجاب: الحمد لله رب العالمين.

«الحمد» يتضمن المدح، والثناء على المحمود بذكر محاسنه، سواء كان الإحسان إلى الحامد، أو لم يكن، والشكر لا يكون إلا على إحسان المشكور إلى الشاكر، فمن هذا الوجه الحمد أعم من الشكر؛ لأنه يكون على المحاسن والإحسان، فإن الله تعالى يحمد على ماله من الأسماء الحسنى، والمثل الأعلى، وما خلقه في الآخرة والأولى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور**﴾[١] وقال: ﴿**الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة**﴾[٢] وقال: ﴿**الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع. يزيد في الخلق ما يشاء**﴾[٣].

وأما «الشكر» فإنه لا يكون إلا على الإنعام، فهو أخص من الحمد من هذا الوجه؛ لكنه يكون بالقلب واليد واللسان، كما قيل:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة: يدي، ولساني، والضمير المحجبا

---

(١) سورة الأنعام آية ١.

(٢) سورة سبأ آية ١.

(٣) سورة فاطر آية ١.

ولهذا قال تعالى: ﴿اعملوا آل داود شُكراً﴾[1].

و «الحمد» إنما يكون بالقلب واللسان، فمن هذا الوجه الشكر أعم من جهة أنواعه، والحمد أعم من جهة أسبابه، ومن هذا الحديث «الحمد لله رأس الشكر، فمن لم يحمد الله لم يشكره» وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليه ويشرب الشربة فيحمده عليها» والله أعلم.

فَصْل
[تلخيص مناظرة في «الحمْدُ وَالشّكر»]

بحث جرى بين شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية رحمه الله وبين ابن المرحل[2].

كان الكلام في الحمد والشكر، وأن الشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح، والحمد لا يكون إلا باللسان.

فقال ابن المرحل: قد نقل بعض المصنفين ـ وسماه ـ: أن مذهب أهل السنة والجماعة: أن الشكر لا يكون إلا بالاعتقاد. ومذهب الخوارج: أنه يكون بالاعتقاد، والقول والعمل، وبنوا على هذا: أن من ترك الأعمال يكون كافراً. لأن الكفر نقيض الشكر، فإذا لم يكن شاكراً كان كافراً.

قال الشيخ تقي الدين: هذا المذهب المحكى عن أهل السنة خطأ والنقل عن أهل السنة خطأ. فإن مذهب أهل السنة: أن الشكر يكون بالاعتقاد، والقول والعمل. قال الله تعالى: ﴿اعملوا آل داود شكراً﴾[3] وقام النبي ﷺ حتى

(١) سورة سبأ آية ١٣.

(٢) هو مالك بن عبد الرحمن بن علي أبو الحكم ابن المرحل المالقي النحوي الأديب، ولد سنة ٦٠٤ هـ، كان ذاكراً للآداب واللغة، شاعراً رقيقاً سريع البديهة، حسن الكتابة، والشعر أغلب عليه، ولي القضاء بجهات غرناطة، مات سنة ٦٩٩ هـ (انظر ترجمته في بغية الوعاة ٢/٢٧١، وغاية النهاية في طبقات القراء ٢/٣٦).

(٣) سورة سبأ آية ١٣.

تورمت قدماه، فقيل له: «أتفعل هذا، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً»[1].

قال ابن المرحل: أنا لا أتكلم في الدليل، وأسلم ضعف هذا القول؛ لكن أنا أنقل أنه مذهب أهل السنة.

قال الشيخ تقي الدين: نسبة هذا إلى أهل السنة خطأ، فإن القول إذا ثبت ضعفه، كيف ينسب إلى أهل الحق؟

ثم قد صرح من شاء الله من العلماء المعروفين بالسنة أن الشكر يكون بالاعتقاد، والقول والعمل، وقد دل على ذلك الكتاب والسنة.

قلت: وباب سجود الشكر في الفقه أشهر من أن يذكر[2]، وقد قال النبي ﷺ عن سجدة سورة (ص) «سجدها داود توبة، ونحن نسجدها شكراً». ثم من الذي قال من أئمة السنة: إن الشكر لا يكون إلا بالاعتقاد؟.

قال ابن المرحل: ـ هذا قد نقل، والنقل لا يمنع، لكن يستشكل. ويقال: هذا مذهب مشكل.

قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية: النقل نوعان. أحدهما: أن ينقل ما سمع أو رأى. والثاني: ما ينقل باجتهاد واستنباط. وقول القائل: مذهب فلان كذا، أو مذهب أهل السنة كذا، قد يكون نسبه إليه لاعتقاده أن هذا مقتضى أصوله، وإن لم يكن فلان قال ذلك. ومثل هذا يدخله الخطأ كثيراً. ألا ترى أن كثيراً من المصنفين يقولون: مذهب الشافعي أو غيره كذا، ويكون منصوصه بخلافه؟ وعذرهم في ذلك: أنهم رأوا أن أصوله تقتضي ذلك القول، فنسبوه إلى مذهبه من جهة الاستنباط، لا من جهة النص؟. وكذلك هذا. لما كان أهل السنة لا يكفرون

(١) أخرجه البخاري في التهجد ٦، ومسلم في المنافقين ٧٩ ـ ٨١، والترمذي في الصلاة ١٨٧، والنسائي في قيام الليل ١٧، وابن ماجة في الإقامة ٢٠٠، وأحمد في المسند ٤/٢٥١، ٢٥٥، و٦/١١٥.

(٢) يستحب سجود الشكر عند تجدد النعم واندفاع النقم، وهو قول الشافعي وإسحاق وأبي ثور وابن المنذر. وقال النخعي ومالك وأبو حنيفة يكره، لأن النبي ﷺ كان في أيامه الفتوح واستسقى فسقي ولم ينقل أنه سجد. ولوكان مستحباً لم يخل بخ (انظر المغني والشرح الكبير ١/٦٥٤).

بالمعاصي، والخوارج يكفرون بالمعاصي. ثم رأى المصنف الكفر ضد الشكر ـ: اعتقد أنا إذا جعلنا الأعمال شكراً لزم انتفاء الشكر بانتفائها، ومتى انتفى الشكر خلفه الكفر، ولهذا قال: إنهم بنوا على ذلك: التكفير بالذنوب. فلهذا عزي إلى أهل السنة إخراج الأعمال عن الشكر.

قلت: كما أن كثيراً من المتكلمين أخرج الأعمال عن الإيمان لهذه العلة.

قال: وهذا خطأ، لأن التكفير نوعان: أحدهما: كفر النعمة. والثاني: الكفر بالله الذي هو ضد الشكر: إنما هو كفر النعمة لا الكفر بالله. فإذا زال الشكر خلفه كفر النعمة، لا الكفر بالله.

قلت: على أنه لو كان ضد الكفر بالله، فمن ترك الأعمال شاكراً بقلبه ولسانه فقد أتى ببعض الشكر وأصله. والكفر إنما يثبت إذا عدم الشكر بالكلية. كما قال أهل السنة: إن من ترك فروع الإيمان لا يكون كافراً، حتى يترك أصل الإيمان. وهو الاعتقاد. ولا يلزم من زوال فروع الحقيقة ـ التي هي ذات شعب وأجزاء ـ زوال اسمها، الإنسان، إذا قطعت يده، أو الشجرة، إذا قطع بعض فروعها.

قال الصدر ابن المرحل: فإن أصحابك قد خالفوا الحسن البصري في تسمية الفاسق كافر النعمة، كما خالفوا الخوارج في جعله كافراً بالله.

قال الشيخ تقي الدين: أصحابي لم يخالفوا الحسن في هذا، فعمن تنقل من أصحابي هذا؟ بل يجوز عندهم أن يسمى الفاسق كافر النعمة، حيث أطلقته الشريعة.

قال ابن المرحل: إني أنا ظننت أن أصحابك قد قالوا هذا، لكن أصحابي قد خالفوا الحسن في هذا.

قال الشيخ تقي الدين: ـ ولا أصحابك خالفوه. فإن أصحابك قد تأولوا أحاديث النبي ﷺ التي أطلق فيها الكفر على بعض الفسوق ـ مثل ترك الصلاة. وقتال المسلمين ـ على أن المراد به كفر النعمة. فعلم أنهم يطلقون على المعاصي في الجملة أنها كفر النعمة. فعلم أنهم موافقوا الحسن، لا مخالفوه.

ثم عاد ابن المرحل، فقال: أنا أنقل هذا عن المصنف. والنقل ما يمنع، لكن يستشكل.

قال الشيخ تقي الدين: إذا دار الأمر بين أن ينسب إلى أهل السنة مذهب باطل، أو ينسب الناقل عنهم إلى تصرفه في النقل كان نسبة الناقل إلى التصرف أولى من نسبة الباطل إلى طائفة أهل الحق، مع أنهم صرحوا في غير موضع: إن الشكر يكون بالقول، والعمل، والاعتقاد. وهذا أظهر من أن ينقل عن واحد بعينه.

ثم إنا نعلم بالاضطرار أنه ليس من أصول أهل الحق: إخراج الأعمال أن تكون شكراً لله. بل قد نص الفقهاء على أن الزكاة شكر نعمة المال. وشواهد هذا أكثر من أن تحتاج إلى نقل.

وتفسير الشكر بأنه يكون بالقول والعمل في الكتب التي يتكلم فيها على لفظ «الحمد» «والشكر» مثل كتب التفسير واللغة، وشروح الحديث، يعرفه آحاد الناس. والكتاب والسنة قد دلا على ذلك.

فخرج ابن المرحل إلى شيء غير هذا، فقال: ـ الحسن البصري يسمي الفاسق منافقاً، وأصحابك لا يسمونه منافقاً.

قال الشيخ تقي الدين له: بل يسمى منافقاً النفاق الأصغر، لا النفاق الأكبر. والنفاق يطلق على النفاق الأكبر، الذي هو إضمار الكفر، وعلى النفاق الأصغر، الذي هو اختلاف السر والعلانية في الواجبات.

قال له ابن المرحل: ـ ومن أين قلت: إن الاسم يطلق على هذا وعلى هذا؟.

قال الشيخ تقي الدين: ـ هذا مشهور عند العلماء. وبذلك فسروا قول النبي ﷺ «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»[1] وقد ذكر ذلك الترمذي وغيره. وحكوه عن العلماء.

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٢٤ والشهادات ٢٨ والأدب ٦٩، ومسلم في الإيمان ١٠٧، والترمذي في الإيمان ١٤، والنسائي في الإيمان ١٩، وأحمد ٣/١٣٠، ١٣٤، ٢٤٩.

وقال غير واحد من السلف «كفر دون كفر، ونفاق دون نفاق وشرك دون شرك».

وإذا كان النفاق جنساً تحته نوعان، فالفاسق داخل في أحد نوعيه.

قال ابن المرحل: كيف تجعل النفاق اسم جنس، وقد جعلته لفظاً مشتركاً، وإذا كان اسم جنس كان متواطئاً، والاسماء المتواطئة غير المشتركة، فكيف تجعله مشتركاً متواطئاً».

قال الشيخ تقي الدين: أنا لم أذكر أنه مشترك. وإنما قلت: يطلق على هذا وعلى هذا، والإطلاق أعم.

ثم لو قلت: إنه مشترك لكان الكلام صحيحاً. فإن اللفظ الواحد قد يطلق على شيئين بطريق التواطؤ، وبطريق الاشتراك. فأطلقت لفظ النفاق على إبطان الكفر، وإبطان المعصية، تارة بطريق الاشتراك وتارة بطريق التواطؤ، كما أن لفظ الوجود يطلق على الواجب والممكن، عند قوم باعتبار الاشتراك، وعند قوم باعتبار التواطؤ. ولهذا سمي مشككاً

قال ابن المرحل: - كيف يكون هذا؟ وأخذ في كلام لا يحسن ذكره.

قال له الشيخ تقي الدين: - المعاني الدقيقة تحتاج إلى إصغاء واستماع وتدبر. وذلك أن الماهيتين إذا كان بينهما قدر مشترك وقدر مميز. واللفظ يطلق على كل منهما، فقد يطلق عليهما باعتبار ما به تمتاز كل ماهية عن الأخرى. فيكون مشتركاً كالاشتراك اللفظي. وقد يكون مطلقاً باعتبار القدر المشترك بين الماهيتين. فيكون لفظاً متواطئاً.

ولفظ «النفاق» من هذا الباب. فإنه في الشرع إظهار الدين وإبطان خلافه. وهذا المعنى الشرعي أخص من مسمى النفاق في اللغة، فإنه في اللغة أعم من إظهار الدين.

ثم إبطان ما يخالف الدين، إما أن يكون كفراً أو فسقاً. فإذا أظهر أنه مؤمن وأبطن التكذيب، فهذا هو النفاق الأكبر الذي أوعد صاحبه بأنه في الدرك الأسفل من النار. وإن أظهر أنه صادق أو موف، أو أمين، وأبطن الكذب والغدر والخيانة

ونحو ذلك. فهذا هو النفاق الأصغر الذي يكون صاحبه فاسقاً.

فإطلاق النفاق عليهما في الأصل بطريق التواطؤ.

وهذا البحث الشريف جار في كل لفظ عام استعمل في بعض أنواعه، إما لغلبة الاستعمال، أو لدلالة لفظية خصته بذلك النوع. مثل تعريف الإضافة، أو تعريف اللام. فإن كان لغلبة الاستعمال صح أن يقال: إن اللفظ مشترك. وإن كان لدلالة لفظية كان اللفظ باقياً على مواطأته.

فلهذا صح أن يقال «النفاق» اسم جنس تحته نوعان. لكون اللفظ في الأصل عاماً متواطئاً.

وصح أن يقال: هو مشترك بين النفاق في أصل الدين، وبين مطلق النفاق في الدين. لكونه في عرف الاستعمال الشرعي غلب على نفاق الكفر.

الباب السادس



وَقَال شيخ الإسلام قدسَ اللَّهُ روحُه[1] بسمِ اللَّهِ الرَحمٰنِ الرَحيم

الحمد لله الذي نستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور انفسنا ومن سيئات اعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً. أرسله بين يدي الساعة بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله باذنه وسراجاً منيراً، فهدى به من الضلالة وبصر به من العمى وأرشد به من الغي، وفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، وفرق به بين الحق والباطل، والهدى والضلال والرشاد والغي، والمؤمنين والكفار. والسعداء أهل الجنة والأشقياء أهل النار، وبين أولياء الله وأعداء الله، فمن شهد له محمد ﷺ بأنه من أولياء الله فهو من أولياء الرحمن، ومن شهد له بأنه من أعداء الله فهو من أولياء الشيطان

وقد بين سبحانه وتعالى في كتابه وسنة رسوله ﷺ أن لله أولياء من الناس، وللشيطان أولياء، ففرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، فقال تعالى **﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. الذين آمنوا وكانوا يتقون. لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك الفوز العظيم﴾**[1] وقال تعالى **﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم**

(١) سورة يونس آية ٦٢ ـ ٦٣.

فيها خالدون﴾[1] وقال تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض، ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين، فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم، يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة. فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده، فيصبحوا على ما أسروا في انفسهم نادمين. ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جَهْد أيمانهم أنهم لمعكم؟ حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين. ياأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم. إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون. ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾[2] وقال تعالى: ﴿هنالك الولاية لله الحق هو خير ثواباً وخير عقباً﴾[3].

وذكر «أولياء الشيطان» فقال تعالى: ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم. إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾[4] وقال تعالى: ﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت، فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾[5] وقال تعالى: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه: أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو؟ بئس للظالمين بدلاً﴾[6].

فَصْل
[الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان]

وإذا عرف أن الناس فيهم «أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» فيجب أن يفرق

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٧.
(٢) سورة المائدة الآيات ٥١ ـ ٥٦.
(٣) سورة الكهف آية ٤٤.
(٤) سورة النحل الآيات ٩٨ ـ ١٠٠.
(٥) سورة النساء آية ٧٦.
(٦) سورة الكهف آية ٥٠.

بين هؤلاء وهؤلاء كما فرق الله ورسوله بينهما، فأولياء الله هم المؤمنون المتقون كما قال تعالى ﴿**ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. الذين آمنوا وكانوا يتقون**﴾(١)

وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «يقول الله: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة - أو فقد آذنته بالحرب - وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي. ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه» وهذا أصح حديث يروى في الأولياء فبين النبي ﷺ أنه من عادى ولياً لله فقد بارز الله بالمحاربة.

وفي حديث آخر «وإني لأثأر لأوليائي كما يثأر الليث الحرب» أي آخذ ثأرهم ممن عاداهم كما يأخذ الليث الحرب ثأره، وهذا لأن أولياء الله هم الذين آمنوا به ووالوه، فأحبوا ما يحب وأبغضوا ما يبغض، ورضوا بما يرضى، وسخطوا بما يسخط، وأمروا بما يأمر ونهوا عما نهى، وأعطوا لمن يحب أن يعطي، ومنعوا من يحب أن يمنع كما في الترمذي وغيره عن النبي ﷺ أنه قال «أوثق عرى الإيمان: الحب في الله والبغض في الله» وفي حديث آخر رواه أبو داوود قال «ومن أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان».

و«الولاية» ضد العداوة، وأصل الولاية المحبة والقرب، وأصل العداوة البغض والبعد. وقد قيل: إن الولي سمي ولياً من موالاته للطاعات أي متابعته لها، والأول أصح. والولي القريب، فيقال: هذا يلي هذا أي يقرب منه. ومنه قوله ﷺ «ألحقوا الفرائض بأهلها فما أبقت الفرائض فلأولى رجل ذكر»(٢) أي لأقرب رجل

---

(١) سورة يونس آي ٦٢ - ٦٣.

(٢) أخرجه البخاري في الفرائض ٥ و٧ و٩ و١٥، ومسلم في الفرائض ٢ و٣، والترمذي في الفرائض ٨، والدارمي في الفرائض ٢٨.

إلى الميت. وأكده بلفظ «الذكر» ليبين أنه حكم يختص بالذكور، ولا يشترك فيها الذكور والإناث كما قال في الزكاة «فابن لبون ذكر»[1].

فإذا كان ولي الله هو الموافق المتابع له فيما يحبه ويرضاه ويبغضه ويسخطه ويأمر به وينهى عنه كان المعادي لوليه معادياً له كما قال تعالى: **﴿لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة﴾**[2] فمن عادى أولياء الله فقد عاداه، ومن عاداه فقد حاربه، فلهذا قال «ومن عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة».

وأفضل أولياء الله هم أنبياؤه، وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم، وأفضل المرسلين أولو العزم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ قال تعالى: **﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾**[3] وقال تعالى: **﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً. ليسأل الصادقين عن صدقهم، وأعد للكافرين عذاباً أليماً﴾**[4].

وأفضل أولي العزم محمد ﷺ خاتم النبيين وإمام المتقين، وسيد ولد آدم، وإمام الأنبياء إذا اجتمعوا، وخطيبهم إذا وفدوا، صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون وصاحب لواء الحمد، وصاحب الحوض المورود، وشفيع الخلائق يوم القيامة وصاحب الوسيلة والفضيلة، الذي بعثه بأفضل كتبه وشرع له أفضل شرائع دينه، وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، وجمع له ولأمته من الفضائل والمحاسن ما فرقه فيمن قبلهم، وهم آخر الأمم خلقاً، وأول الأمم بعثاً كما قال ﷺ في الحديث الصحيح: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم؛ فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه يعني

---

(١) هو جزء من آخر حديث طويل في زكاة المواشي، وفيه: «فمن لم يكن عنده ابنة مخاض على وجهها، وعنده ابن لبون ذكر، فإنه يقبل منه، وليس معه شيء» (ابن ماجة في الزكاة ١/٥٧٥) وأخرجه أيضاً البخاري في الزكاة ٣٣.

(٢) سورة الممتحنة آية ١.

(٣) سورة الشورى آية ١٣.

(٤) سورة الأحزاب آية ٧ ـ ٨.

يوم الجمعة ـ فهدانا الله له: الناس لنا تبع فيه، غداً لليهود وبعد غد للنصارى»

وقال ﷺ: «أنا أول من تنشق عنه الأرض»[1] وقال ﷺ: «آتي باب الجنة فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول أنا محمد فيقول بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك»[2].

وفضائله ﷺ وفضائل أمته كثيرة، ومن حين بعثه الله جعله الله الفارق بين أوليائه وبين أعدائه، فلا يكون ولياً لله إلا من آمن به وبما جاء به، واتبعه باطناً وظاهراً، ومن ادعى محبة الله وولايته وهو لم يتبعه فليس من أولياء الله؛ بل من خالفه كان من أعداء الله وأولياء الشيطان، قال تعالى: **﴿قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾**[3] قال الحسن البصري رحمه الله: ادعى قوم أنهم يحبون الله فأنزل الله هذه الآية محنة لهم[4]، وقد بين الله فيها أن من اتبع الرسل فإن الله يحبه، ومن ادعى محبة الله ولم يتبع الرسول ﷺ فليس من أولياء الله، وإن كان كثير من الناس يظنون في أنفسهم أو في غيرهم أنهم من أولياء الله ولا يكونون من أولياء الله فاليهود والنصارى يدعون أنهم أولياء الله وأحباؤه. قال تعالى: **﴿قل فلم يعذبكم بذنوبكم؟ بل انتم بشر ممن خلق﴾**[5] الآية. وقال تعالى: **﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، تلك أمانيهم﴾**[6] إلى قوله **﴿ولا هم يحزنون﴾**.

وكان مشركوا العرب يدعون أنهم أهل الله لسكناهم مكة، ومجاورتهم البيت، وكانوا يستكبرون به على غيرهم، كما قال تعالى **﴿قد كانت آياتي تتلى**

---

(١) الحديث بتمامة من صحيح مسلم، قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة. وأول من ينشق عنه القبر. وأول شافع وأول مشفع» (١٧٨٢/٤) وأخرجه أيضاً الدارمي في فضائل القرآن ١٥، وأحمد في المسند ٣٤٨/٥.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ٣٣٣، وأحمد ١٣٦/٣.

(٣) سورة آل عمران آية ٣١.

(٤) هذا ما رواه الواحدي في أسباب النزول، وفي سبب نزول الآية قول آخر فليراجع هناك ص ٦٠ - ٦١.

(٥) سورة المائدة آية ١٨.

(٦) سورة البقرة آية ١١١.

عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون. مستكبرين به سامراً تهجرون﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك﴾[2] إلى قوله ﴿وهم يصدون عن المسجد الحرام، وما كانوا أولياءه، إن أولياؤه إلا المتقون﴾[3] فبين سبحانه أن المشركين ليسوا أولياءه ولا أولياء بيته، إنما أولياؤه المتقون.

وثبت في الصحيحين عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول جهاراً من غير سر: «إن آل فلان ليسوا لي بأولياء - يعني طائفة من أقاربه - إنما ولي الله وصالح المؤمنين» وهذا موافق لقوله تعالى: ﴿فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين﴾[4] الآية. وصالح المؤمنين هو من كان صالحاً من المؤمنين، وهم المؤمنون المتقون أولياء الله. ودخل في ذلك أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وسائر أهل بيعة الرضوان الذين بايعوا تحت الشجرة، وكانوا ألفاً وأربعمائة، وكلهم في الجنة كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال «لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة» ومثل هذا الحديث الآخر: «إن أوليائي المتقون أياً كانوا وحيث كانوا».

كما أن من الكفار من يدعي أنه ولي الله وليس ولياً لله؛ بل عدو له، فكذلك من المنافقين الذين يظهرون الإسلام يقرون في الظاهر بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأنه مرسل إلى جميع الإنس؛ بل إلى الثقلين الإنس والجن، ويعتقدون في الباطن ما يناقض ذلك، مثل أن لا يقروا في الباطن بأنه رسول الله، وإنما كان ملكاً مطاعاً ساس الناس برأيه من جنس غيره من الملوك، أو يقولون إنه رسول الله إلى الأميين دون أهل الكتاب كما يقوله كثير من اليهود والنصارى، أو إنه مرسل إلى عامة الخلق، وإن لله أولياء خاصة لم يرسل إليهم ولا يحتاجون إليه؛ بل لهم طريق إلى الله من غير جهته، كما كان الخضر مع موسى، أو إنهم يأخذون عن الله كل ما يحتاجون إليه وينتفعون به من غير واسطة، أو إنه مرسل بالشرائع الظاهرة

(١) سورة المؤمنون آية ٦٦.
(٢) سورة الأنفال آية ٣٠.
(٣) سورة الأنفال آية ٣٤.
(٤) سورة التحريم آية ٤.

وهم موافقون له فيها، وأما الحقائق الباطنة فلم يرسل بها، أو لم يكن يعرفها، أو هم أعرف بها منه، أو يعرفونها مثل ما يعرفها من غير طريقته.

وقد يقول بعض هؤلاء: أن «أهل الصفة» كانوا مستغنين عنه، ولم يرسل إليهم، ومنهم من يقول: إن الله أوحى إلى أهل الصفة في الباطن ما أوحى إليه ليلة المعراج، فصار أهل الصفة بمنزلته، وهؤلاء من فرط جهلهم لا يعلمون أن الإسراء كان بمكة كما قال تعالى: ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله**﴾[1]، وأن الصفة لم تكن إلا بالمدينة، وكانت صفة في شمالي مسجده ﷺ ينزل بها الغرباء الذين ليس لهم أهل وأصحاب ينزلون عندهم[2]؛ فإن المؤمنين كانوا يهاجرون إلى النبي ﷺ إلى المدينة؛ فمن أمكنه أن ينزل في مكان نزل به، ومن تعذر ذلك عليه نزل في المسجد إلى أن يتيسر له مكان ينتقل إليه.

ولم يكن «أهل الصفة» ناساً بأعيانهم يلازمون الصفة؛ بل كانوا يقلون تارة ويكثرون أخرى، ويقيم الرجل بها زماناً ثم ينتقل منها؛ والذين ينزلون بها من جنس سائر المسلمين؛ ليس لهم مزية في علم ولا دين؛ بل فيهم من ارتد عن الإسلام وقتله النبي ﷺ كالعرنيين الذين اجتووا المدينة ـ أي استوخموها ـ فأمر لهم النبي ﷺ بلقاح ـ أي إبل لها لبن ـ وأمرهم أن يشربوا من أبوالها وألبانها فلما صحوا قتلوا الراعي، واستاقوا الذود، فأرسل النبي ﷺ في طلبهم، فأتى بهم، فأمر بقطع أيديهم وأرجلهم، وسمرت[3] أعينهم وتركهم في الحرة يستسقون فلا يسقون وحديثهم في الصحيحين من حديث أنس، وفيه أنهم نزلوا الصفة، فكان ينزلها مثل هؤلاء، ونزلها من خيار المسلمين سعد بن أبي وقاص وهو أفضل من نزل بالصفة، ثم انتقل عنها، ونزلها أبو هريرة وغيره.

وقد جمع أبو عبد الرحمن السامي تاريخ من نزل الصفة.

---

(١) سورة الإسراء آية ١.

(٢) لقد عقدنا باباً خاصاً عن أهل الصفة، فليراجع.

(٣) الصحيح سملت أعينهم، أي فقأت بمسمار أو حديدة محماة، وربما وقع تحريف من الطابع.

وأما «الأنصار» فلم يكونوا من أهل الصفة، كذلك أكابر المهاجرين كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وأبي عبيدة وغيرهم لم يكونوا من أهل الصفة.

وقد روي أنه بها غلام للمغيرة بن شعبة، وأن النبي ﷺ قال: «هذا واحد من السبعة» وهذا الحديث كذب باتفاق أهل العلم وإن كان قد رواه أبو نعيم في الحلية، وكذا كل حديث يروى عن النبي ﷺ في عدة «الأولياء» و«الأبدال» و«النقباء» و«النجباء» و«الأوتاد» و«الأقطاب»[1] مثل أربعة أو سبعة أو اثني عشر أو أربعين أو سبعين أو ثلاثمائة وثلاثة عشر، أو القطب الواحد، فليس في ذلك شيء صحيح عن النبي ﷺ، ولم ينطق السلف بشيء من هذه الألفاظ إلا بلفظ «الأبدال». وروي فيهم حديث أنهم أربعون رجلاً وإنهم بالشام وهو في المسند من حديث علي رضي الله عنه، وهو حديث منقطع ليس بثابت. ومعلوم أن علياً ومن معه من الصحابة كانوا أفضل من معاوية ومن معه بالشام فلا يكون أفضل الناس في عسكر معاوية دون عسكر علي، وقد أخرجا في الصحيحين عن أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: «تمرق مارقة من الدين على حين فرقة من المسلمين يقتلهم أولى الطائفتين بالحق» وهؤلاء المارقون هم الخوارج الحرورية الذين مرقوا لما حصلت الفرقة بين المسلمين في خلافة علي، فقتلهم علي بن أبي طالب وأصحابه، فدل هذا الحديث الصحيح على أن علي بن أبي طالب أولى بالحق من معاوية وأصحابة؛ وكيف يكون الأبدال في أدنى العسكرين دون أعلاهما؟

وكذلك ما يرويه بعضهم عن النبي ﷺ انه انشد منشد

قد لسعت حية الهوى كبدي ... فلا طبيب لها ولا راقي
إلا الحبيب الذي شغفت به ... فعنده رقيتي وترياقي

وإن النبي ﷺ تواجد[2] حتى سقطت البردة عن منكبه» فإنه كذب باتفاق أهل العلم بالحديث، وأكذب منه ما يرويه بعضهم: «أنه مزق ثوبه، وأن جبريل

---

(١) هذه ألفاظ تستعملها المتصوفة لمعرفة مراتب كبار المتصوفة والمشايخ.

(٢) أي استغرق في حب الله وعبادته ودعائه.

أخذ قطعة منه فعلقها على العرش»، فهذا وأمثاله مما يعرف أهل العلم والمعرفة برسول الله ﷺ أنه من أظهر الأحاديث كذباً عليه ﷺ.

وكذلك ما يروونه عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «كان النبي ﷺ وأبو بكر يتحدثان وكنت بينهما كالزنجي»، وهو كذب موضوع باتفاق أهل العلم بالحديث.

والمقصود هنا أن فيمن يقر برسالته العامة في الظاهر من يعتقد في الباطن ما يناقض ذلك فيكون منافقاً وهو يدعي في نفسه وامثاله أنهم أولياء الله مع كفرهم في الباطن بما جاء به الرسول ﷺ إما عناداً وإما جهلاً، كما أن كثيراً من النصارى واليهود يعتقدون أنهم أولياء الله، وأن محمداً رسول الله؛ ولكن يقولون إنما أرسل إلى غير أهل الكتاب، وأنه لا يجب علينا اتباعه، لأنه أرسل إلينا رسلاً قبله، فهؤلاء كلهم كفار مع أنهم يعتقدون في طائفتهم أنهم أولياء الله، وإنما أولياء الله الذين وصفهم الله تعالى بولايته بقوله: ﴿**ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. الذين آمنوا وكانوا يتقون**﴾[1].

ولا بد في الإيمان من أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويؤمن بكل رسول أرسله الله وكل كتاب أنزله الله، كما قال تعالى: ﴿**قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون. فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا، وإن تولوا فإنما هم في شقاق، فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم**﴾[2] وقال تعالى: ﴿**آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون، كل آمن بالله وملائكته، وكتبه. ورسله؛ لا نفرق بين أحد من رسله**﴾[3] إلى آخر السورة. وقال في اول السورة: ﴿**الم. ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين. الذين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة، ومما رزقناهم ينفقون. والذين يؤمنون بما أنزل إليك، وما أنزل من قبلك، وبالآخرة هم**

---

(١) سورة يونس آية ٦٢.

(٢) سورة البقرة آية ٢٦ - ٢٧.

(٣) آخر سورة البقرة.

يوقنون. أولئك على هدى من ربهم، وأولئك هم المفلحون﴾[1].

فلا بد في الإيمان من أن تؤمن أن محمداً ﷺ خاتم النبيين، لا نبي بعده، وإن الله أرسله إلى جميع الثقلين الجن والانس فكل من لم يؤمن بما جاء به فليس بمؤمن؛ فضلاً عن أن يكون من أولياء الله المتقين؛ ومن آمن ببعض ما جاء به وكفر ببعض فهو كافر ليس بمؤمن، كما قال الله تعالى: **﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً أولئك هم الكافرون حقاً، وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً. والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم، أولئك سوف يؤتيهم أجورهم، وكان الله غفوراً رحيماً﴾**[2] ومن الإيمان به الإيمان بأنه الواسطة بين الله وبين خلقه في تبليغ أمره ونهيه. ووعده ووعيده، وحلاله وحرامه؛ فالحلال ما أحله الله ورسوله، والحرام ما حرمه الله ورسوله، والدين ما شرعه الله ورسوله ﷺ، فمن اعتقد أن لأحد من الأولياء طريقاً إلى الله من غير متابعة محمد ﷺ فهو كافر من أولياء الشيطان.

وأما خلق الله تعالى للخلق، ورزقه إياهم، وإجابته لدعائهم وهدايته لقلوبهم، ونصرهم على أعدائهم، وغير ذلك من جلب المنافع ودفع المضار، فهذا لله وحده يفعله بما يشاء من الأسباب، لا يدخل في مثل هذا وساطة الرسل.

ثم لو بلغ الرجل في «الزهد والعبادة والعلم» ما بلغ، ولم يؤمن بجميع ما جاء به محمد ﷺ فليس بمؤمن، ولا ولي لله تعالى كالأحبار والرهبان من علماء اليهود والنصارى وعبادهم؛ وكذلك المنتسبين إلى العلم والعبادة من المشركين مشركي العرب والترك والهند وغيرهم فمن كان من حكماء الهند والترك وله علم أو زهد وعبادة في دينه وليس مؤمناً بجميع ما جاء به فهو كافر عدو لله، وإن ظن طائفة أنه ولي لله، كما كان حكماء الفرس من المجوس كفاراً مجوساً.

وكذلك حكماء «اليونان» مثل أرسطو وأمثاله كانوا مشركين يعبدون الأصنام

---

(١) أول سورة البقرة.

(٢) سورة النساء الآيات ١٥٠ ـ١٥٢.

والكواكب، وكان أرسطو قبل المسيح عليه السلام بثلاثمائة سنة، وكان وزيراً للإسكندر بن فيلبس المقدوني، وهو الذي تؤرخ به تواريخ الروم واليونان، وتؤرخ به اليهود والنصارى؛ وليس هذا هو ذو القرنين الذي ذكره الله في كتابه، كما يظن بعض الناس أن أرسطو كان وزيراً لذي القرنين لما رأوا أن ذاك اسمه الإسكندر، وهذا قد يسمى بالاسكندر ظنوا أن هذا ذاك كما يظنه ابن سينا وطائفة معه، وليس الأمر كذلك؛ بل هذا الإسكندر المشرك الذي قد كان أرسطو وزيره متأخر عن ذاك، ولم يبن هذا السد، ولا وصل إلى بلاد يأجوج ومأجوج، وهذا الإسكندر الذي كان أرسطو من وزرائه يؤرخ له تاريخ الروم المعروف.

وفي أصناف المشركين من مشركي العرب ومشركي الهند والترك واليونان وغيرهم من له اجتهاد في العلم والزهد والعبادة؛ ولكن ليس بمتبع للرسل ولا يؤمن بما جاءوا به ولا يصدقهم بما أخبروا به ولا يطيعهم فيما أمروا، فهؤلاء ليسوا بمؤمنين ولا أولياء لله، وهؤلاء تقترن بهم الشياطين وتنزل عليهم فيكاشفون الناس ببعض الأمور ولهم تصرفات خارقة من جنس السحر، وهم من جنس الكهان والسحرة الذين تنزل عليهم الشياطين. قال تعالى: **﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين. تنزل على كل افاك أثيم. يلقون السمع وأكثرهم كاذبون﴾**[1].

وهؤلاء جميعهم الذين ينتسبون إلى المكاشفات وخوارق العادات إذا لم يكونوا متبعين للرسل فلا بد أن يكذبوا، وتكذبهم شياطينهم. ولا بد أن يكون في أعمالهم ما هو إثم وفجور مثل نوع من الشرك أو الظلم أو الفواحش أو الغلو أو البدع في العبادة؛ ولهذا تنزلت عليهم الشياطين واقترنت بهم فصاروا من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن. قال الله تعالى: **﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين﴾**[2] وذكر الرحمن هو الذكر الذي بعث به رسوله ﷺ مثل القرآن فمن لم يؤمن بالقرآن ويصدق خبره ويعتقد وجوب أمره فقد أعرض عنه فيقيض له الشيطان فيقترن به، قال تعالى: **﴿وهذا ذكر مبارك أنزلناه﴾**[3] وقال

---

(١) سورة الشعراء الآيات ٢٢١ ـ ٢٢٣.

(٢) سورة الزخرف آية ٣٦.

(٣) سورة الأنبياء آية ٥٠.

تعالى: ﴿**ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى. قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً. قال: كذلك أتتك آياتنا فنسيتها، وكذلك اليوم تنسى**﴾[٣] فدل ذلك على ان ذكره هو آياته التي أنزلها، ولهذا لو ذكر الرجل الله سبحانه وتعالى دائماً ليلاً ونهاراً مع غاية الزهد، وعبده مجتهداً في عبادته ولم يكن متبعاً لذكره الذي أنزله ـ وهو القرآن ـ كان من أولياء الشيطان ولو طار في الهواء أو مشي على الماء؛ فإن الشيطان يحمله في الهواء. وهذا مبسوط في غير هذا الموضع.

فصل
[الشعبة من النفاق]

ومن الناس من يكون فيه إيمان، وفيه شعبة من نفاق، كما جاء في الصحيحين عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب؛ وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان، وإذا عاهد غدر» وفي الصحيحين أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة. أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان» فبين النبي ﷺ أن من كان فيه خصلة من هذه الخصال ففيه خصلة من النفاق حتى يدعها، وقد ثبت في الصحيحين أنه قال لأبي ذر ـ وهو من خيار المؤمنين ـ «إنك امرؤ فيك جاهلية» فقال يا رسول الله أعلى كبر سني؟! قال: «نعم»!.

وثبت في الصحيح عنه أنه قال «أربع في أمتي من أمر الجاهلية: الفخر في الأحساب، والطعن في الانساب، والنياحة على الميت، والاستسقاء بالنجوم» وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب. وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان» وفي صحيح مسلم

---

(١) سورة طه الآيات ١٢٤ ـ ١٢٦.

«وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم» وذكر البخاري عن ابن أبي مليكة قال: أدركت ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه وقد قال الله تعالى: **﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله، وليعلم المؤمنين، وليعلم الذين نافقوا، وقيل لهم، تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا؛ قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم. هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان﴾**(1) فقد جعل هؤلاء إلى الكفر أقرب منهم للإيمان، فعلم أنهم مخلطون وكفرهم أقوى؛ وغيرهم يكون مخلطاً وإيمانه أقوى.

وإذا كان «أولياء الله» هم المؤمنين المتقين فبحسب إيمان العبد وتقواه تكون ولايته لله تعالى، فمن كان أكمل إيماناً وتقوى، كان أكمل ولاية لله. فالناس متفاضلون في ولاية الله عز وجل بحسب تفاضلهم في الإيمان والتقوى، وكذلك يتفاضلون في عداوة الله بحسب تفاضلهم في الكفر والنفاق، قال الله تعالى: **﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً؟ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون﴾**(2) وقال تعالى: **﴿إنما النسيء زيادة في الكفر﴾**(3) وقال تعالى: **﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾**(4) وقال تعالى في المنافقين **﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً﴾**(5). فبين سبحانه وتعالى أن الشخص الواحد قد يكون فيه قسط من ولاية الله بحسب إيمانه؛ وقد يكون في

---

(1) سورة آل عمران آية ١٦٧.

(2) سورة التوبة آية ١٢٤ ـ ١٢٥.

(3) سورة التوبة آية ٣٧، وجاء معنى الآية في تفسير ابن كثير: «هذا مما ذم الله تعالى به المشركين من تصرفهم في شرع الله بآرائهم الفسدة، وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم البادرة، وتحليلهم ما حرم الله وتحريمهم ما أحل الله، فإنهم كان فيهم من القوة الغضبية والشهامة والحمية ما استطاعوابه مدة الأشهر الثلاثة في التحريم المانع لهم من قضاء أوطارهم من قتال أعدائهم، فكانوا قد أحدثوا قبل الإسلام بمدة تحليل المحرم فأخروه إلى صفر، فيحلون الشهر الحرام ويحرمون الشهر الحلال ليواطئوا عدة من ما حرم الله الأشهر الأربعة» (٢/٥٥٥) والنسيء هنا تركهم المحرم عاماً وعاماً يحرمونه.

(4) سورة محمد آية ١٧.

(5) سورة البقرة آية ١٠.

قسط من عداوة الله بحسب كفره ونفاقه. وقال تعالى ﴿ويزداد الذين آمنوا إيماناً﴾[1] وقال تعالى ﴿ليزدادوا إيماناً مع ايمانهم﴾[2].

فصل
[السابقون وأصحاب اليمين]

وأولياء الله على «طبقتين» سابقون مقربون، وأصحاب يمين مقتصدون. ذكرهم الله في عدة مواضع من كتابه العزيز في أول سورة الواقعة وآخرها وفي سورة الإنسان؛ والمطففين وفي سورة فاطر، فإنه سبحانه وتعالى ذكر في الواقعة القيامة الكبرى في أولها، وذكر القيامة الصغرى في آخرها، فقال في أولها **﴿إذا وقعت الواقعة. ليس لوقعتها كاذبة، خافضة رافعة. إذا رجت الأرض رجاً. وبست الجبال بساً، فكانت هباءاً منبثاً. وكنتم أزواجاً ثلاثة. فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة. وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة. والسابقون السابقون أولئك المقربون. في جنات النعيم. ثلة من الأولين. وقليل من الآخرين﴾** فهذا تقسيم الناس إذا قامت القيامة الكبرى التي يجمع الله فيها الأولين والآخرين كما وصف الله سبحانه ذلك في كتابه في غير موضع.

ثم قال تعالى في آخر السورة: **﴿فلولا﴾** أي: فهلا **﴿إذا بلغت الحلقوم. وأنتم حينئذ تنظرون. ونحن أقرب إليه منكم، ولكن لا تبصرون. فلولا إن كنتم غير مدينين. ترجعونها إن كنتم صادقين. فأما إن كان من المقربين. فروح وريحان وجنة نعيم. وأما إن كان من أصحاب اليمين. فسلام لك من أصحاب اليمين. وأما إن كان من المكذبين الضالين. فنزل من حميم. وتصلية جحيم. إن هذا لهو حق اليقين. فسبح باسم ربك العظيم﴾**.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من السلف قالوا يمزج لأصحاب اليمين مزجاً، ويشرب بها المقربون صرفاً، وهو كما قالوا. فإنه تعالى قال **﴿يشرب**

---

(١) سورة المدثر آية ٣١.

(٢) سورة الفتح آية ٤.

بها﴾[1] ولم يقل: يشرب منها لأنه ضمن ذلك قوله يشرب يعني يروى بها، فإن الشارب قد يشرب ولا يروى، فإذا قيل يشربون منها لم يدل على الري. فإذا قيل يشربون بها كان المعنى يروون يها، فالمقربون يروون بها فلا يحتاجون معها إلى مادونها؛ فلهذا يشربون منها صرفاً، بخلاف أصحاب اليمين فإنها مزجت لهم مزجاً،وهو كما قال تعالى في سورة الانسان: ﴿**كان مزاجها كافوراً عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً**﴾[2].

فعباد الله هم المقربون المذكورون في تلك السورة، وهذا لأن الجزاء من جنس العمل في الخير والشر، كما قال النبي ﷺ «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة؛ وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبة» رواه مسلم في صحيحه. وقال ﷺ «الراحمون يرحمهم الرحمن. إرحموا من في الأرض يرحمكم من السماء» قال الترمذي: حديث صحيح.

وفي الحديث الآخر الصحيح الذي في السنن «يقول الله تعالى: أنا الرحمن خلقت الرحم، وشققت لها إسماً من اسمي، فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته» وقال «ومن وصلها وصله الله، ومن قطعها قطعه الله» ومثل هذا كثير.

وأولياء الله تعالى على نوعين: مقربون وأصحاب يمين كما تقدم وقد ذكر النبي ﷺ عمل القسمين في حديث الأولياء فقال «يقول الله تعالى: من عادى لي ولياً ففد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إلى عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه؛ فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به،

(١) سورة الإنسان آية ٦.

(٢) سورة الإنسان آية ٥ ـ ٦.

وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها».

فالابرار أصحاب اليمين هم المتقربون إليه بالفرائض، يفعلون ما أوجب الله عليهم ويتركون ما حرم الله عليهم، ولا يكلفون أنفسهم بالمندوبات؛ ولا الكف عن فضول المباحات.

وأما السابقون المقربون فتقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض، ففعلوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات، فلما تقربوا إليه بجميع ما يقدرون عليه من محبوباتهم أحبهم الرب حباً تاماً، كما قال تعالى: «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه» يعني الحب المطلق، كقوله تعالى: ﴿**اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين**﴾[1] أي أنعم عليهم الإنعام المطلق التام المذكور في قوله تعالى: ﴿**ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً**﴾[2] فهؤلاء المقربون صارت المباحات في حقهم طاعات، يتقربون بها إلى الله عز وجل فكانت أعمالهم كلها عبادات لله فشربوا صرفاً كما عملوا له صرفاً، والمقتصدون كان في أعمالهم ما فعلوه لنفوسهم، فلا يعاقبون عليه ولا يثابون عليه، فلم يشربوا صرفاً؛ بل مزج لهم من شراب المقربين بحسب ما مزجوه في الدنيا.

ونظير هذا انقسام الأنبياء عليهم السلام إلى عبد رسول ونبي ملك وقد خير الله سبحانه محمداً ﷺ بين أن يكون عبداً رسولاً، وبين أن يكون ملكاً، فاختار أن يكون عبداً رسولا[3]، فالنبي الملك مثل داود وسليمان ونحوهما عليهما الصلاة والسلام قال الله تعالى في قصة سليمان الذي ﴿**قال: رب اغفر لي، وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي؛ إنك أنت الوهاب. فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب. والشياطين كل بناء وغواص. وآخرين مقرنين في الاصفاد. هذا عطاؤنا**

(١) آخر سورة الفاتحة.

(٢) سورة النساء آية ٦٩.

(٣) مر الحديث المروي في هذا الموضوع.

فامنن أو أمسك بغير حساب﴾[1] أي أعط من شئت واحرم من شئت لا حساب حساب عليك، فالنبي الملك يفعل ما فرض الله عليه ويترك ما حرم الله عليه ويتصرف في الولاية والمال بما يحبه ويختار من غير اثم عليه.

وأما العبد الرسول فلا يعطي أحداً إلا بأمر ربه ولا يعطي من يشاء ويحرم [من يشاء بل روي عنه] أنه قال «إني والله لا أعطي أحداً ولا أمنع أحداً، إنما أنا قاسم أضع. حيث أمرت»، ولهذا يضيف الله الاموال الشرعية إلى الله والرسول كقوله تعالى: **﴿قل الانفال لله والرسول﴾**[2] وقوله تعالى: **﴿وما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول﴾**[3] وقوله تعالى: **﴿واعلموا إنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول﴾**[4].

ولهذا كان أظهر أقوال العلماء أن هذه الأموال تصرف فيما يحبه الله ورسوله بحسب اجتهاد ولي الأمر كما هو مذهب مالك وغيره من السلف، ويذكر هذا رواية عن أحمد، وقد قيل في الخمس أنه يقسم على خمسة، كقول الشافعي وأحمد في المعروف عنه، وقيل: على ثلاثة، كقول أبي حنيفة رحمه الله.

و «المقصود هنا» أن العبد الرسول هو أفضل من النبي الملك. كما أن إبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً عليهم الصلاة والسلام أفضل من يوسف وداود وسليمان عليهم السلام، كما أن المقربين السابقين أفضل من الأبرار أصحاب اليمين الذين ليسوا مقربين سابقين، فمن أدى ما أوجب عليه الله وفعل من المباحات ما يحبه فهو من هؤلاء، ومن كان إنما يفعل ما يحبه الله ويرضاه ويقصد أن يستعين بما أبيح له على ما أمره الله فهو من أولئك.

---

(١) سورة ص الآيات ٣٤ ـ ٣٩.

(٢) أول سورة الأنفال.

(٣) سورة الحشر آية ٦.

(٤) سورة الأنفال آية ٤١.

فَـصل
[المقتصدون]

وقد ذكر الله تعالى «أولياءه» المقتصدين والسابقين في سورة فاطر في قوله تعالى: **﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات باذن الله، ذلك هو الفضل الكبير. جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً، ولباسهم فيها حرير. وقالوا: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن، إن ربنا لغفور شكور. الذي احلنا دار المقامة من فضله، لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغـوب﴾**[1] لكن هذه الأصنـاف الثلاثة في هذه الآية هم أمة محمد ﷺ خاصة كما قال تعالى: **﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله، ذلك هو الفضل الكبير﴾**.

وأمة محمد ﷺ هم الذين أورثوا الكتاب بعد الأمم المتقدمة، وليس ذلك مختصاً بحفاظ القرآن؛ بل كل من آمن بالقرآن فهو من هؤلاء، وقسمهم إلى ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق؛ بخلاف الآيات التي في الواقعة والمطففـين والانفطار، فإنه دخل فيها جميع الأمم المتقدمة كافرهم ومؤمنهم، وهذا التقسيم لأمة محمد ﷺ و «الظالم لنفسه» أصحاب الذنوب المصرون عليها، ومن تاب من ذنبه أي ذنب كان توبة صحيحة لم يخرج بذلك عن السابقين، و «المقتصد» المؤدي للفرائض المجتنب للمحارم. و «السابق للخيرات» هو المؤدي للفرائض والنوافل، كما في تلك الآيات، ومن تاب من ذنبه أي ذنب كان توبة صحيحة لم يخرج بذلك عن السابقين والمقتصدين كما في قوله تعالى: **﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين. الـذين ينفقون في السـراء والضراء والكاظمين الغيظَ، والعافين عن الناس، والله يحب المحسنين. والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم، ومن يغفر الذنوب إلا الله؟ ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون. أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم، وجنات**

---

(١) سورة فاطر الآيات ٣٢ ـ ٣٥.

تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين﴾[1] و«المقتصد» المؤدي للفرائض المجتنب للمحارم، و«السابق بالخيرات» هو المؤدي للفرائض والنوافل كما في تلك الآيات[2].

وقوله ﴿جنات عدن يدخلونها﴾[3] مما يستدل به أهل السنة على أنه لا يخلد في النار أحد من أهل التوحيد.

وأما دخول كثير من أهل الكبائر النار فهذا مما تواترت به السنن عن النبي ﷺ كما تواترت بخروجهم من النار وشفاعة نبينا محمد ﷺ في أهل الكبائر وإخراج من يخرج من النار بشفاعة نبينا ﷺ وشفاعة غيره. فمن قال: إن الكبائر مخلدون في النار وتأول الآية على أن السابقين هم الذين يدخلونها وأن المقتصد أو الظالم لنفسه لا يدخلها، كما تأوله من المعتزلة فهو مقابل بتأويل المرجئة الذين لا يقطعون بدخول أحد من أهل الكبائر النار، ويزعمون أن أهل الكبائر قد يدخل جميعهم الجنة من غير عذاب، وكلاهما مخالف للسنة المتواترة عن النبي ﷺ ولإجماع سلف الأمة وأئمتها.

---

(١) سورة آل عمران آية ١٣٣ ـ ١٣٦.

(٢) جاء في تفسير فتح القدير للشوكاني قوله: «قد اختلف السلف في تفسير السابق والمقتصد، فقال عكرمة وقتادة والضحاك: إن المقتصد المؤمن العاصي، والسابق التقي على الإطلاق، وبه قال الفراء. وقال مجاهد في تفسير الآية: ﴿فمنهم ظالم لنفسه﴾ أصحاب المشأمة ﴿ومنهم مقتصد﴾ أصحاب الميمنة ﴿ومنهم سابق بالخيرات﴾ السابقون من الناس كلهم. وقال المبرد: إن المقتصد هو الذي يعطي الدنيا حقها والآخرة حقها. وقال الحسن: الظالم الذي ترجح سيآته على حسناته، والمقتصد الذي استوت حسناته وسيآته، والسابق من رجحت حسناته على سيآته. وقال مقاتل: الظالم لنفسه أصحاب الكبائر من أهل التوحيد، والمقتصد الذي لم يصب كبيرة، والسابق الذي سبق إلى الأعمال الصالحة» نكتفي بهذه الأقوال لنوضح أن في معنى هذه العبارات خلاف بين العلماء حيث لم يرد في تفسيرها أثر إلا ما أورده الشوكاني أيضاً عن أبي الدرداء قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله ﴿ثم أورثنا الكتاب. .﴾ فأما الذين سبقوا فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب. وأما الذين اقتصدوا فأولئك يحاسبون حساباً يسيراً. وأما الذين ظلموا أنفسهم، فأولئك الذين يحبسون في طول المحشر، ثم هم الذين تلافاهم الله برحمته، فهم الذين يقولون ﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور﴾ إلى آخر الآية» قال البيهقي: إذا كثرت روايات في حديثه ظهر أن للحديث أصلاً أ هـ» (٣٥٢/٤).

(٣) سورة فاطر آية ٣٣.

وقد دل على فساد «الطائفتين» قول الله تعالى في آيتين من كتابه وهو قوله تعالى ﴿**إن الله لا يغفر ان يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾[1] فأخبر تعالى أنه لا يغفر الشرك وأخبر أنه يغفر ما دونه لمن يشاء، ولا يجوز أن يراد بذلك التائب كما يقوله من يقوله من المعتزلة لأن الشرك يغفره الله لمن تاب وما دون الشر يغفره الله ايضاً للتائب فلا تعلق بالمشيئة؛ ولهذا لما ذكر المغفرة للتائبين قال تعالى: ﴿**قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعاً، إنه هو الغفور الرحيم**﴾[2]. فهنا عمم المغفرة وأطلقها، فإن الله يغفر للعبد أي ذنب تاب منه، فمن تاب من الشرك غفر الله له، ومن تاب من الكبائر غفر الله له، وأي ذنب تاب العبد منه غفر الله له. ففي آية التوبة عمم وأطلق، وفي تلك الآية خصص وعلق، فخص الشرك بأنه لا يغفره، وعلق ما سواه على المشيئة. ومن الشرك التعطيل للخالق وهذا يدل على فساد قول من يجزم بالمغفرة لكل مذنب. ونبه بالشرك على ما هو أعظم منه كتعطيل الخالق، أو يجوز أن لا يعذب بذنب؛ فإنه لو كان كذلك لما ذكر أنه يغفر البعض دون البعض، ولو كان كل ظالم لنفسه مغفوراً له بلا توبة ولا حسنات ماحية لم يعلق ذلك بالمشيئة.

وقوله تعالى: ﴿**ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾[3] دليل على أنه يغفر البعض دون البعض، فبطل النفي والوقف العام.

فَصل
[التفاضل في ولاية الله للمتقين]

وإذا كان «أولياء الله عز وجل» هم المؤمنون المتقون. والناس يتفاضلون في الإيمان والتقوى، فهم متفاضلون في ولاية الله بحسب ذلك، كما أنهم لما كانوا متفاضلين في الكفر والنفاق كانوا متفاضلين في عداوة الله بحسب ذلك.

---

(١) سورة النساء آية ٤٨.

(٢) سورة الزمر آية ٥٣.

(٣) سورة النساء آية ٤٨.

وأصل الإيمان والتقوى: الإيمان برسل الله، وجماع ذلك: الإيمان بخاتم الرسل محمد ﷺ، فالإيمان به يتضمن الإيمان بجميع كتب الله ورسله، وأصل الكفر والنفاق هو الكفر بالرسل، وبما جاءوا به، فإن هذا الكفر الذي يستحق صاحبه العذاب في الآخرة؛ فإن الله تعالى أخبر في كتابه أنه لا يعذب أحداً إلا بعد بلوغ الرسالة. قال الله تعالى: ﴿**وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً**﴾ وقال تعالى ﴿**إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان، وآتينا داود زبوراً. ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل، ورسلا لم نقصصهم عليك، وكلم الله موسى تكليما. رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل**﴾ [1] وقال تعالى عن أهل النار ﴿**كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير؟ قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء ان انتم إلا في ضلال كبير**﴾ فأخبر أنه كلما ألقي في النار فوج أقروا بأنهم جاءهم النذير فكذبوه، فدل ذلك على أنه لا يلقي فيها فوج إلا من كذب النذير. وقال تعالى في خطابه لإبليس ﴿**لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين**﴾ فاخبر أنه يملؤها بابليس ومن اتبعه؛ فإذا ملئت بهم لم يدخلها غيرهم فعلم أنه لا يدخل النار إلا من تبع الشيطان، وهذا يدل على أنه لا يدخلها من لاذنب له فإنه ممن لم يتبع الشيطان ولم يكن مذنباً، وما تقدم يدل على أنه لا يدخلها إلا من قامت عليه الحجة بالرسل.

فَصل
[الإيمان بالرسل]

ومن الناس من يؤمن بالرسل ايماناً مجملا، وأما الإيمان المفصل فيكون قد بلغه كثير مما جاءت به الرسل ولم يبلغه بعض ذلك فيؤمن بما بلغه عن الرسل، وما لم يبلغه لم يعرفه ولو بلغه لآمن به؛ ولكن آمن بما جاءت به الرسل إيماناً مجملاً، فهذا إذا عمل بما علم أن الله أمره به مع إيمانه وتقواه فهو من أولياء الله تعالى، له من ولاية الله بحسب إيمانه وتقواه، وما لم تقم عليه الحجة فإن الله تعالى لم يكلفه

معرفته والإيمان المفصل به، فلا يعذبه على تركه؛ لكن يفوته من كمال ولاية الله بحسب ما فاته من ذلك، فمن علم بما جاء به الرسل وآمن به إيماناً مفصلاً وعمل به فهو أكمل إيماناً وولاية لله ممن لم يعلم ذلك مفصلاً ولم يعمل به؛ وكلاهما لله تعالى.

والجنة درجات متفاضلة تفاضلا عظيما، وأولياء الله المؤمنون المتقون في تلك الدرجات بحسب إيمانهم وتقواهم. قال تبارك وتعالى: **﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً. ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً. كلًّا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً. انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا﴾**[1].

فبين الله سبحانه وتعالى أنه يمد من يريد الدنيا ومن يريد الآخرة من عطائه وإن عطاءه ما كان محظوراً من بر ولا فاجر، ثم قال تعالى: **﴿انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا﴾**. فبين الله سبحانه أن أهل الآخرة يتفاضلون فيها أكثر مما يتفاضل الناس في الدنيا وأن درجاتها أكبر من درجات الدنيا وقد بين تفاضل أنبيائه عليهم السلام كتفاضل سائر عباده المؤمنين، فقال تعالى: **﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله، ورفع بعضهم درجات، وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس﴾**[2] وقال تعالى: **﴿ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبوراً﴾**[3].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، إحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت لكان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان» وفي

---

(١) سورة الإسراء الآيات ١٨ - ٢١.
(٢) سورة البقرة آية ٢٥٣.
(٣) سورة الإسراء آية ٥٥.

الصحيحين عن أبي هريرة وعمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر». وقد قال الله تعالى: ﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل، أولئك أعظم درجة من الذين انفقوا من بعد وقاتلوا، وكلاً وعد الله الحسنى﴾[1] وقال تعالى: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة، وكلا وعد الله الحسنى، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً. درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً﴾[2].

فَصل
[الولاية والإيمان]

وإذا كان العبد لا يكون ولياً لله إلا إذا كان مؤمناً تقياً لقوله تعالى: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾[3] وفي صحيح البخاري الحديث المشهور ـ وقد تقدم ـ يقول الله تبارك وتعالى فيه: «ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه» ولا يكون مؤمناً تقياً حتى يتقرب إلى الله بالفرائض فيكون من أهل اليمين، ثم بعد ذلك لا يزال يتقرب بالنوافل حتى يكون من السابقين المقربين، فمعلوم أن أحداً من الكفار والمنافقين لا يكون ولياً لله.

وكذلك من لايصح إيمانه وعباداته وإن قدر أنه لا إثم عليه مثل أطفال الكفار ومن لم تبلغه الدعوة ـ وإن قيل إنهم لا يعذبون حتى يرسل إليهم رسول ـ فلا يكونون من أولياء الله إلا إذا كانوا من المؤمنين المتقين؛ فمن لم يتقرب إلى الله لا يفعل الحسنات ولا يترك السيئات لم يكن من أولياء الله وكذلك المجانين والأطفال؛ فإن النبي ﷺ قال: «رفع القلم ثلاثة: عن المجنون

(١) سورة الحديد آية ١٠.

(٢) سورة النساء آية ٩٥.

(٣) سورة يونس آية ٦٢.

حتى يفيق. وعن الصبي حتى يحتلم. وعن النائم حتى يستيقظ». وهذا الحديث قد رواه أهل السنن من حديث علي وعائشة رضي الله عنهما. واتفق أهل المعرفة على تلقيه بالقبول. لكن الصبي المميز تصح عباداته ويثاب عليها عند جمهور العلماء. وأما المجنون الذي رفع عنه القلم فلا يصح شيء من عباداته باتفاق العلماء. ولا يصح منه إيمان ولا كفر ولا صلاة ولا غير ذلك من العبادات؛ بل لايصلح هو عند عامة العقلاء لأمور الدنيا كالتجارة والصناعة. فلا يصلح أن يكون بزازاً ولا عطاراً ولا حداداً ولا نجاراً ولا تصح عقوده باتفاق العلماء. فلا يصح بيعه ولا شراؤه ولا نكاحه ولا طلاقه ولا إقراره ولا شهادته. ولا غير ذلك من أقواله، بل أقواله كلها لغو لا يتعلق بها حكم شرعي، ولا ثواب ولا عقاب. بخلاف الصبي المميز فإن له أقوالاً معتبرة في مواضع بالنص والإجماع. وفي مواضع فيها نزاع.

وإذا كان المجنون لا يصح منه الإيمان ولا التقوى ولا التقرب إلى الله بالفرائض والنوافل، وامتنع أن يكون ولياً لله فلا يجوز لأحد أن يعتقد أنه ولي لله؛ لا سيما أن تكون حجته على ذلك إما مكاشفة سمعها منه،أو نوع من تصرف،مثل أن يراه قد أشار إلى واحد فمات أو صرع؛ فإنه قد علم أن الكفار والمنافقين - من المشركين وأهل الكتاب - لهم مكاشفات وتصرفات شيطانية كالكهان والسحرة وعباد المشركين وأهل الكتاب، فلا يجوز لأحد أن يستدل بمجرد ذلك على كون الشخص ولياً لله وإن لم يعلم منه ما يناقض ولاية الله، فكيف إذا علم منه ما يناقض ولاية الله؟! مثل أن يعلم أنه لا يعتقد وجوب اتباع النبي ﷺ باطناً وظاهراً؛ بل يعتقد أنه يتبع الشرع الظاهر دون الحقيقة الباطنة. أو يعتقد أن لأولياء الله طريقاً إلى الله غير طريق الأنبياء عليهم السلام. أو يقول: إن الأنبياء ضيقوا الطريق أو هم على قدوة العامة دون الخاصة ونحو ذلك مما يقوله بعض من يدعي الولاية فهؤلاء فيهم من الكفر ما يناقض الإيمان. فضلاً عن ولاية الله عز وجل. فمن احتج بما يصدر عن أحدهم من خرق عادة ولايتهم كان أضل من اليهود والنصارى.

فعلى هذا فمن أظهر الولاية وهو لا يؤدي الفرائض ولا يجتنب المحارم بل قد يأتي بما يناقض ذلك. لم يكن لأحد أن يقول هذا ولي لله، فإن هذا إن لم يكن مجنوناً؛ بل كان متولهاً من غير جنون أو كان يغيب عقله بالجنون تارة، ويفيق

أخرى وهو لا يقوم بالفرائض، بل يعتقد أنه لا يجب عليه اتباع الرسول ﷺ فهو كافر، وإن كان مجنوناً باطناً وظاهراً قد ارتفع عنه القلم؛ فهذا وإن لم يكن معاقباً عقوبة الكافرين فليس هو مستحقاً لما يستحقه أهل الإيمان والتقوى من كرامة الله عز وجل، فلا يجوز على التقديرين أن يعتقد فيه أحد أنه ولي لله، ولكن إن كان له حالة في إفاقته كان فيها مؤمناً بالله متقياً كان له من ولاية الله بحسب ذلك. وإن كان له في حال إفاقته فيه كفر أو نفاق أو كان كافراً أو منافقاً ثم طرأ عليه الجنون. فهذا فيه من الكفر والنفاق ما يعاقب عليه وجنونه لا يحبط عنه ما يحصل منه حال إفاقته من كفر أو نفاق.

فَصل
[الحال الظاهرة للأولياء]

وليس لأولياء الله شيء يتميزون به عن الناس في الظاهر من الأمور المباحات فلا يتميزون بلباس دون لباس إذا كان كلاهما مباحاً، ولا بحلق شعر أو تقصيره أو ظفره إذا كان مباحاً كما قيل: كم من صديق في قباء وكم من زنديق في عباء؛ بل يوجدون في جميع أصناف أمة محمد ﷺ إذا لم يكونوا من أهل البدع الظاهرة والفجور، فيوجدون في أهل القرآن وأهل العلم، ويوجدون في أهل الجهاد والسيف ويوجدون في التجار والصناع والزراع. وقد ذكر الله أصناف أمة محمد ﷺ في قوله تعالى: ﴿**إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك، والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم، فاقرؤوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى، وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله، وآخرون يقاتلون في سبيل الله، فاقرؤوا ما تيسر منه**﴾[1].

وكان السلف يسمون أهل الدين والعلم «القراء» فيدخل فيهم العلماء والنساك، ثم حدث بعد ذلك اسم «الصوفية والفقراء».

وصار أيضاً اسم «الفقراء» يعني أهل السلوك، وهذا عُرْف حادث، وقد

---

(١) سورة المزمل آية ٢٠.

تنازع الناس أيما أفضل مسمى «الصوفي» أو مسمى «الفقير»؟ ويتنازعون إيضاً أيما أفضل: الغني الشاكر أو الفقير الصابر؟[1]

ولفظ «الفقر» في الشرع يراد به الفقر من المال ويراد به فقر المخلوق إلى خالقه كما قال تعالى: **﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين﴾**[2] وقال تعالى: **﴿يا أيها الناس انتم الفقراء إلى الله﴾**[3]وقد مدح الله تعالى في القرآن صنفين من الفقراء: أهل الصدقات وأهل الفيى، فقال في الصنف الأول: **﴿للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا﴾**[4] وقال في الصنف الثاني وهم أفضل الصنفين **﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله، أولئك هم الصادقون﴾**[5].

وهذه صفة المهاجرين الذين هجروا السيئات وجاهدوا أعداء الله باطناً وظاهراً، كما قال النبي ﷺ «المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه، والمجاهد من جاهد نفسه في ذات الله»[6].

أما الحديث الذي يرويه بعضهم أنه قال في غزوة تبوك «**رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر**» فلا أصل له ولم يروه أحد من أهل المعرفة بأقوال النبي ﷺ وأفعاله، وجهاد الكفار من أعظم الأعمال؛ بل هو أفضل ما تطوع به الإنسان قال الله تعالى: **﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة، وكلا وعد الله الحسنى، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً﴾**[7] وقال تعالى: **﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد**

---

(١) مر الكلام حول هذه الأمور.
(٢) سورة التوبة آية ٦٠.
(٣) سورة فاطر آية ١٥.
(٤) سورة البقرة آية ٢٧٣.
(٥) سورة الحشر آية ٨.
(٦) مر تخريجه.
(٧) سورة النساء آية ٩٥.

الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر، وجاهد في سبيل الله، لا يستوون عند الله، والله لا يهدي القوم الظالمين. الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله، وأولئك هم الفائزون. يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان، وجنات لهم فيها نعيم مقيم، خالدين فيها أبداً، إن الله عنده أجر عظيم﴾(١).

وثبت في صحيح مسلم وغيره عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: كنت عند النبي ﷺ فقال رجل: ما أبالي ألا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج، وقال آخر: ما أبالي أن أعمل عملاً بعد لإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام، وقال علي بن ابي طالب الجهاد في سبيل الله أفضل مما ذكرتما، فقال عمر: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ ولكن إذا قضيت الصلاة سألته، فسأله فأنزل الله تعالى هذه الآية(٢).

وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله! أي الأعمال أفضل عند الله عز وجل؟ قال «الصلاة على وقتها» قلت ثم أي؟ قال: «بر الوالدين». قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله» قال: حدثني بهن رسول الله ﷺ ولو استزدته لزادني، وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه سئل أي الأعمال أفضل؟ قال: «إيمان بالله وجهاد في سبيله، قيل: ثم ماذا؟ قال حج مبرور».

وفي الصحيحين أن رجلاً قال له ﷺ يا رسول الله أخبرني بعمل يعدل الجهاد في سبيل الله قال: «لا تستطيعه أو لا تطيقه» قال فأخبرني به قال: «هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تصوم ولا تفطر وتقوم ولا تفتر»؟

---

(١) سورة التوبة آية ١٩.

(٢) أورد هذا السبب الواحدي في أسباب النزول، وأورد سبباً آخر وهو: «قال العباس بن عبد المطلب حين أسر يوم بدر: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد، لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقي الحاج ونفك العاني، فأنزل الله تعالى **﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد...﴾**. وقيل نزلت الآية في علي والعباس وطلحة بن شيبة «وذلك أنهم افتخروا، فقال طلحة: أنا صاحب البيت بيدي مفتاحه وإلى ثياب بيته. وقال العباس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها، وقال علي ما أدري ما تقولان، لقد صليت ستة أشهر قبل الناس وأنا صاحب الجهاد، فأنزل الله تعالى هذه الآية» (ص ١٤٣).

وفي السنن عن معاذ رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه وصاه لما بعثه إلى اليمن فقال: «يا معاذ! اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»، وقال: «يا معاذ! إني لأحبك فلا تدع أن تقول في دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، وقال له ـ وهو رديفه ـ يا معاذ: «أتدري ما حق الله على عباده» قلت الله ورسوله اعلم قال: «حقة عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً. أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «حقهم عليه ألا يعذبهم».

وقال إيضاً لمعاذ: «رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله»، وقال: «يا معاذ ألا أخبرك بأبواب البر؟ الصوم جنة، والصدقة تطفيء الخطيئة كما يطفيء الماء النار، وقيام الرجل في جوف الليل، ثم قرأ **﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون. فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾**[1] ثم قال: يا معاذ ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قلت بلى! فقال: أمسك عليك لسانك هذا فأخذ بلسانه، قال رسول الله وإنالمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم».

وتفسير هذا ما يثبت في الصحيحين عنه ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت» فالتكلم بالخير خير من السكوت عنه، والصمت عن الشر خير من التكلم به، فأما الصمت الدائم فبدعة منهي عنها، وكذلك الامتناع عن أكل الخبز واللحم وشرب الماء فذلك من البدع المذمومة أيضاً، كما ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ رأى رجلاً قائماً في الشمس فقال: «ما هذا» فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم في الشمس ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم، فقال النبي ﷺ: «مروه فليجلس وليستظل وليتكلم وليتم صومه».

وثبت في الصحيحين عن أنس أن رجالاً سألوا عن عبادة رسول الله ﷺ

---

(١) سورة السجدة آية ١٦.

فكأنهم تقالوها فقالوا وأينا مثل رسول الله ﷺ؟! ثم قال أحدهم: أما أنا فأصوم ولا أفطر، وقال الآخر: أما أنا فأقوم ولا أنام، وقال الآخر: أما أنا فلا آكل اللحم وقال الآخر:أما أنا فلا أتزوج النساء، فقال رسول الله ﷺ «ما بال رجال يقول أحدهم كذا وكذا؟! ولكني أصوم وأفطر وأقوم وأنام وآكل اللحم واتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني» أي سلك غيرها ظاناً أن غيرها خير منها، فمن كان كذلك فهو بريء من الله ورسوله، بل يجب على كل مسلم أن يعتقد أن خير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، كما ثبت عنه في الصحيح أنه كان يخطب بذلك كل يوم جمعة.

فَصْل
[خطأ الأولياء]

وليس من شرط ولي الله أن يكون معصوماً لا يغلط ولا يخطىء: بل يجوز أن يخفى عليه بعض علم الشريعة، ويجوز أن يشتبه عليه بعض أمور الدين، حتى يحسب بعض الأمور مما أمر الله به ومما نهى الله عنه ويجوز أن يظن في بعض الخوارق أنها من كرامات أولياء الله تعالى وتكون من الشيطان لبسها عليه لنقص درجته ولا يعرف أنها من الشيطان، وإن لم يخرج بذلك عن ولاية الله تعالى؛ فإن الله سبحانه وتعالى تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه، فقال تعالى: **﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله، وقالوا: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير. لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت، وعليها ما اكتسبت، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به، واعف عنا، واغفر لنا وارحمنا، أنت مولانا، فانصرنا على القوم الكافرين﴾**(١)

وقد ثبت في الصحيحين أن الله سبحانه استجاب هذا الدعاء وقال: قد

---

(١) آخر سورة البقرة.

فعلت، ففي صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال لما نزلت هذه الآية **﴿إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء، والله على كل شيء قدير﴾** قال: دخل قلوبهم منها شيء لم يدخلها قبل ذلك شيء أشد منه، فقال النبي «قولوا سمعنا وأطعنا وسلمنا» قال فألقى الله الإيمان في قلوبهم فأنزل الله تعالى **﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾** إلى قوله **﴿أو اخطأنا﴾** قال الله قد فعلت **﴿ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا﴾** قال: قد فعلت، **﴿ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾** قال قد فعلت[1]. وقد قال تعالى **﴿وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم﴾**.

وثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ من حديث أبي هريرة وعمرو بن العاص رضي الله عنهما مرفوعاً أنه قال «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر» فلم يؤثم المجتهد المخطىء؛ بل جعل له أجراً على اجتهاده، وجعل خطأه مغفوراً له، ولكن المجتهد المصيب له أجران فهو أفضل منه؛ ولهذا لما كان ولي الله يجوز أن يغلط لم يجب على الناس الإيمان بجميع ما يقوله من هو ولي لله لئلا يكون نبياً؛ بل ولا يجوز لولي الله أن يعتمد على ما يلقى إليه في قلبه إلا أن يكون موافقاً [للشرع] وعلى ما يقع له مما يراه إلهاماً ومحادثة وخطاباً من الحق؛ بل يجب عليه أن يعرض ذلك جميعه على ما جاء به محمد ﷺ فإن وافقه قبله وإن خالفه لم يقبله وإن لم يعلم أموافق هو أم مخالف؟ توقف فيه.

والناس في هذا الباب «ثلاثة أصناف» طرفان ووسط: فمنهم من إذا اعتقد في شخص أنه ولي لله وافقه في كل ما يظن أنه حدث به قلبه عن ربه، وسلم إليه جميع ما يفعله، ومنهم من إذا رآه قد قال أو فعل ما ليس بموافق للشرع أخرجه عن ولاية الله بالكلية وإن كان مجتهداً مخطئاً، وخيار الأمور أوساطها وهو أن لا يجعل معصوماً ولا مأثوماً إذا كان مجتهداً مخطئاً، فلا يتبع في كل ما يقوله، ولا يحكم عليه بالكفر والفسق مع اجتهاده.

والواجب على الناس اتباع ما بعث الله به رسوله، وأما إذا خالف قول بعض

---

(١) أنظر أيضاً ما أورده الواحدي في أسباب النزول حول آخر سورة البقرة ص ٥٥ ـ ٥٦.

الفقهاء، ووافق قوله آخرين لم يكن لأحد أن يلزمه بقول المخالف ويقـول هذا خالف الشرع.

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «قد كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي أحد فعمر منهم» وروى الترمذي وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «لو لم أبعث فيكم لبعث فيكم عمر» وفي حديث آخر«إن الله ضرب الحق على لسان عمر وقلبه» (وفيه) «لو كان نبي بعدي لكان عمر»، وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول ما كنا نبعد أن السكينة تنطق على لسان عمر. ثبت هذا عنه من رواية الشعبي. وقال ابن عمر: ما كان عمر يقول في شيء: إني لأراه كذا، إلا كان كما يقول. وعن قيس بن طارق قال كنا نتحدث أن عمر ينطق على لسانه ملك. وكان عمر يقول اقتربوا من أفوان المطيعين واسمعوا منهم ما يقولون فإنه تتجلى لهم أمور صادقة.

وهذه الأمور الصادقة التي أخبر بها عمر بن الخطاب رضي الله عنـه أنها تتجلى للمطيعين هي الأمور التي يكشفها الله عز وجل لهم. فقد ثبت أن لأولياء الله مخاطبات ومكاشفات: فأفضل هؤلاء في هذه الأمة بعد أبي بكر عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، فإن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر.

وقد ثبت في الصحيح تعيين عمر بأنه محدث في هذه الأمة فأي محدث ومخاطب فرض في أمة محمد ﷺ فعمر أفضل منه، ومع هذا فكان عمر رضي الله عنه يفعل ما هو الواجب عليه فيعرض ما يقع له على ما جاء به الرسول ﷺ، فتارة يوافقه فيكـون ذلك من فضائل عمر كمـا نزل القرآن بموافقته غير مرة، وتـارة يخـالفه فيرجع عمر عن ذلك كما رجع يوم الحديبية لما كان قد رأى محاربة المشركين، والحديث معروف في البخـاري وغيره؛ فـإن النبي ﷺ قد اعتمـر سنة ست من الهجرة ومعه المسلمون نحو ألف وأربعمائة وهم الذين بايعوه تحت الشجرة، وكان قد صالح المشركين بعد مراجعة جرت بينه وبينهم على أن يرجع في ذلك العام ويعتمر من العام القابل، وشرط لهم شروطاً فيها نوع غضاضة على المسلمين في الظاهر[1]. فشق ذلك على كثير من المسلمين وكان الله ورسوله اعلم واحكم بما

(١) هذا ما يسمى بصلح الحديبية، وكانت شروطه كما يلي: =

في ذلك من المصلحة. وكان عمر فيمن كره ذلك حتى قال للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم: يا رسول الله! ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى» قال: أفليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: «بلى» قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟! فقال له النبي ﷺ «إني رسول الله وهو ناصري ولست أعصيه» ثم قال: أفلم تكن تحدثنا أنا نأتي البيت ونطوف به؟ قال: «بلى» قال: أقلت لك إنك تأتيه العام؟» قال: لا ، قال: «إنك آتيه ومطوف به» فذهب عمر إلى أبي بكر رضي الله عنهما فقال له مثل ما قال النبي ﷺ، ورد عليه أبو بكر مثل جواب النبي ﷺ، ولم يكن أبو بكر يسمع جواب النبي ﷺ، فكان أبو بكر رضي الله عنه أكمل موافقة لله وللنبي ﷺ من عمر، وعمر رضي الله عنه رجع عن ذلك، وقال: فعلت لذلك أعمالاً.

وكذلك لما مات النبي ﷺ أنكر عمر موته أولاً، فلما قال أبو بكر: إنه مات رجع عمر عن ذلك.

وكذلك في «قتال مانعي الزكاة» قال عمر لأبي بكر: كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها»[1] فقال له أبو بكر رضي الله عنه: ألم يقل: «إلا بحقها»؟! فإن الزكاة من حقها، والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها. قال عمر:

= ١- أن يعود المسلمون للعمرة في العام القابل.

٢- أن يرد المسلم الملكي الذي التحق برسول الله ﷺ إلى المشركين.

٣- يعاهد الفريقان على وضع الحرب عشر سنين، ويكف بعضهم عن بعض.

٤- إذا جاء أحد ممن مع النبي ﷺ إلى قريش لم يردوه.

٥- أنه من أحب أن يدخل في عقد محمد ﷺ وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.

هذه أهم بنود صلح الحديبية.

(١) أنظر هذا الحديث في البخاري في الإيمان ١٧ والزكاة ١ والاعتصام ٢، ومسلم في الإيمان ٣٢، وأبو داود في الزكاة ١ والجهاد ٩٥، والترمذي في الإيمان ١ و٢، والنسائي في الزكاة ٣ والإيمان ١٥، وابن ماجة في المقدمة ٩ والفتن ١، وأحمد ١/١١، ٧٨، و٢/٣١٤، ٣٤٥، و٣/١٩٩، ٢٢٤، و٤/٩، و٥/٢٤٦.

فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعلمت أنه الحق.

ولهذا نظائر تبيين تقدم أبي بكر على عمر، مع أن عمر رضي الله عنه محدث؛ فإن مرتبة الصديق فوق مرتبة المحدث، لأن الصديق يتلقى عن الرسول المعصوم كل ما يقوله ويفعله، والمحدث يأخذ عن قلبه أشياء، وقلبه ليس بمعصوم فيحتاج أن يعرضه على ما جاء به النبي ﷺ؛ ولهذا كان عمر رضي الله عنه يشاور الصحابة رضي الله عنهم ويناظرهم ويرجع إليهم في بعض الأمور، وينازعونه في أشياء فيحتج عليهم ويحتجون عليه بالكتاب والسنة، ويقررهم على منازعته، ولا يقول لهم: أنا محدث ملهم مخاطب فينبغي لكم أن تقبلوا مني ولا تعارضوني، فأي أحد ادعى أو ادعى له أصحابه أنه ولي لله وأنه مخاطب يجب على اتباعه أن يقبلوا منه كل ما يقوله ولا يعارضوه ويسلموا له حاله من غير اعتبار الكتاب والسنة فهو وهم مخطئون، ومثل هذا من أضل الناس، فعمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو أمير المؤمنين، وكان المسلمون ينازعونه فيما يقوله، وهو وهم على الكتاب والسنة، وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ.

وهذا من الفروق بين الأنبياء وغيرهم، فإن الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه يجب لهم الإيمان بجميع ما يخبرون به عن الله عزوجل وتجب طاعتهم فيما يأمرون به؛ بخلاف الأولياء فإنهم لا تجب طاعتهم في كل ما يأمرون به ولا الإيمان بجميع ما يخبرون به؛ بل يعرض أمرهم وخبرهم على الكتاب والسنة، فما وافق الكتاب والسنة وجب قبوله، وما خالف الكتاب والسنة كان مردوداً، وإن كان صاحبه من أولياء الله، وكان مجتهداً معذوراً فيما قاله، له أجر على اجتهاده. لكنه إذا خالف الكتاب والسنة كان مخطئاً، وكان من الخطأ المغفور إذا كان صاحبه قد اتقى الله ما استطاع؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿**فاتقوا الله ما استطعتم**﴾[1] وهذا تفسير قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته**﴾[2] قال ابن مسعود وغيره: حق تقاته أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى؛ وأن يشكر فلا يكفر،

---

(١) سورة التغابن آية ١٦.

(٢) سورة آل عمران آية ١٠٢.

أي بحسب استطاعتكم فإن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها، كما قال تعالى: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، لها ما كسبت، وعليها ما اكتسبت﴾[1]، وقال تعالى: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفساً إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾[2] وقال تعالى: ﴿أوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها﴾[3].

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى الإيمان بما جاءت به الأنبياء في غير موضع كقوله تعالى: ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى، وما أوتي النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم، ونحن له مسلمون﴾[4] وقال تعالى: ﴿الم. ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين. الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون. أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾[5].

وهذا الذي ذكرته من أن أولياء الله يجب عليهم الاعتصام بالكتاب والسنة، وأنه ليس فيهم معصوم يسوغ له أو لغيره اتباع ما يقع في قلبه من غير اعتبار بالكتاب والسنة هو مما اتفق عليه أولياء الله عز وجل، من خالف في هذا فليس من أولياء الله سبحانه الذين أمر الله باتباعهم؛ بل إما أن يكون كافراً، وإما أن يكون مفرطاً في الجهل.

وهذا كثير في كلام المشايخ كقول الشيخ أبي سليمان الداراني: إنه ليقع في قلبي النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين: الكتاب والسنة.

وقال أبو القاسم الجنيد رحمة الله عليه: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يصلح له أن يتكلم في علمنا، أو قال: لا يقتدى به. وقال أبو عثمان النيسابوري من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق

---

(١) سورة البقرة آية ٢٨٦.

(٢) سورة الأعراف آية ٤٢.

(٣) سورة الأنعام آية ١٥٢.

(٤) سورة البقرة آية ١٣٦.

(٥) أول سورة البقرة.

بالحكمة، ومن أمر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة ؛ لأن الله تعالى يقول في كلامه القديم ﴿**وإن تطيعوه تهتدوا**﴾[1] وقال أبو عمرو بن نجيد: كل وُجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل.

وكثير من الناس يغلط في هذا الموضع فيظن في شخص أنه ولي لله، ويظن أن ولي الله يقبل منه كل ما يقوله ويسلم إليه كل ما يقوله ويسلم إليه كل ما يفعله وإن خالف الكتاب والسنة فيوافق ذلك الشخص له، ويخالف ما بعث الله به رسوله الذي فرض الله على جميع الخلق تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، وجعله الفارق بين أوليائه وأعدائه، وبين أهل الجنة وأهل النار، وبين السعداء والأشقياء، فمن اتبعه كان من أولياء الله المتقين، وجنده المفلحين، وعباده الصالحين؛ ومن لم يتبعه كان من أعداء الله الخاسرين المجرمين، فتجره مخالفة الرسول وموافقة ذلك الشخص أولاً إلى البدعة والضلال، وآخراً إلى الكفر والنفاق، ويكون له نصيب من قوله تعالى: ﴿**ويوم يعض الظالم على يديه، يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً. يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً. لقد اضلني عن الذكر بعد إذ جاءني، وكان الشيطان للإنسان خذولاً**﴾ وقوله تعالى: ﴿**يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا. وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا. ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً**﴾[2].

وهؤلاء مشابهون للنصارى الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون**﴾[3] وفي المسند وصححه الترمذي عن عدي ابن حاتم في تفسيره هذه الآية لما سأل النبي ﷺ عنها فقال: ما عبدوهم؛ فقال النبي ﷺ «أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم، وكانت هذه عبادتهم إياهم»، ولهذا قيل في مثل هؤلاء إنما حرموا الوصول بتضييع الأصول،

---

(١) سورة النور آية ٥٤.

(٢) سورة الفرقان الآيات ٢٧ ـ ٢٩.

(٣) سورة الأحزاب الآيات ٦٦ ـ ٦٨.

(٤) سورة التوبة آية ٣١.

فإن أصل الأصول تحقيق الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ، فلا بد من الإيمان بالله ورسوله وبما جاء به الرسول ﷺ، فلا بد من الإيمان بأن محمداً رسول الله ﷺ إلى جميع الخلق إنسهم وجنهم، وعربهم وعجمهم، علمائهم وعبادهم ملوكهم وسوقتهم، وإنه لا طريق إلى الله عزوجل لأحد من الخلق إلا بمتابعته باطناً وظاهراً، حتى لو أدركه موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء لوجب عليهم اتباعه كما قال تعالى: **﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه، قال: ءأقررتم واخذتم على ذلكم إصري قالوا: أقررنا، قال: فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين، فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾**(1).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه، وقد قال تعالى: **﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت، وقد أمروا أن يكفروا به، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً. وإذا قيل لهم: تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً. فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاؤوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً. أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم؛ فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً. وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع باذن الله، ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً. فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾**(2).

وكل من خالف شيئاً مما جاء به الرسول مقلداً في ذلك لمن يظن أنه ولي الله، فإنه بنى أمره على أنه ولي لله؛ وإن ولي الله لا يخالف في شيء ولو كان هذا الرجل من أكبر أولياء الله كأكابر الصحابة والتابعين لهم بإحسان لم يقبل منه ما خالف الكتاب والسنة؛ فكيف إذا لم يكن كذلك؟! وتجد كثيراً من هؤلاء عمدتهم

---

(1) سورة آل عمران آية ٨١.

(2) سورة النساء الآيات ٦٠ ـ ٦٥.

في اعتقاد كونه ولياً لله أنه قد صدر عنه مكاشفة في بعض الأمور أو بعض التصرفات الخارقة للعادة مثل أن يشير إلى شخص فيموت؛ أو يطير في الهواء إلى مكة أو غيرها أو يمشي على الماء أحياناً؛ أو يملأ إبريقاً من الهواء؛ أو ينفق بعض الأوقات من الغيب أو أن يختفي أحياناً عن أعين الناس؛ أو أن بعض الناس استغاث به وهو غائب أو ميت فرآه قد جاءه فقضى حاجته؛ أو يخبر الناس بما سرق لهم؛ أو بحال غائب لهم أو مريض أو نحو ذلك من الأمور؛ وليس في شيء من هذه الأمور ما يدل على أن صاحبها ولي لله؛ بل قد اتفق أولياء الله على أن الرجل لو طار في الهواء أو مشى على الماء لم يغتر به حتى ينظر متابعته لرسول الله ﷺ وموافقته لأمره ونهيه.

وكرامات أولياء الله تعالى أعظم من هذه الأمور؛ وهذه الأمور الخارقة للعادة وإن كان قد يكون صاحبها ولياً لله فقد يكون عدواً لله؛ فإن هذه الخوارق تكون لكثير من الكفار والمشركين وأهل الكتاب والمنافقين، وتكون لأهل البدع، وتكون من الشياطين، فلا يجوز أن يظن أن كل من كان له شيء من هذه الأمور إنه ولي لله؛ بل يعتبر أولياء الله بصفاتهم وأفعالهم وأحوالهم التي دل عليها الكتاب والسنة ويعرفون بنور الإيمان والقرآن وبحقائق الإيمان الباطنة وشرائع الإسلام الظاهرة.

مثال ذلك أن هذه الأمور المذكورة وأمثالها قد توجد في أشخاص ويكون أحدهم لا يتوضأ؛ ولا يصلي الصلوات المكتوبة؛ بل يكون ملابساً للنجاسات معاشراً للكلاب؛ يأوي إلى الحمامات والقمامين والمقابر والمزابل؛ رائحته خبيثة لا يتطهر الطهارة الشرعية؛ ولا يتنظف؛ وقد قال النبي ﷺ: «لا تدخل الملائكة بيتاً فيه جنب ولا كلب»[1] وقال عن هذه الأخلية: إن هذه الحشوش محتضرة»[2] أي

(١) أنظر البخاري في بدء الخلق ٧ و ١٧ والمغازي ١٢ واللباس ٨٨ و ٩٤، ومسلم في اللباس ٨١ و ٨٢ و ٨٣ و ٨٤، وأبو داود في الطهارة ٨٩ واللباس ٤٥، والترمذي في الأدب ٤٤، والنسائي في الطهارة ١٦٧ والصيد ٩ و ١١، وابن ماجة في اللباس ٤٤ ولفظه فيه: عن عائشة قالت: واعد رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام، في ساعة يأتيه منيها، فراث عليه. فخرج النبي ﷺ فإذا جبريل قائم على الباب. فقال «ما منعك أن تدخل؟» قال إن في البيت كلباً. وإنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة (١٢٠٤/٢).

(٢) الحديث أخرجه أبو داود في الطهارة ٣، وابن ماجة في الطهارة ٩، وأحمد ٣٦٩/٤.

يحضرها الشيطان وقال: «من أكل من هاتين الشجرتين الخبيثتين فلا يقربن مسجدنا؛ فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم»[1]

وقال «إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً»[2] وقال: «إن الله نظيف يحب النظافة»[3] وقال: «خمس من الفواسق يقتلن في الحل والحرم: الحية والفأرة والغراب والحدأة والكلب العقور»[4] وفي رواية «الحية والعقرب». وأمر صلوات الله وسلامه عليه بقتل الكلاب وقال: «من اقتنى كلباً لا يغني عنه زرعاً ولا ضرعاً نقص من عمله كل يوم قيراط»[5].

وقال تعالى: **﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة؛ والذين هم بآياتنا يؤمنون. الذين يتبعون الرسول النبي الأمي؛ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل؛ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر؛ ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم؛ فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه اولئك هم المفلحون﴾**[6].

فإذا كان الشخص مباشراً للنجاسات والخبائث التي يحبها الشيطان أو يأوي إلى الحمامات والحشوش التي تحضرها الشياطين، أو يأكل الحيات والعقارب

---

(١) أنظر بألفاظ أخرى مسلم في المساجد وفيه «... ثم إنكم أيها الناس تأكلون شجرتين لا أراهما إلا خبيثتين، هذا البصل والثوم. لقد رأيت رسول الله ﷺ إذا وجد ريحهما من الرجل في المسجد، أمر به فأخرج إلى البقيع، فمن أكلهما فليمتهما طبخاً» (١/٣٩٦) وانظر النسائي في المساجد ١٧.

(٢) أنظر مسلم في الزكاة ٦٥، والترمذي في تفسير سورة البقرة ٣٦ والأدب ٤١، والدارمي في الرقاق ٩، وأحمد ٢/٣٢٨.

(٣) أنظر الترمذي في الأدب ٤١.

(٤) أخرجه مسلم في الحج ٦٧ و٦٨ و٦٩، والنسائي في المناسك ١١٣ ـ ١٤ و١١٨ ـ ١١٩، وابن ماجة في المناسك ٩١، وأحمد ٦/٣٣، ٨٧، ٩٧، ١٦٤.

(٥) أخرجه البخاري في الحرث ٣ وبدء الخلق ١٧ والذبائح ٦، ومسلم في المساقاة ٥٠ ـ ٥٧، والترمذي في الصيد ١٧، والنسائي في الصيد ١٢ ـ ١٤، وابن ماجة في الصيد ٢، والدارمي في الصيد ٢، والموطأ في الاستئذان ١٢ ـ ١٣، وأحمد ٢/٤، ٨، ٣٧، ٤٧، ٦٠، و٥/٢١٩، ٢٢٠.

(٦) سورة الأعراف آية ١٥٦ ـ ١٥٧.

والزنابير؛ وإذ أن[1] الكلاب التي هي خبائث وفواسق، أو يشرب البول ونحوه من النجاسات التي يحبها الشيطان، أو يدعو غير الله فيستغيث بالمخلوقات ويتوجه إليها، أو يسجد إلى ناحية شيخه، ولا يخلص الدين لرب العالمين، أو يلابس الكلاب أو النيران أو يأوي إلى المزابل والمواضع النجسة، أو يأوي إلى المقابر؛ ولا سيما إلى مقابر الكفار من اليهود والنصارى أو المشركين، أو يكره سماع القرآن وينفر عنه ويقدم عليه سماع الأغاني والأشعار، ويؤثر سماع مزامير الشيطان على سماع كلام الرحمن، فهذه علامات أولياء الشيطان لا علامات أولياء الرحمن.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: لا يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن، فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله، وإن كان يبغض القرآن فهو يبغض الله ورسوله، وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله عز وجل؛ وقال ابن مسعود؛ الذكر ينبت الإيمان في القلب كما ينبت الماء البقل، والغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل.

وإن كان الرجل خبيراً بحقائق الإيمان الباطنة فارقاً بين الأحوال الرحمانية والأحوال الشيطانية، فيكون قد قذف الله في قلبه من نوره كما قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته، ويجعل لكم نوراً تمشون به، ويغفر لكم**﴾ [2] وقال تعالى: ﴿**وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا**﴾[3] فهذا من المؤمنين الذين جاء فيهم الحديث الذي رواه الترمذي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «اتقوا فراسة المؤمن؛ فإنه ينظر بنور الله» قال الترمذي حديث حسن. وقد تقدم الحديث الصحيح الذي في البخاري وغيره قال فيه: «لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه

(١) ربما أراد: «ويؤوي»، أو ربما هناك كلام ناقص بعد قوله: «وفواسق».
(٢) سورة الحديد آية ٢٨.
(٣) سورة الشورى آية ٥٢.

الـذي يسمع بـه، وبصره الـذي يبصر بـه، ويده التي يبـطش بها، ورجله التي يمشي بهـا، فبي يسمع، وبي يبصـر، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سـألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه».

فإذا كان العبد من هؤلاء فرق بين حال أولياء الرحمن وأولياء الشيطان كما يفرق الصيرفي بين الدرهم الجيد والدرهم الزيف، وكما يفرق من يعرف الخيل بين الفرس الجيد والفرس الرديء، وكما يفرق من يعرف الفروسية بين الشجاع والجبان، وكما أنه يجب الفرق بين النبي الصادق وبين المتنبىء الكذاب، فيفرق بين محمد الصادق الأمين رسول رب العالمين وموسى والمسيح وغيرهم، وبين مسيلمة الكذاب؛ والأسود العنسي، وطليحة الأسدي، والحارث الدمشقي؛ وباباه الـرومي؛ وغيرهم من الكـذابين؛ وكذلـك يفرق بين أوليـاء الله المتقين وأولياء الشيطان الضالين.

فَصْل
[الشرعة والمنهاج]

و «الحقيقة» حقيقة الدين: دين رب العالمين. هي ما اتفق عليها الأنبيـاء والمرسلون؛ وإن كان لكل منهم شرعة ومنهاج. فـ «الشرعة» هي الشريعة قال الله تعالى: **﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً﴾**[1] وقال تعالى: **﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها؛ ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون؛ إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً. وإن الظـالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين﴾**.

و «المنهـاج» هو الـطريق قال تعـالى: **﴿وأن لو استقـاموا على الـطريقـة لاسقيناهم ماء غدقاً لنفتنهم فيه. ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعداً﴾**[3]

---

(١) سورة المائدة آية ٤٨.

(٢) سورة الجاثية آية ١٨.

(٣) سورة الجن آية ١٦ ـ ١٧.

فالشرعة بمنزلة الشريعة للنهر، والمنهاج هو الطريق الذي سلك فيه والغاية المقصودة هي حقيقة الدين، وهي عبادة الله وحده لا شريك له وهي حقيقة دين الإسلام، وهو أن يستسلم العبد لله رب العالمين، لا يستسلم لغيره، فمن استسلم له ولغيره كان مشركاً، والله **﴿لا يغفر أن يشرك به﴾**[(١)] ومن لم يستسلم لله بل استكبر عن عبادته كان ممن قال الله فيه: **﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾**[(٢)].

ودين الإسلام هو دين الأولين والآخرين من النبيين والمرسلين وقوله تعالى: **﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾**[(٣)] عام في كل زمان ومكان.

فنوح وإبراهيم ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى والحواريون كلهم دينهم الإسلام الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له، قال الله تعالى عن نوح: **﴿يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت، فأجمعوا أمركم﴾**[(٤)] إلى قوله: **﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾**[(٥)] وقال تعالى: **﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا، وإنه في الآخرة لمن الصالحين. إذ قال له ربه أسلم، قال أسلمت لرب العالمين، ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب، يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾**[(٦)] وقال تعالى: **﴿وقال موسى لقومه يا قوم: إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾**[(٧)] وقال السحرة: **﴿ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين﴾**[(٨)] وقال يوسف عليه السلام: **﴿توفني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾**[(٩)].

فدين الأنبياء واحد وإن تنوعت شرائعهم، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ قال «إنا معشر الأنبياء ديننا واحد» قال تعالى: **﴿شرع لكم من الدين ما وصى به**

---

(١) سورة النساء آية ٤٨.

(٢) سورة غافر آية ٦٠.

(٣) سورة آل عمران آية ٨٥.

(٤) سورة يونس آية ٧١.

(٥) سورة يونس آية ٧٢.

(٦) سورة البقرة آية ١٣٠ ـ ١٣١.

(٧) سورة يونس آية ٨٤.

(٨) سورة الأعراف آية ١٢٦.

(٩) سورة يوسف آية ١٠١.

نوحاً والذي أوحينا إليك، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه﴾[1] وقال تعالى: **﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم. وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون. فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون﴾**[2].

فَصْل
[الأنبياء أفضل من الأولياء]

وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أولياء الله تعالى على أن الأنبياء أفضل من الأولياء الذين ليسوا بأنبياء، وقد رتب الله عباده السعداء المنعم عليهم «أربع مراتب» فقال تعالى: **﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾**[3].

وفي الحديث: «ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد بعد النبيين والمرسلين أفضل من أبي بكر» وأفضل الأمم أمة محمد ﷺ. قال تعالى: **﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾**[4] وقال تعالى: **﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾**[5] وقال النبي ﷺ في الحديث الذي في المسند «أنتم توفون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله».

وأفضل امة محمد ﷺ القرن الأول.

وقد ثبت عن النبي ﷺ من غير وجه أنه قال: «خير القرون القرن الذي بعثت فيه، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» وهذا ثابت في الصحيحين من غير وجه.

وفي الصحيحين أيضاً عنه ﷺ أنه قال: «لاتسبوا أصحابي، فو الذي نفسي

---

(١) سورة الشورى آية ١٣.
(٢) سورة المؤمنون آية ٥٣.
(٣) سورة النساء آية ١٩.
(٤) سورة آل عمران آية ١١٠.
(٥) سورة فاطر آية ٣٢.

بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه».

والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار أفضل من سائر الصحابة قال تعالى: ﴿ **لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلاً وعد الله الحسنى**﴾(1) وقال تعالى: ﴿**والسابقون الأولون من المهاجرين والانصار، والذين اتبعوهم باحسان، رضي الله عنهم ورضوا عنه**﴾(2) والسابقون الأولون الذين انفقوا من قبل الفتح وقاتلوا، والمراد بالفتح صلح الحديبية فإنه كان أول فتح مكة، وفيه أنزل الله تعالى ﴿**إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً. ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر**﴾(3) فقالوا يا رسول الله! أو فتح هو؟! قال: نعم.

وأفضل السابقين الأولين «الخلفاء الأربعة» وأفضلهم أبو بكر ثم عمر، وهذا هو المعروف عن الصحابة والتابعين لهم باحسان وأئمة الأمة وجماهيرها، وقد دلت على ذلك دلائل بسطناها في «منهاج أهل السنة النبوية، في نقض كلام أهل الشيعة والقدرية»(4).

وبالجملة اتفقت طوائف السنة والشيعة على أن أفضل هذه الأمة بعد نبيها واحد من الخلفاء ولا يكون من بعد الصحابة أفضل من الصحابة، وأفضل أولياء الله تعالى أعظمهم معرفة بما جاء به الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم واتباعاً له كالصحابة الذين هم أكمل الأمة في معرفة دينه واتباعه، وأبو بكر الصديق أكمل معرفة بما جاء به وعملاً به، فهو أفضل أولياء الله إذ كانت أمة محمد ﷺ أفضل الأمم، وأفضلها أصحاب محمد ﷺ؛ وأفضلهم أبو بكر رضي الله عنه.

وقد ظن طائفة غالطة أن «خاتم الأولياء» أفضل الأولياء قياساً على خاتم الأنبياء، ولم يتكلم أحد من المشايخ المتقدمين بخاتم الأولياء إلا محمد بن علي

---

(1) سورة الحديد آية ١٠.

(2) سورة التوبة آية ١٠٠.

(3) أول سورة الفتح.

(4) وهو كتاب مطبوع معروف.

الحكيم الترمذي[1]، فإنه صنف مصنفاً غلط فيه في مواضع، ثم صار طائفة من المتأخرين يزعم كل واحد منهم أنه خاتم الأولياء، ومنهم من يدعي أن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء من جهة العلم بالله، وأن الأنبياء يستفيدون العلم بالله من جهته كما يزعم ذلك ابن عربي صاحب «كتاب الفتوحات المكية» و «كتاب الفصوص» فخالف الشرع والعقل مع مخالفة جميع أنبياء الله تعالى وأوليائه كما يقال لمن قال: «فخر عليهم السقف من تحتهم» لا عقل ولا قرآن.

ذلك أن الأنبياء أفضل في زمان من أولياء هذه الأمة، والأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام أفضل من الأولياء فكيف الأنبياء كلهم؟ والأولياء إنما يستفيدون معرفة الله ممن يأتي بعدهم ويدعي أنه خاتم الأولياء؟! وليس آخر الأولياء أفضلهم، كما أن آخر الأنبياء أفضلهم؛ فإن فضل محمد ﷺ ثبت بالنصوص الدالة على ذلك، كقوله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»[2]. وقوله: «آتى باب الجنة فأستفتح فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول محمد، فيقول بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك»[3]

و «ليلة المعراج» رفع الله درجته فوق الأنبياء كلهم فكان أحقهم بقوله تعالى: **﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض، منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات﴾**[4] إلى غير ذلك من الدلائل، كل منهم يأتيه الوحي من الله، لا سيما محمد ﷺ لم يكن في نبوته محتاجاً إلى غيره، فلم تحتج شريعته إلى سابق ولا إلى لاحق؛ بخلاف المسيح أحالهم في أكثر الشريعة على التوراة، وجاء المسيح فكملها؛ ولهذا كان النصارى محتاجين إلى النبوات المتقدمة على المسيح:

---

(١) أبو عبد الله، محدث صوفي، سمع بخراسان والعراق، وقدم نيسابور وحدث بها، من تصانيفه: الأكياس والمغترين (ربما هو الكتاب الذي أشار إليه المصنف) رياضة النفس، الكسب، وكلها في التصوف (انظر ترجمته في طبقات الشافعية للسبكي ١٩٧/٢، لسان الميزان ٣٠٨/٥، وكشف الظنون ٩، ١٠، ٧٠٠، ١١٠٤ وغيرها).

(٢) أنظر سنن الترمذي تفسير سورة ١٧، ١٨، والمناقب ١، وسنن ابن ماجة في الزهد ٣٧، ومسند أحمد ٢٨١/١، ٢٩٥، و٢/٣، ١٤٤، و١٣٧/٥، ١٣٨، ٣٩٣.

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان ٣٣٣، وأحمد ١٣٦/٣.

(٤) سورة البقرة آية ٢٥٣.

كالتوراة والزبور، وتمام الأربع وعشرين نبوة، وكان الأمم قبلنا محتاجين إلى محدثين؛ بخلاف أمة محمد ﷺ فإن الله أغناهم به فلم يحتاجوا معه إلى نبي ولا إلى محدث؛ بل جمع له من الفضائل والمعارف والأعمال الصالحة ما فرقه في غيره من الأنبياء؛ فكان ما فضله الله به من الله بما أنزله إليه وأرسله إليه لا بتوسط بشر.

وهذا بخلاف «الأولياء» فإن كل من بلغه رسالة محمد ﷺ لا يكون ولياً لله إلا باتباع محمد ﷺ، وكل ما حصل له من الهدى ودين الحق هو بتوسط محمد ﷺ، وكذلك من بلغه رسالة رسول إليه لا يكون ولياً لله إلا إذا اتبع ذلك الرسول الذي أرسل إليه.

ومن ادعى أن من الأولياء الذين بلغتهم رسالة محمد ﷺ من له طريق إلى الله لا يحتاج فيه إلى محمد فهذا كافر ملحد، وإذا قال: أنا محتاج إلى محمد في علم الظاهر دون علم الباطن، أو في علم الشريعة دون علم الحقيقة؛ فهو شر من اليهود والنصارى الذين قالوا: إن محمداً رسول إلى الأميين دون أهل الكتاب. فإن أولئك آمنوا ببعض وكفروا ببعض فكانوا كفاراً بذلك، وكذلك هذا الذي يقول إن محمداً بعث بعلم الظاهر دون علم الباطن آمن ببعض ما جاء به وكفر ببعض فهو كافر، وهو أكفر من أولئك؛ لأن علم الباطن الذي هو علم إيمان القلوب ومعارفها وأحوالها هو علم بحقائق الإيمان الباطنة، وهذا أشرف من العلم بمجرد أعمال الإسلام الظاهرة.

فإذا ادعى المدعي أن محمداً ﷺ إنما علم هذه الأمور الظاهرة دون حقائق الإيمان؛ وإنه لا يأخذ هذه الحقائق عن الكتاب والسنة، فقد ادعى أن بعض الذي آمن به مما جاء به الرسول دون البعض الآخر، وهذا شر ممن يقول: أومن ببعض، وأكفر ببعض، ولا يدعي أن هذا البعض الذي آمن به أدني القسمين.

وهؤلاء الملاحدة يدعون أن «الولاية» أفضل من «النبوة» ويلبسون على الناس فيقولون: ولايته أفضل من نبوته وينشدون:

مقام النبوة في برزخ   فويق الرسول ودون الولي

ويقولون نحن شاركناه في ولايته التي هي أعظم من رسالته، وهذا من

أعظم ضلالهم، فإن ولاية محمد لم يماثله فيها أحد لا إبراهيم ولا موسى، فضلاً عن أن يماثله هؤلاء الملحدون.

وكل رسول نبي ولي، فالرسول نبي ولي. ورسالته متضمنه لنبوته، ونبوته متضمنة لولايته، وإذا قدروا مجرد أنباء الله إياه بدون ولايته لله فهذا تقدير ممتنع، فإنه حال إنبائه إياه ممتنع أن يكون إلا ولياً لله، ولا تكون مجردة عن ولايته، ولو قدرت مجردة لم يكن أحد مماثلاً للرسول في ولايته.

وهؤلاء قد يقولون ـ كما يقول صاحب «الفصوص» ابن عربي ـ: إنهم يأخذون من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحي به إلى الرسول؛ وذلك إنهم اعتقدوا «عقيدة المتفلسفة» ثم أخرجوها في قالب «المكاشفة» وذلك أن المتفلسفة الذين قالوا إن الأفلاك قديمة أزلية لها علة تتشبه بها، كما يقوله أرسطو وأتباعه؛ أو لها موجب بذاته كما يقوله متأخروهم: كابن سينا وأمثاله، ولا يقولون إنها لرب خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة ايام، ولا خلق الأشياء بمشيئته وقدرته، ولا يعلم الجزئيات؛ بل إما أن ينكروا علمه مطلقاً، كقول أرسطو؛ أو يقولوا إنما يعلم في الأمور المتغيرة كلياتها كما يقوله ابن سينا، وحقيقة هذا القول إنكار علمه بها: فإن كل موجود في الخارج فهو معين جزئي: الأفلاك كل معين منها جزئي، وكذلك جميع الأعيان وصفاتها وأفعالها، فمن لم يعلم إلا الكليات لم يعلم شيئاً من الموجودات، والكليات إنما توجد كليات في الأذهان لا في الأعيان.

والكلام على هؤلاء مبسوط في موضع آخر في «رد تعارض العقل والنقل»[1] وغيره.

فإن كفر هؤلاء أعظم من كفر اليهود والنصارى، بل ومشركي العرب، فإن جميع هؤلاء يقولون إن الله خلق السموات والأرض، وإنه خلق المخلوقات بمشيئته وقدرته، وأرسطو ونحوه من المتفلسفة واليونان كانوا يعبدون الكواكب والأصنام، وهم لا يعرفون الملائكة والأنبياء، وليس في كتب أرسطو ذكر شيء من ذلك، وإنما غالب علوم القوم الأمور الطبيعية، وأما الأمور الإلهية فكل منهم فيها قليل

(١) هو كتاب لابن تيمية مطبوع.

الصواب، كثير الخطأ، واليهود والنصارى بعد النسخ والتبديل أعلم بالإلهيات منهم بكثير؛ ولكن متأخروهم كابن سينا أرادوا أن يلفقوا بين كلام أولئك وبين ما جاءت به الرسل؛ فأخذوا أشياء من اصول الجهمية[1] والمعتزلة، وركبوا مذهباً قد يعتزى إليه متفلسفة أهل الملل؛ وفيه من الفساد والتناقض ما قد نبهنا على بعضه في غير هذا الموضع.

وهؤلاء لما رأوا أمر الرسل كموسى وعيسى ومحمد ﷺ قد بهر العالم، واعترفوا بأن الناموس الذي بعث به محمد ﷺ أعظم ناموس طَرَقَ العالم، ووجدوا الأنبياء قد ذكروا الملائكة والجن، أرادوا أن يجمعوا بين ذلك وبين أقوال سلفهم اليونان الذين هم أبعد الخلق عن معرفة الله وملائكة وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأولئك قد أثبتوا عقولاً عشرة يسمونها «المجردات» «والمفارقات». وأصل ذلك مأخوذ من مفارقة النفس للبدن، وسموا تلك «المفارقات» لمفارقتها المادة وتجردها عنها. وأثبتوا الأفلاك لكل فلك نفساً، وأكثرهم جعلوها أعراضاً، وبعضهم جعلها جواهر.

وهذه «المجردات» التي أثبتوها ترجع عند التحقيق إلى أمور موجودة في الأذهان لا في الأعيان، كما أثبت أصحاب أفلاطون «الأمثال الأفلاطونية المجردة» أثبتوا هيولي مجردة عن الصورة، ومدة وخلاء مجردين، وقد اعترف حذاقهم بأن ذلك إنما يتحقق في الأذهان لا في الأعيان؛ فلما أراد هؤلاء المتأخرون منهم كابن سينا أن يثبت أمر النبوات على أصولهم الفاسدة وزعموا أن النبوة لها خصائص ثلاثة من اتصف بها فهو نبي.

الأول: أن تكونْ له قوة علمية يسمونها القوة القدسية ينال بها من العلم بلا تعلم.

الثاني: أن يكون له قوة تخيلية تخيل له ما يعقل في نفسه بحيث يرى في

---

(١) الجهمية: هم أتباع الجهم بن صفوان الذي قال بالإجبار والاضطرار إلى الأعمال وانكر الاستطاعات كلها، وزعم أن الجنة والنار تبيدان وتفنيان، وزعم أيضاً أن الإيمان هو المعرفة بالله تعالى فقط، وأن الكفر هو الجهل به فقط. وقال لا فعل ولا عمل لأحد غير الله تعالى وإنما تنسب الأعمال إلى المخلوقين على المجاز، وزعم أن علم الله تعالى حادث، ولم يوصف رب العزة بوصف (انظر الفرق بين الفرق ص ١٩٩).

نفسه صوراً أو يسمع في نفسه أصواتاً كما يراه النائم ويسمعه ولا يكون لها وجود في الخارج، وزعموا أن تلك الصور هي ملائكة الله وتلك الأصوات هي كلام الله تعالى.

الثالث: أن يكون له قوة فعالة يؤثر بها في هيولي العالم وجعلوا معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء وخوارق السحرة، هي قوى النفس، فأقروا من ذلك بما يوافق أصولهم من قلب العصا حية، دون انشقاق القمر ونحو ذلك؛ فإنهم ينكرون وجود هذا.

وقد بسطنا الكلام على هؤلاء في مواضع. وبينا أن كلامهم هذا أفسد الكلام، وأن هذا الذي جعلوه من الخصائص يحصل ما هو أعظم منه لآحاد العامة ولأتباع الأنبياء، وأن الملائكة التي أخبرت بها الرسل أحياء ناطقون أعظم مخلوقات الله وهم كثيرون، كما كان قال تعالى: ﴿**وما يعلم جنود ربك الا هو**﴾[1] وليسوا عشرة، وليسوا أعراضاً، لا سيما وهؤلاء يزعمون أن الصادر الأول هو «العقل الأول»، وعنه صدر كل ما دونه، و«العقل الفعال العاشر» رب كل ما تحت فلك القمر.

وهذا كله يعلم فساده بالاضطرار من دين الرسل، فليس أحد من الملائكة مبدع لكل ما سوى الله. وهؤلاء يزعمون أنه العقل المذكور في حديث يروى «أن أول ما خلق الله العقل، فقال له أقبل فأقبل، فقال له: أدبر، فأدبر، فقال وعزتي ما خلقت خلقاً أكرم علي منك، فبك آخذ وبك أعطي، ولك الثواب وعليك العقاب». ويسمونه أيضاً «القلم» لما روي «إن أول ما خلقْ الله القلم» الحديث رواه الترمذي.

والحديث الذي ذكروه في العقل كذب موضوع عند أهل المعرفة بالحديث، كما ذكر ذلك أبو حاتم البستي والدار قطني وابن الجوزي وغيرهم. وليس في شيء من دواوين الحديث التي يعتمد عليها، ومع هذا فلفظه لو كان ثابتاً حجة عليهم؛ فإن لفظه «أول ما خلق الله تعالى العقل قال له ـ ويروى ـ لما خلق الله العقل قال

---

(١) سورة المدثر آية ٣١.

له» فمعنى الحديث أنه خاطبة في أول أوقات خلقه؛ ليس معناه أنه أول المخلوقات و «أول» منصوب على الظرف كما في اللفظ الآخر (لما) وتمام الحديث «ما خلقت خلقاً أكرم علي منك» فهذا يقتضي أنه خلق قبله غيره، ثم قال «فبك آخذ، وبك أعطي، ولك الثواب، وعليك العقاب» فذكر أربعة أنواع من الأعراض، وعندهم إن جميع جواهر العالم العلوي والسفلي صدر عن ذلك العقل. فأين هذا من هذا؟!.

وسبب غلطهم أن لفظ «العقل» في لغة المسلمين ليس هو لفظ العقل في لغة هؤلاء اليونان، فإن «العقل» في لغة المسلمين مصدر عقل يعقل عقلاً، كما في القرآن **﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾**[1] **﴿إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾**[2] **﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها، أو آذان يسمعون بها﴾**[3] ويراد «بالعقل» الغريزة التي جعلها الله تعالى في الإنسان يعقل بها.

وأما أولئك فـ «العقل» عندهم جوهر قائم بنفسه كالعاقل، وليس هذا مطابقاً للغة الرسل والقرآن. وعالم الخلق عندهم كما يذكره أبو حامد[4] عالم الأجسام العقل والنفوس فيسميها عالم الأمر، وقد يسمى «العقل» عالم الجبروت «والنفوس» عالم الملكوت؛ و «الأجسام» عالم الملك، ويظن من لم يعرف لغة الرسل ولم يعرف معنى الكتاب والسنة أن ما في الكتاب والسنة من ذكر الملك والملكوت والجبروت موافق لهذا، وليس الأمر كذلك.

وهؤلاء يلبسون على المسلمين تلبيساً كثيراً كإطلاقهم أن «الفلك» محدث: أي معلول مع أنه قديم عندهم، والمحدث لا يكون إلا مسبوقاً بالعدم، ليس في لغة العرب ولا في لغة أحد أنه يسمى القديم الأزلي محدثاً، والله قد أخبر أنه خالق كل شيء. وكُلّ مخلوق فهو محدث، وكل محدث كائن بعد أن لم يكن؛ لكن

---

(١) سورة الملك آية ١٠.

(٢) سورة الرعد آية ٤.

(٣) سورة الحج آية ٤٦.

(٤) أي الغزالي.

ناظرهم أهل الكلام من الجهمية والمعتزلة مناظرة قاصرة لم يعرفوا بها ما أخبرت به الرسل؛ ولا أحكموا فيها قضايا العقول، فلا للإسلام نصروا، ولا للأعداء كسروا، وشاركوا أولئك في بعض قضاياهم الفاسدة، ونازعوهم في بعض المعقولات الصحيحة، فصار قصور هؤلاء في العلوم السمعية والعقلية من أسباب قوة ضلال أولئك.

وهؤلاء المتفلسفة قد يجعلون «جبريل» هو الخيال الذي يتشكل في نفس النبي ﷺ، والخيال تابع للعقل، فجاء الملاحدة الذين شاركوا هؤلاء الملاحدة المتفلسفة وزعموا أنهم «أولياء الله»، وأن أولياء الله أفضل من أنبياء الله، وأنهم يأخذون عن الله بلا واسطة كابن عربي صاحب «الفتوحات» و«الفصوص». فقال: إنه يأخذ من المعدن الذي أخذ منه الملك الذي يوحي به إلى الرسول، و«المعدن» عنده هو العقل و«الملك» هو الخيال و«الخيال» تابع للعقل، وهو بزعمه يأخذ عن الذي هو أصل الخيال والرسول يأخذ عن الخيال؛ فلهذا صار عند نفسه فوق النبي ولو كان خاصة النبي ما ذكروه لم يكن هو من جنسه، فضلاً عن أن يكون فوقه، فكيف وما ذكروه يحصل لآحاد المؤمنين؟! والنبوة أمر وراء ذلك، فإن ابن عربي وأمثاله وإن ادعوا أنهم من الصوفية، فهم من صوفية الملاحدة الفلاسفة، ليسوا من صوفية أهل العلم، فضلاً عن أن يكونوا من مشايخ أهل الكتاب والسنة: كالفضيل بن عياض وابراهيم بن أدهم، وأبي سليمان الداراني ومعروف الكرخي، والجنيد بن محمد وسهل بن عبد الله التستري وأمثالهم - رضوان الله عليهم اجمعين.

والله سبحانه وتعالى قد وصف الملائكة في كتابه بصفات تباين قول هؤلاء كقوله تعالى: **﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه، بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون. يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون. ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين﴾**[1] وقال تعالى: **﴿وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾**[2] وقال تعالى:

(١) سورة الأنبياء الآيات ٢٦ - ٢٨.
(٢) سورة النجم آية ٢٦.

﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾(١)

وقد أخبر أن الملائكة جاءت لإبراهيم عليه السلام في صورة البشر، وأن الملك تمثل لمريم بشراً سوياً، وكان جبريل عليه السلام يأتي النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي، وفي صورة أعرابي، ويراهم الناس كذلك.

وقد وصف الله تعالى جبريل عليه السلام بأنه ذو قوة عند ذي العرش مكين؛ مطاع ثم أمين، وان محمداً ﷺ رآه بالافق المبين، ووصفه بأنه **﴿شديد القوى. ذو مرة فاستوى. وهو بالافق الأعلى. ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى. فأوحى إلى عبده ما اوحى. ما كذب الفؤاد ما رأى. أفتمارونه على ما يرى. ولقد رآه نزلة أخرى. عند سدرة المنتهى. عندها جنة المأوى. إذ يغشى السدرة ما يغشى. ما زاغ البصر وما طغى. لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾**(٢).

وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ «أنه لم ير جبريل في صورته التي خلق عليها غير مرتين» يعني المرة الأولى بالأفق الأعلى، والنزلة الأخرى عند سدرة المنتهى، ووصف جبريل عليه السلام في موضع آخر بأنه الروح الأمين، وأنه روح القدس، إلى غير ذلك من الصفات التي تبين أنه من أعظم مخلوقات الله تعالى الأحياء العقلاء، وأنه جوهر قائم بنفسه، ليس خيالاً في نفس النبي كما زعم هؤلاء الملاحدة المتفلسفة، والمدعون ولاية الله، وأنهم أعلم من الأنبياء..

وغاية حقيقة هؤلاء إنكار «أصول الإيمان» بأن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وحقيقة أمرهم جحد الخالق، فإنهم جعلوا وجود المخلوق هو وجود الخالق، وقالوا: الوجود واحد، ولم يميزوا بين الواحد بالعين والواحد بالنوع، فإن الموجودات تشترك في مسمى الوجود، كما تشترك الأناسي في مسمى

---

(١) سورة سبأ آية ٢٣ ـ ٢٤.

(٢) سورة النجم الآيات ٥ ـ ١٩.

الإنسان، والحيوانات في مسمى الحيوان، ولكن هذا المشترك الكلي لا يكون مشتركاً كلياً إلا في الذهن، وإلا فالحيوانية القائمة بهذا الإنسان ليست هي الحيوانية القائمة بالفرس، ووجود السموات ليس هو بعينه وجود الإنسان، فوجود الخالق جل جلاله ليس هو كوجود مخلوقاته.

وحقيقة قولهم قول فرعون الذي عطل الصانع. فإنه لم يكن منكراً هذا الوجود المشهود؛ لكن زعم أنه موجود بنفسه، لا صانع له، وهؤلاء وافقوه في ذلك؛ لكن زعموا بأنه هو الله، فكانوا أضل منه وإن كان قوله هذا هو أظهر فساداً منهم. ولهذا جعلوا عباد الأصنام ما عبدوا إلا الله، وقالوا: «لما كان فرعون في منصب التحكم صاحب السيف وإن جار في العرف الناموسي، كذلك قال أنا ربكم الأعلى - أي وإن كان الكل أرباباً بنسبة ما، فأنا الأعلى منكم بما أعطيته في الظاهر من الحكم فيكم».

قالوا: «ولما علمت السحرة صدق فرعون فيما قاله اقروا له بذلك وقالوا: **﴿اقض ما أنت قاض، إنما تقضي هذه الحياة الدنيا﴾**[1] قالوا: فصح قول فرعون **﴿أنا ربكم الأعلى﴾**[2] وكان فرعون عين الحق» ثم أنكروا حقيقة اليوم الآخر، فجعلوا أهل النار يتنعمون كما يتنعم أهل الجنة، فصاروا كافرين بالله واليوم الآخر وبملائكته وكتبه ورسله مع دعواهم أنهم خلاصة خاصة الخاصة من أهل ولاية الله، وإنهم أفضل من الأنبياء وإن الأنبياء إنما يعرفون من مشكاتهم.

وليس هذا موضع بسط إلحاد هؤلاء؛ ولكن لما كان الكلام في «أولياء الله» والفرق بين «أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» وكان هؤلاء من أعظم الناس ادعاء لولاية الله، وهم من أعظم الناس ولاية للشيطان، نبهنا على ذلك. ولهذا عامة كلامهم إنما هو في الحالات الشيطانية، ويقولون ما قاله صاحب الفتوحات: «باب ارض الحقيقة» ويقولون هي أرض الخيال. فتعرف بأن الحقيقة التي يتكلم فيها هي خيال، ومحل تصرف الشيطان، فإن الشيطان يخيل للإنسان الأمور بخلاف ما هي عليه قال تعالى: **﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين.**

---

(١) سورة طه آية ٧٢.

(٢) سورة النازعات آية ٢٤.

وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون. حتى إذا جاءنا قال ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين. ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم انكم في العذاب مشتركون﴾[1] وقال تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾ إلى قوله: ﴿يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾[2] وقال تعالى: ﴿وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم، وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي، واني كفرت بما اشركتموني من قبل، ان الظالمين لهم عذاب اليم﴾[3] وقال تعالى: ﴿واذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم، فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم، إني أرى مالا ترون، إني أخاف الله والله شديد العقاب﴾[4].

وقد روي عن النبي ﷺ في الحديث الصحيح «إنه رأى جبريل يزع الملائكة» والشياطين إذا رأت ملائكة الله التي يؤيد بها عبادة هربت منهم، والله يؤيد عباده المؤمنين بملائكته. قال تعالى: ﴿اذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا﴾[5] وقال تعالى: ﴿يا ايها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها﴾[6] وقال تعالى: ﴿إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها﴾[7] وقال تعالى: ﴿إذ تقول للمؤمنين: ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين. بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾[8].

وهؤلاء تأتيهم أرواح تخاطبهم وتتمثل لهم، وهي جن وشياطين فيظنونها ملائكة، كالأرواح التي تخاطب من يعبد الكواكب والأصنام وكان من أول ما ظهر

(١) سورة الزخرف الآيات ٣٦ ـ ٣٩.
(٢) سورة النساء آية ١٢٠.
(٣) سورة ابراهيم آية ٢٢.
(٤) سورة الأنفال آية ٤٨.
(٥) سورة الأنفال آية ١٢.
(٦) سورة الأحزاب آية ٩.
(٧) سورة التوبة آية ٤٠.
(٨) سورة آل عمران آية ١٢٤ ـ ١٢٥.

من هؤلاء في الإسلام: المختار ابن أبي عبيد الذي أخبر به النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال «سيكون في ثقيف كذاب ومبير» وكان الكذاب: المختار بن أبي عبيد، والمبير: الحجاج بن يوسف. فقيل لابن عمر وابن عباس: إن المختار يزعم أنه ينزل إليه، فقالا: صدق، قال الله تعالى: ﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين؟ تنزل على كل أفاك أثيم﴾[1]. وقال الآخر وقيل له إن المختار يزعم أنه يوحى إليه، فقال: قال الله تعالى: ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم﴾[2].

وهذه الأرواح الشيطانية هي الروح الذي يزعم صاحب «الفتوحات» انه ألقي ذلك الكتاب؛ ولهذا يذكر أنواعاً من الخلوات بطعام معين وشيء معين، وهذه مما تفتح لصاحبها اتصالاً بالجن والشياطين، فيظنون ذلك من كرامات الأولياء، وإنما هو من الأحوال الشيطانية، وأعرف من هؤلاء عدداً، ومنهم من كان يحمل في الهواء إلى مكان بعيد ويعود، ومنهم من كان يؤتى بمال مسروق تسرقه الشياطين وتأتيه به، ومنهم من كانت تدله على السرقات بجعل يحصل له من الناس، أو بعطاء يعطونه إذا دلهم على سرقاتهم ونحو ذلك.

ولما كانت أحوال هؤلاء شيطانية كانوا مناقضين للرسل صلوات الله تعالى وسلامه عليهم، كما يوجد في كلام صاحب «الفتوحات المكية» و«الفصوص» وأشباه ذلك ما يمدح الكفار، مثل قوم نوح وهود وفرعون وغيرهم، ويتنقص الأنبياء: كنوح وإبراهيم وموسى وهارون، ويذم شيوخ المسلمين المحمودين عند المسلمين: كالجنيد بن محمد، وسهل بن عبد الله التستري. ويمدح المذمومين عند المسلمين: كالحلاج[3] ونحوه كما ذكره في تجلياته الخيالية الشيطانية؛ فان

---

(١) سورة الشعراء آية ٢٢٢.

(٢) سورة الأنعام آية ١٢١.

(٣) هو أبو عبد الله حسين بن منصور بن محمي الفارسي الحلاج، كان جده مجوسياً، نشأ بواسط ويقال بتستر، ودخل بغداد وتردد إلى مكة وجاور بها في وسط المسجد في البرد والحر، ولا يأكل إلا بعض قرص ويشرب قليلاً من الماء معه، صحب جماعة من سادات المشايخ الصوفية كالجنيد بن محمد، ثم فتن ودخل عليه الداخل من الكبر والرياسة، فسافر إلى الهند وتعلم السحر، فحصل له به حال شيطاني، وهرب منه الحال الإيماني، وضل به خلق كثير، قتل ببغداد سنة ٣٠٩ هـ (انظر ترجمته =

الجنيد[1] ـ قدس الله روحه ـ كان من أئمة الهدى، فسئل عن التوحيد فقال: «التوحيد» إفراد الحدوث عن القدم. فبين أن التوحيد أن تميز بين القدم والمحدث، وبين الخالق والمخلوق. وصاحب «الفصوص» أنكر هذا؛ وقال في مخاطبته الخيالية الشيطانية له: يا جنيد! هل يميز بين المحدث والقديم إلا من يكون غيرهما؟ فخطأ الجنيد في قوله: «إفراد الحدوث عن القدم»؛ لأن قوله هو: إن وجود المحدث هو عين وجود القديم، كما قال في فصوصه: «ومن أسمائه الحسنى «العلي» على من؟ وما ثم إلا هو، وعن ماذا؟ وما هو إلا هو، فعلوه لنفسه وهو عين الموجودات، فالمسمى محدثات هي العلية لذاته وليست إلا هو». إلى أن قال:

«هو عين ما بطن وهو عين ما ظهر، وما ثم من يراه غيره، وما ثم من ينطق عنه سواه، وهو المسمى أبو سعيد الخزاز وغير ذلك من الأسماء المحدثات».

فيقال لهذا الملحد: ليس من شرط المميز بين الشيئين بالعلم والقول أن يكون ثالثاً غيرهما، فإن كل واحد من الناس يميز بين نفسه وغيره، وليس هو ثالث، فالعبد يعرف أنه عبد ويميز بين نفسه وبين خالقه، والخالق جل جلاله يميز بين نفسه وبين مخلوقاته، ويعلم أنه ربهم وإنهم عبادة، كما نطق بذلك القرآن في غير موضع، والاستشهاد بالقرآن عند المؤمنين الذين يقرون به باطناً وظاهراً. وأما هؤلاء الملاحدة فيزعمون ما كان يزعمه التلمساني منهم ـ وهو أحذقهم في اتحادهم ـ لما قرىء عليه «الفصوص» فقيل له: القرآن يخالف فصوصكم. فقال: القرآن كله شرك، وإنما التوحيد في كلامنا. فقيل له: فإذا كان الوجود واحداً فلم كانت الزوجة حلالاً والأخت حراماً؟ فقال: الكل عندنا حلال، ولكن هؤلاء المحجوبون قالوا حرام، فقلنا حرام عليكم.

= في البداية والنهاية ١٣٢/١٢، وشذرات الذهب ٢٥٣/٢).

(١) هو الجنيد بن محمد القواريري الخزاز، شيخ الصوفية تاج العارفين، صحب خاله السري والمحاسبي وغيرهما، أصله من نهاوند ونشأ بالعراق وتفقه على أبي ثور، وسمع الحديث، أفتى وعمره عشرين سنة، لازم التعبد وكان ورده في كل يوم ثلاثمائة ركعة، وثلاثين ألف تسبيحة، ومكث أربعين سنة لا يأوي إلى فراش، توفي سنة ٢٩٧ هـ (انظر ترجمته في البداية والنهاية ١١٣/١٢، وشذرات الذهب ٢٢٨/٢).

وهذا مع كفره العظيم متناقض ظاهر فإن الوجود إذا كان واحداً فمن المحجوب ومن الحاجب؟ ولهذا قال بعض شيوخهم لمريده: من قال لك: إن في الكون سوى الله فقد كذب. فقال له مريده: فمن هو الذي يكذب؟ وقالوا لآخر: هذه مظاهر. فقال لهم: المظاهر غير الظاهر أم هي؟ فإن كانت غيرها فقد قلتم بالنسبة وإن كانت إياها فلا فرق.

وكذلك يقولون في عباد الأصنام: إنما أخطأوا لما عبدوا بعض المظاهر دون بعض فلو عبدوا الجميع لما أخطأوا عندهم. والعارف المحقق عندهم لا يضره عبادة الأصنام.

وهذا مع ما فيه من الكفر العظيم ففيه ما يلزمهم دائماً من التناقض لأنه يقال لهم: فمن المخطىء؟ لكنهم يقولون: إن الرب هو الموصوف بجميع النقائص التي يوصف بها المخلوق. ويقولون: إن المخلوقات توصف بجميع الكمالات التي يوصف بها الخالق، ويقولون ما قاله صاحب «الفصوص»: «فالعلي لنفسه هو الذي يكون له الكمال الذي يستوعب به جميع النعوت الوجودية، والنسب العدمية، سواء كانت محمودة عرفاً أو عقلاً أو شرعاً، أو مذمومة عرفاً وعقلاً وشرعاً، وليس ذلك إلا لمسمى الله خاصة».

وهم مع كفرهم هذا لا ينفع عنهم التناقض، فإنه معلوم بالحس والعقل إن هذا ليس هو ذاك، وهؤلاء يقولون ما كان يقوله التلمساني: إنه ثبت عندنا في الكشف ما يناقض صريح العقل. ويقولون: من أراد التحقيق ـ يعني تحقيقهم ـ فليترك العقل والشرع.

وقد قلت لمن خاطبته منهم: ومعلوم أن كشف الأنبياء أعظم وأتم من كشف غيرهم، وخبرهم أصدق من خبر غيرهم، والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم يخبرون بما تعجز عقول الناس عن معرفته؛ لا بما يعرف الناس بعقولهم إنه ممتنع، فيخبرون بمحارات القول لا بمحالات القول، ويمتنع أن يكون في أخبار الرسول ما يناقض صريح العقول، ويمتنع أن يتعارض دليلان قطعيان: سواء كانا عقليين أو سمعيين، أو كان أحدهما عقلياً والآخر سمعياً، فكيف بمن ادعى كشفاً يناقض صريح الشرع والعقل؟.

وهؤلاء قد لا يتعمدون الكذب، لكن يخيل لهم أشياء تكون في نفوسهم ويظنونها في الخارج، وأشياء يرونها تكون موجودة في الخارج لكن يظنونها من كرامات الصالحين، وتكون من تلبيسات الشياطين.

وهؤلاء الذين يقولون بالوحدة قد يقدمون الأولياء على الأنبياء، ويذكرون أن النبوة لم تنقطع، كما يذكر عن ابن سبعين وغيره، ويجعلون المراتب «ثلاثة» يقولون: العبد يشهد أولاً طاعة معصية، ثم طاعة بلا معصية، ثم لا طاعة ولا معصية، و«الشهود الأول» هو الشهود الصحيح وهو الفرق بين الطاعات والمعاصي، وأما «الشهود الثاني» فيريدون به شهود القدر كما أن بعض هؤلاء يقول: أنا كافر برب يُعصى، وهذ يزعم أن المعصية مخالفة الإرادة التي هي المشيئة. والخلق كلهم داخلون تحت حكم المشيئة ويقول شاعرهم:

أصبحت منفعلاً لما تختاره   مني ففعلي كله طاعات

ومعلوم أن هذا خلاف ما أرسل الله به رسله، وأنزل به كتبه: فإن المعصية التي يستحق صاحبها الذم والعقاب مخالفة أمر الله ورسوله كما قال تعالى: **﴿تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم. ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين﴾**[1] وسنذكر الفرق بين الإرادة الكونية والدينية، والأمر الكوني والديني.

وكانت هذه «المسألة» قد اشتبهت على طائفة من الصوفية فبينها الجنيد رحمه الله لهم، من اتبع الجنيد فيها كان على السداد، ومن خالفه ضل، لأنهم تكلموا في الأمور كلها بمشيئة الله وقدرته، وفي شهود هذا التوحيد، وهذا يسمونه الجمع الأول، فبين لهم الجنيد أنه لا بد من شهود الفرق الثاني، وهو أنه مع شهود كون الأشياء كلها مشتركة في مشيئة الله وقدرته وخلقه يجب الفرق بين ما يأمر به ويحبه ويرضاه، وبين ما ينهى عنه ويكرهه ويسخطه، ويفرق بين أوليائه وأعدائه كما قال تعالى: **﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين؟ ما لكم كيف تحكمون﴾**[2]

---

(١) سورة النساء آية ١٣ ـ ١٤.

(٢) سورة القلم آية ٣٥ ـ ٣٦.

وقال تعالى: ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض؟ أم نجعل المتقين كالفجار؟﴾[1] وقال تعالى: ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم؟ ساء ما يحكمون﴾[2] وقال تعالى: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلاً ما تتذكرون﴾[3] .

ولهذا كان مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الله خالق كل شيء وربه ومليكه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن؛ لا رب غيره، وهو مع ذلك أمر بالطاعة، ونهى عن المعصية، وهو لا يحب الفساد، ولا يرضى لعباده الكفر، ولا يأمر بالفحشاء، وإن كانت واقعة بمشيئته فهو لا يحبها ولا يرضاها، بل يبغضها ويذم أهلها ويعاقبهم.

وأما «المرتبة الثالثة» أن لا يشهد طاعة ولا معصية ـ فإنه يرى أن الوجود واحد، وعندهم أن هذا غاية التحقيق والولاية لله؛ وهو في الحقيقة غاية الإلحاد في أسماء الله وآياته، وغاية العداوة لله، فإن صاحب هذا المشهد يتخذ اليهود والنصارى وسائر الكفار أولياء، وقد قال تعالى: ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾[4] ولا يتبرأ من الشرك والأوثان فيخرج عن ملة ابراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه، قال الله تعالى: ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله، كفرنا بكم، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً، حتى تؤمنوا بالله وحده﴾[5] وقال الخليل عليه السلام لقومه المشركين: ﴿أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الاقدمون فإنهم عدو لي إلا رب العالمين﴾[6] . وهؤلاء قد صنف بعضهم كتباً وقصائد على مذهبه مثل قصيدة ابن الفارض المسمات بـ «نظم السلوك» يقول فيها:

لها صلاتي بالمقام أقيمها ... وأشهد فيها أنها لي صلت
كلانا مصلٍّ واحد ساجد إلى ... حقيقته بالجمع في كل سجدة
وما كان لي صلى سوائي ولم تكن ... صلاتي لغيري في أداء كل ركعة

(١) سورة ص آية ٢٨.
(٢) سورة الجاثية آية ٢١.
(٣) سورة غافر آية ٥٨.
(٤) سورة المائدة آية ٥١.
(٥) سورة الممتحنة آية ٤.
(٦) سورة الشعراء آية ٧٦.

(إلى أن قال)

وما زلت إياها وإياي لم تزل ... ولا فرق بل ذاتي لذاتي أحبت

إليّ رسولاً كنت مني مرسلاً ... وذاتي بآياتي عليّ استدلت

فإن دعيت كنت المجيب وإن أكن ... منادى أجابت من دعاني ولبت

إلى أمثال هذا الكلام.

وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه كان يقول في دعائه: «اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى، منزل التوراة والإنجيل والقرآن، أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، إقض عني الدين واغنني من الفقر ثم قال: **﴿هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش، يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، وهو معكم أينما كنتم، والله بما تعملون بصير﴾**[1] فذكر أن السموات والأرض - وفي موضع آخر - (وما بينهما) مخلوق مسبح له، وأخبر سبحانه أنه يعلم كل شيء.

وأما قوله (وهو معكم) فلفظ (مع) لا تقتضي في لغة العرب أن يكون أحد الشيئين مختلطاً بالآخر كقوله تعالى **﴿اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾**[2] وقوله تعالى: **﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار﴾**[3] وقوله تعالى: **﴿والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم﴾**[4].

ولفظ (مع) جاءت في القرآن عامة وخاصة، فـ«العامة» في هذه الآية وفي آية المجادلة **﴿ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم، ولا خمسة الا هو سادسهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة، إن الله بكل شيء**

---

(١) سورة الحديد آية ٤.

(٢) سورة التوبة آية ١٩.

(٣) سورة الفتح آية ٢٩.

(٤) سورة الأنفال آية ٧٥.

عليم﴾[1] فافتتح الكلام بالعلم وختمه بالعلم؛ ولهذا قال ابن عباس والضحاك وسفيان الثوري وأحمد بن حنبل: هو معهم بعلمه.

وأما «المعية الخاصة» ففي قوله تعالى: **﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾**[2] وقوله تعالى لموسى: **﴿ إنني معكما أسمع وأرى﴾**[3] وقال تعالى: **﴿إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾**[4] يعني النبي ﷺ وأبا بكر رضي الله عنه، فهو مع موسى وهارون دون فرعون، ومع وصاحبه دون أبي جهل وغيره من أعدائه، ومع الذين اتقوا والذين هم محسنون دون الظالمين المعتدين.

فلو كان معنى «المعية» أنه بذاته في كل مكان تناقض الخبر الخاص والخبر العام؛ بل المعنى أنه مع هؤلاء بنصره وتأييده دون أولئك. وقوله تعالى: **﴿وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله﴾**[5] أي هو إله من في السموات وإله من في الأرض، كما قال الله تعالى: **﴿وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾**[6]. وكذلك قوله تعالى: **﴿وهو الله في السموات وفي الأرض﴾** كما فسره أئمة العلم كالإمام أحمد وغيره: إنه المعبود في السموات والأرض.

وأجمع سلف الأمة وأئمتها على أن الرب تعالى بائن من مخلوقاته، يوصف بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، يوصف بصفات الكمال دون صفات النقص، ويعلم أنه ليس كمثله شيء في صفات الكمال، كما قال الله تعالى: **﴿قل هو الله أحد، الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾**[7] قال ابن عباس: (الصمد) العليم الذي كمل في عمله، العظيم الذي كمل في عظمته، القدير الكامل في قدرته، الحكيم الكامل في حكمته، السيد الكامل في سؤدده.

وقال ابن مسعود وغيره: هو الذين لا جوف له. و(الأحد) الذي لا نظير له. فاسمه (الصمد) يتضمن اتصافه بصفات الكمال ونفي النقائص عنه، واسمه

(١) سورة المجادلة آية ٧.
(٢) سورة النحل آية ١٢٨.
(٣) سورة طه آية ٤٦.
(٤) سورة التوبة آية ٤٠.
(٥) سورة الزخرف آية ٨٤.
(٦) سورة الروم آية ٢٧.
(٧) سورة الإخلاص.

(الأحد) يتضمن اتصافه أنه لا مثل له. وقد بسطنا الكلام على ذلك في تفسير هذه السورة وفي كونها تعدل ثلث القرآن (١).

فصل
[الحقائق الدينية الإيمانية]

وكثير من الناس تشتبه عليهم الحقائق الأمرية الدينية الإيمانية بالحقائق الخلقية القدرية الكونية؛ فإن الله سبحانه وتعالى له الخلق والأمر كما قال تعالى: **﴿إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام، ثم استوى على العرش، يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، ألا له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين﴾**(٢) فهو سبحانه خالق كل شيء وربه ومليكه، لا خالق غيره، ولا رب سواه، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فكل ما في الوجود من حركة وسكون فبقضائه وقدره ومشيئته وقدرته وخلقه، وهو سبحانه أمر بطاعته وطاعة رسله ونهى عن معصيته ومعصية رسله أمر بالتوحيد والإخلاص،ونهى عن الإشراك بالله ، فأعظم الحسنات التوحيد، وأعظم السيئات الشرك. قال الله تعالى: **﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾**(٣) وقال تعالى: **﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله؛ والذين آمنوا اشد حباً لله﴾**(٤).

وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «قلت يا رسول الله! أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك، قلت: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك، قلت: ثم أي؟ قال: أن تزني بحليلة جارك؛ فأنزل الله تصديق ذلك **﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر، ولا يقتلون النفس التي حرم**

---

(١) يراجع ذلك في كتاب «تفسير سورة الإخلاص» الصادر عن دار الكتاب العربي بتعليقنا، فقد استوفى شيخ الإسلام الكلام على شرح سورة الإخلاص هناك.

(٢) سورة الأعراف آية ٥٤.

(٣) سورة النساء آية ٤٨.

(٤) سورة البقرة آية ١٦٥.

الله إلا بالحق، ولا يزنون، ومن يفعل ذلك يلق أثاماً. يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا. إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيآتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً﴾(١).

وأمر سبحانه بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربي، ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، وأخبر أنه يحب المتقين، ويحب المحسنين؛ ويحب المقسطين؛ ويحب التوابين، ويحب المتطهرين، ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص، وهو يكره ما نهى عنه كما قال في سورة سبحان **﴿كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها﴾**(٢) وقد نهى عن الشرك وعقوق الوالدين؛ وأمر بايتاء ذي القربي الحقوق ونهى عن التبذير؛ وعن التقتير؛ وأن يجعل يده مغلولة إلى عنقه؛ وأن يبسطها كل البسط، ونهى عن قتل النفس بغير الحق، وعن الزنا وعن قربان مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن إلى أن قال **﴿كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً﴾** وهو سبحانه لا يحب الفساد ولا يرضى لعباده الكفر.

والعبد مأمور أن يتوب إلى الله تعالى دائماً قال الله تعالى: **﴿وتوبوا إلى الله جمعياً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾**(٣).

وفي صحيح البخاري عن النبي ﷺ أنه قال: «أيها الناس توبوا إلى ربكم. فو الذي نفسي بيده إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة» وفي صحيح مسلم عنه ﷺ أنه قال: «إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة» وفي السنن عن ابن عمر قال: كنا نعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد يقول «رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم مائة مرة» أو قال «أكثر من مائة مرة»

وقد أمر الله سبحانه عباده أن يختموا الأعمال الصالحات بالاستغفار فكان النبي ﷺ إذا سلم من الصلاة يستغفر ثلاثاً ويقول «اللهم أنت السلام ومنك السلام

---

(١) سورة الفرقان الآيات ٦٨ ـ ٧٠.

(٢) سورة الإسراء آية ٣٨.

(٣) سورة النور آية ٣١.

تباركت ياذا الجلال والإكرام» كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح عنه، وقد قال تعالى: ﴿**والمستغفرين بالأسحار**﴾[1] فأمرهم أن يقوموا بالليل، ويستغفروا بالأسحار. وكذلك ختم سورة المزمل وهي سورة قيام الليل بقوله تعالى: ﴿**واستغفروا الله إن الله غفور رحيم**﴾ وكذلك قال في الحج: ﴿**فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام، واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين. ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس. واستغفروا الله، إن الله غفور رحيم**﴾[2]؛ بل أنزل سبحانه وتعالى في آخر الأمر لما غزا النبي ﷺ غزوة تبوك وهي آخر غزواته: ﴿**لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم، ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم. وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه، ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم**﴾[3] وهي آخر ما نزل من القرآن.

وفي الصحيحين أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال يا رسول الله علمني دعاء أدعو به في صلاتي، قال: «قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم» وفي السنن عن أبي بكر رضي الله عنه قال يا رسول الله علمني دعاء ادعو به إذا أصبحت وإذا أمسيت، فقال «قل: اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة، رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي، ومن شر الشيطان وشركه، وأن أقترف على نفسي سوءاً أو أجره إلى مسلم. قله إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا اخذت مضجعك».

فليس لأحد أن يظن استغناءه عن التوبة إلى الله والاستغفار من الذنوب؛ بل كل أحد محتاج إلى ذلك دائماً. قال الله تبارك وتعالى: ﴿**وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً. ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، ويتوب**

---

(١) سورة آل عمران آية ١٧.

(٢) سورة البقرة آية ١٩٩.

(٣) سورة التوبة آية ١١٧ - ١١٨.

الله على المؤمنين والمؤمنات، وكان الله غفوراً رحيماً﴾[1] فالإنسان ظالم جاهل وغاية المؤمنين والمؤمنات التوبة، وقد أخبر الله تعالى في كتابه بتوبة عباده الصالحين ومغفرته لهم.

وثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لن يدخل الجنة أحد بعمله، قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل» وهذا لا ينافي قوله **﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾**[2] فان الرسول نفى باء المقابلة والمعادلة والقرآن أثبت باء السبب.

وقول من قال: إذا أحب الله عبداً لم تضره الذنوب. معناه أنه إذا أحب عبداً الهمه التوبة والاستغفار، فلم يصر على الذنوب، ومن ظن أن الذنوب لا تضر من أصر عليها فهو ضال مخالف للكتاب والسنة، وإجماع السلف والأئمة؛ بل من يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره.

وإنما عباده الممدوحين هم المذكورون في قوله تعالى: **﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم، وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين. الذين ينفقون في السراء والضراء، والكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس، والله يحب المحسنين. والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم، ومن يغفر الذنوب إلا الله؟ ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾**[3].

ومن ظن أن «القدر» حجة لأهل الذنوب فهو من جنس المشركين الذين قال الله تعالى عنهم: **﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء﴾**[4] قال الله تعالى راداً عليهم: **﴿كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا؟ إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون، قلْ فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين﴾**[5].

ولو كان «القدر» حجة لأحد لم يعذب الله المكذبين للرسل كقوم نوح وعاد

---

(١) سورة الأحزاب آية ٧٢ ـ ٧٣.
(٢) سورة الحاقة آية ٢٤.
(٣) سورة آل عمران الآيات ١٣٣ ـ ١٣٥.
(٤) سورة النحل آية ٣٥.
(٥) سورة الأنعام آية ١٤٨.

وثمود والمؤتفكات، وقوم فرعون، ولم يأمر بإقامة الحدود على المعتدين ، ولا يحتج أحد بالقدر إلا إذا كان متبعاً لهواه بغير هدى من الله، ومن رأى القدر حجة لأهل الذنوب يرفع عنهم الذم والعقاب فعليه أن لا يذم أحداً ولا يعاقبه إذا اعتدى عليه؛ بل يستوى عنده ما يوجب اللذة وما يوجب الألم، فلا يفرق بين من يفعل معه خيراً وبين من يفعل معه شراً، وهذا ممتنع طبعاً وعقلاً وشرعاً، وقد قال تعالى: **﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض؟ أم نجعل المتقين كالفجار؟﴾**[1] وقال تعالى: **﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين؟﴾**[2] وقال تعالى: **﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم؟ ساء ما يحكمون﴾**[3].

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «احتج آدم وموسى، قال موسى: ياآدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده. ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة، فقال له آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله بكلامه وكتب لك التوراة بيده، فبكم وجدت مكتوباً عليَّ قبل أن أخلق **﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾**[4]؟ قال: باربعين سنة، [قال]: فلم تلومني على أمر قدره الله عليَّ قبل أن أخلق بأربعين سنة؟ قال: فحج آدم موسى» أي: غلبه بالحجة.

وهذا الحديث ضلت فيه طائفتان:

«طائفة» كذبت به لما ظنوا أنه يقتضي رفع الذم والعقاب عمن عصى الله لأجل القدر.

و«طائفة» شر من هؤلاء جعلوه حجة. وقد يقولون: القدر حجة لأهل الحقيقة الذين شهدوه، أو الذين لا يرون أن لهم فعلاً. ومن الناس من قال: إنما حج آدم موسى لأنه أبوه، أو لأنه كان قد تاب، أو لأن الذنب كان في شريعة واللوم

---

(١) سورة ص آية ٢٨.

(٢) سورة القلم آية ٣٥.

(٣) سورة الجاثية آية ٢١.

(٤) سورة طه آية ١٢١.

في أخرى، أو لأن هذا يكون في الدنيا دون الأخرى. وكل هذا باطل.

ولكن وجه الحديث أن موسى عليه السلام لم يلم أباه إلا لأجل المصيبة التي لحقتهم من أجل أكله من الشجرة. فقال له: لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ لم يلمه لمجرد كونه أذنب ذنباً وتاب منه؛ فإن موسى يعلم أن التائب من الذنب لا يلام، وهو قد تاب منه أيضاً، ولو كان آدم يعتقد رفع الملام عنه لأجل القدر لم يقل: ﴿**ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين**﴾[1]. والمؤمن مأمور عند المصائب أن يصبر ويسلم، وعند الذنوب أن يستغفر ويتوب. قال الله تعالى: ﴿**فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك**﴾[2] فأمره بالصبر على المصائب، والاستغفار من المعائب.

وقال تعالى: ﴿**ما اصاب من مصيبة إلا باذن الله، ومن يؤمن بالله يهد قلبه**﴾[3] قال ابن مسعود: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم انها من عند الله فيرضى ويسلم، فالمؤمنون إذا اصابتهم مصيبة، مثل المرض والفقر والذل صبروا لحكم الله، وإن كان ذلك بسبب ذنب غيرهم[4]، كمن انفق ابوه ماله في المعاصي فافتقر أولاده لذلك فعليهم أن يصبروا لما أصابهم، وإذا لاموا الأب لحظوظهم ذكر لهم القدر.

و«الصبر» واجب باتفاق العلماء، وأعلى من ذلك الرضا بحكم الله، و«الرضا» قد قيل: إنه واجب، وقيل: هو مستحب، وهو الصحيح، وأعلى من ذلك أن يشكر الله على المصيبة لما يرى من أنعام الله عليه بها، حيث جعلها سبباً لتكفير خطاياه، ورفع درجاته وإنابته وتضرعه إليه، وإخلاصه له في التوكل عليه ورجائه دون المخلوقين، وأما أهل البغي والضلال فتجدهم يحتجون بالقدر إذا

---

(١) سورة الأعراف آية ٢٣.

(٢) سورة غافر آية ٥٥.

(٣) سورة التغابن آية ١١.

(٤) فسرها ابن كثير بقوله: «ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله هدى الله قلبه، وعوضه عما فاته من الدنيا هدى في قلبه ويقيناً صادقاً، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه أو خيراً منه» (٣/٥٨٦ ـ ٥٨٧).

أذنبوا واتبعوا أهواءهم، ويضيفون الحسنات إلى أنفسهم إذا أنعم عليهم بها، كما قال بعض العلماء أنت عند الطاعة قدري، وعند المعصية جبري؛ أي مذهب وافق هواك تمذهبت به.

وأهل الهدى والرشاد إذا فعلوا حسنة شهدوا إنعام الله عليهم بها، وأنه هو الذي أنعم عليهم وجعلهم مسلمين، وجعلهم يقيمون الصلاة وألهمهم التقوى، وأنه لا حول ولا قوة إلا به فزال عنهم بشهود القدر العجب والمن والأذى، وإذا فعلوا سيئة استغفروا الله وتابوا إليه منها؛ ففي صحيح البخاري عن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ «سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت. أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء[1] لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي فاغفر لي فانه لا يغفر الذنوب إلا أنت، من قالها إذا أصبح موقناً بها فمات من ليلته دخل الجنة».

وفي الحديث الصحيح عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «يا عبادي أني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا، يا عبادي! إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جمعياً ولا أبالي فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي! كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي! كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادي! كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي! إنكم لن تبلغوا ضري! فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقي قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص البحر إذا غمس فيه المخيط غمسة واحدة، يا عبادي! إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه».

---

(١) أبوء: أي ارجع، واعترف به.

فأمر سبحانه بحمد الله على ما يجده العبد من خير، وأنه إذا وجد شراً فلا يلومن إلا نفسه.

وكثير من الناس يتكلم بلسان «الحقيقة»، ولا يفرق بين الحقيقة الكونية القدرية المتعلقة بخلقه ومشيئته. وبين الحقيقة الدينية الأمرية المتعلقة برضاه ومحبته. ولا يفرق بين من يقوم بالحقيقة الدينية موافقاً لما أمر الله به على ألسن رسله، وبين من يقوم بوجده وذوقه غير معتبر ذلك بالكتاب والسنة، كما أن لفظ «الشريعة» يتكلم به كثير من الناس، ولا يفرق بين الشرع المنزل من عند الله تعالى وهو الكتاب والسنة الذي بعث الله به رسوله؛ فإن هذا الشرع ليس لأحد من الخلق الخروج عنه ولا يخرج عنه إلا كافر، وبين الشرع الذي هو حكم الحاكم فالحاكم تارة يصيب وتارة يخطيء، هذا إذا كان عالماً عادلاً وإلا ففي السنن عن النبي ﷺ أنه قال: «القضاة ثلاثة قاضيان في النار، وقاض في الجنة: رجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار، ورجل علم الحق فقضى بغيره فهو في النار».

وأفضل القضاة العالمين العادلين سيد ولد آدم محمد ﷺ فقد ثبت عنه في الصحيحين أنه قال: «إنكم تختصمون إليّ ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض، وإنما أقضي بنحو مما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعه من النار» فقد أخبر سيد الخلق أنه إذا قضى بشيء مما سمعه وكان في الباطن بخلاف ذلك، لم يجز للمقضي له أن يأخذ ما قضى به له، وإنه إنما يقطع له به قطعة من النار.

وهذا متفق عليه بين العلماء في الأملاك المطلقة إذا حكم الحاكم بما ظنه حجة شرعية كالبينة والإقرار، وكان الباطن بخلاف الظاهر، لم يجز للمقضي له أن يأخذ ما قضي به له بالاتفاق. وإن حكم في العقود والفسوخ بمثل ذلك؛ فأكثر العلماء يقول إن الأمر كذلك، وهو مذهب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل، وفرق أبو حنيفة رضي الله عنه بين النوعين.

فلفظ «الشرع، والشريعة» إذا أريد به الكتاب والسنة لم يكن لأحد من أولياء

الله ولا لغيرهم أن يخرج عنه، ومن ظن أن لأحد من أولياء الله طريقاً إلى الله، غير متابعة محمد ﷺ باطناً وظاهراً فلم يتابعه باطناً وظاهراً فهو كافر.

ومن احتج في ذلك بقصة موسى مع الخضر كان غالطاً من وجهين:

«أحدهما» إن موسى لم يكن مبعوثاً إلى الخضر، ولا كان على الخضر اتباعه؛ فإن موسى كان مبعوثاً إلى بني إسرائيل، وأما محمد ﷺ فرسالته عامة لجميع الثقلين الجن والإنس. ولو أدركه من هو أفضل من الخضر: كإبراهيم وموسى وعيسى وجب عليهم؛ اتباعه فكيف بالخضر سواء كان نبياً أو ولياً؛ ولهذا قال الخضر لموسى: «أنا على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه؛ وأنت على علم من علم علمكه الله لا أعلمه» وليس لأحد من الثقلين الذين بلغتهم رسالة محمد ﷺ أن يقول مثل هذا.

«الثاني» أن ما فعله الخضر لم يكن مخالفاً لشريعة موسى عليه السلام، وموسى لم يكن علم الأسباب التي تبيح ذلك فلما بينها له وافقه على ذلك، فإن خرق السفينة ثم ترقيعها لمصلحة أهلها خوفاً من الظالم أن يأخذها إحسان إليهم وذلك جائز، وقتل الصائل جائز وإن كان صغيراً، ومن كان تكفيره لأبويه لا يندفع إلا بقتله جاز قتله. قال: ابن عباس رضي الله عنهما لنجدة الحروري[1] لما سأله عن قتل الغلمان - قال له - إن كنت علمت منهم ما علمه الخضر من ذلك الغلام فاقتلهم وإلا فلا تقتلهم، رواه البخاري. وأما الإحسان إلى اليتيم بلا عوض والصبر على الجوع، فهذا من صالح الأعمال فلم يكن في ذلك شيء مخالفاً شرع الله.

وأما إذا أريد بالشرع حكم الحاكم فقد يكون ظالماً وقد يكون عادلاً، وقد يكون صواباً وقد يكون خطأ، وقد يراد بالشرع قول أئمة الفقه: كأبي حنيفة والثوري ومالك بن أنس والأوزاعي والليث بن سعد والشافعي وأحمد وإسحاق وداود وغيرهم، فهؤلاء أقوالهم يحتج لها بالكتاب والسنة، وإذا قلده غيره حيث

---

(١) هونجدة بن عامر الحروري الحنفي، من بني حنيفة، رأس الفرقة النجدية،من كبار أصحاب الثورات في صدر الإسلام، انفرد عن سائر الخوارج بآراء، مال عليه أصحاب ابن الزبير فقتلوه بالجمار، وقيل قتله أصحابه في سنة تسع وستين للهجرة (انظر ترجمته في تاريخ الإسلام وفيات سنة ٦١ - ٨٠ ص ٢٦٠، وشذرات الذهب ١/٧٦).

يجوز ذلك كان جائزاً، أي ليس اتباع أحدهم واجباً على جميع الأمة كاتباع الرسول ﷺ، ولا يحرم تقليد أحدهم كما يحرم اتباع من يتكلم بغير علم.

وأما إن أضاف أحد إلى الشريعة ما ليس منها من أحاديث مفتراة، أو تأول النصوص بخلاف مراد الله ونحو ذلك: فهذا من نوع التبديل، فيجب الرفق بين الشرع المنزل، والشرع المؤول، والشرع المبدل، كما يفرق بين الحقيقة الكونية والحقيقة الدينية الأمرية، وبين ما يستدل عليها بالكتاب والسنة، وبين ما يكتفى فيها بذوق صاحبها ووجده.

فَصل
[الفرق بين الفعل الكوني والأمر الديني]

وقد ذكر الله في كتابه الفرق بين «الارادة» و«الأمر» و«القضاء» و«الإذن» و«التحريم» و«البعث» و«الإرسال» و«الكلام» و«الجعل»: بين الكوني الذي خلقه وقدره وقضاه: وإن كان لم يأمر به ولا يحبه ولا يثبت أصحابه، ولا يجعلهم من أوليائه المتقين، وبين الديني الذي أمر به وشرعه وأثاب عليه وأكرمهم، وجعلهم من أوليائه المتقين وحزبه المفلحين وجنده الغالبين؛ وهذا من أعظم الفروق التي يفرق بها بين أولياء الله وأعدائه، فمن استعمله الرب سبحانه وتعالى فيما يحبه ويرضاه ومات على ذلك كان من أوليائه، ومن كان عمله فيما يبغضه الرب ويكرهه ومات على ذلك كان من أعدائه.

فـ «الإرادة الكونية» هي مشيئة لما خلقه وجميع المخلوقات داخلة في مشيئته وإرادته الكونية، والإرادة الدينية هي المتضمنة لمحبته ورضاه المتناولة لما أمر به وجعله شرعاً وديناً. وهذه مختصة بالإيمان والعمل الصالح قال تعالى الله: ﴿**فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء**﴾[1] وقال نوح عليه السلام لقومه: ﴿**ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم**﴾[2] وقال

---

(١) سورة الأنعام آية ١٢٥.

(٢) سورة هود آية ٣٤.

تعالى: ﴿وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ومالهم من دونه من وال﴾[1] وقال تعالى في الثانية: ﴿ومن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر، يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾[2] وقال في آية الطهارة: ﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم، وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون﴾[3] ولما ذكر ما أحله وما حرمه من النكاح قال: ﴿يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم. والله يريد أن يتوب عليكم، ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً. يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً﴾[4] وقال لما ذكر ما أمر به أزواج النبي ﷺ وما نهاهم عنه: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾[5] والمعنى أنه أمركم بما يذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً، فمن أطاع أمره كان مطهراً قد أذهب عنه الرجس بخلاف من عصاه.

وأما «الأمر» فقال في الأمر الكوني: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾[6] وقال تعالى: ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾[7] وقال تعالى: ﴿أتاها امرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس﴾[8] وأما «الأمر الديني» فقال تعالى: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، يعظكم لعلكم تذكرون﴾[9] وقال تعالى: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعماً يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً﴾[10].

وأما «الإذن» فقال في الكوني لما ذكر السحر: ﴿وما هم بضارين به من أحد إلا باذن الله﴾[11] أي بمشيئته وقدرته؛ وإلا فالسحر لم يبحه الله عز وجل. وقال في «الإذن الديني»: ﴿أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله؟﴾[12] وقال

---

(١) سورة الرعد آية ١١.
(٢) سورة البقرة آية ١٨٥.
(٣) سورة المائدة آية ٦.
(٤) سورة النساء الآيات ٢٦ ـ ٢٨.
(٥) سورة الأحزاب آية ٣٣.
(٦) سورة يس آية ٨٢.
(٧) سورة القمر آية ٥٠.
(٨) سورة يونس آية ٢٤.
(٩) سورة النحل آية ٩٠
(١٠) سورة النساء آية ٥٨.
(١١) سورة البقرة آية ١٠٢.
(١٢) سورة الشورى آية ٢١.

تعالى: ﴿إنا ارسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا، وداعياً إلى الله باذنه﴾[1] وقال تعالى: ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع باذن الله﴾[2] وقال تعالى: ﴿ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها إلا بإذن الله﴾[3].

وأما «القضاء» فقال في الكوني: ﴿فقضاهن سبع سموات في يومين﴾[4] وقال سبحانه: ﴿إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾[5] وقال في الديني: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾[6] أي أمر. وليس المراد به قدر ذلك فإنه قد عبد غيره كما أخبر في غير موضع كقوله تعالى: ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾[7] وقول الخليل عليه السلام لقومه: ﴿أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون؟ فانهم عدو لي إلا رب العالمين﴾[8].

ومن ظن من الملاحدة أن هذا رضا منه بدين الكفار فهو من أكذب الناس وأكفرهم، كمن ظن أن قوله ﴿وقضى ربك﴾ بمعنى قدر، وإن الله سبحانه ما قضى بشيء إلا وقع؛ وجعل عباد الأصنام ما عبدوا إلا الله: فإن هذا من أعظم الناس كفراً بالكتب.

ويما لفظ «البعث» فقال تعالى في البعث الكوني: ﴿فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً﴾[9] وقال في البعث الديني: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾[10] قال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾[11].

وأما لفظ «الإرسال» فقال في الإرسال الكوني: ﴿الم تر أنا أرسلنا الشياطين

---

(١) سورة الأحزاب آية ٤٦.
(٢) سورة النساء آية ٦٤.
(٣) سورة الحشر آية ٥.
(٤) سورة فصلت آية ١٢.
(٥) سورة البقرة آية ١١٧.
(٦) سورة الإسراء آية ٢٣.
(٧) سورة يونس آية ١٨.
(٨) سورة الشعراء آية ٧٦.
(٩) سورة الإسراء آية ٥.
(١٠) سورة الجمعة آية ٢.
(١١) سورة النحل آية ٣٦.

على الكافرين تؤزهم أزاً﴾[1] وقال تعالى: ﴿وهو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته﴾[2] وقال في الديني: ﴿إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً﴾[3] وقال تعالى: ﴿إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾[4] وقال تعالى: ﴿إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم، كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً﴾[5] وقال تعالى: ﴿الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس﴾[6].

وأما لفظ «الجعل» فقال في الكوني: ﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار﴾[7] وقال في الديني: ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا﴾[8] وقال تعالى: ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام﴾[9].

وأما لفظ «التحريم» فقال في الكوني: ﴿وحرمنا عليه المراضع من قبل﴾[10] وقال تعالى: ﴿فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض﴾[11]وقال في الديني: ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به﴾[12]وقال تعالى: ﴿حرمت عليكم أمهاتكم، وبناتكم، وأخواتكم، وعماتكم، وخالاتكم، وبنات الأخ، وبنات الأخت﴾[13]الآية.

وأما لفظ «الكلمات» فقال في الكلمات الكونية ﴿وصدقت بكلمات ربها وكتبه﴾[14]، وثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «أعوذ بكلمات الله التامة كلها من شر ما خلق، ومن غضبه وعقابه وشر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون» وقال ﷺ: «من نزل منزلاً فقال أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل من منزلة ذلك» وكان يقول: «أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، ومن شر ما ذرأ في الأرض ومن شر ما يخرج

(١) سورة مريم آية ٨٣.
(٢) سورة الفرقان آية ٤٨.
(٣) سورة الفتح آية ٨.
(٤) سورة نوح آية ١.
(٥) سورة المزمل آية ١٥.
(٦) سورة الحج آية ٧٥.
(٧) سورة القصص آية ٤١.
(٨) سورة المائدة آية ١٤٨.
(٩) سورة المائدة آية ١٠٣.
(١٠) سورة القصص آية ١٢.
(١١) سورة المائدة آية ٢٦.
(١٢) سورة المائدة آية ٣.
(١٣) سورة النساء آية ٢٣.
(١٤) سورة التحريم آية ١٢.

منها، ومن شرفتن الليل والنهار، ومن شر كل طارق إلا طارقاً يطرق بخيريا رحمن؟»[1].

و «كلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر» هي التي كوَّن بها الكائنات فلا يخرج بر ولا فاجر عن تكوينه ومشيئته وقدرته. وأما «كلماته الدينية» وهي كتبه المنزلة وما فيها من أمره ونهيه، فأطاعها الأبرار وعصاها الفجار.

وأولياء الله المتقون هم المطيعون لكلماته الدينية وجعله الديني وإذنه الديني وإرادته الدينية.

وأما كلماته الكونية التي لا يجاوزها بر ولا فاجر؛ فإنه يدخل تحتها جميع الخلق حتى إبليس وجنوده وجميع الكفار وسائر من يدخل النار، فالخلق وإن اجتمعوا في شمول الخلق والمشيئة والقدرة والقدر لهم، فقد افترقوا في الأمر والنهي والمحبة والرضا والغضب.

وأولياء الله المتقون هم الذين فعلوا المأمور، وتركوا المحظور، وصبروا على المقدور، فأحبهم وأحبوه، ورضي عنهم ورضوا عنه. وأعداؤه أولياء الشياطين، وإن كانوا تحت قدرته فهو يبغضهم، ويغضب عليهم، ويلعنهم ويعاديهم.

وبسط هذه الجمل له موضع آخر، وإنما كتبت هنا تنبيهاً على مجامع «الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» وجمع الفرق بينهما اعتبارهم بموافقة رسول الله ﷺ، فإنه الذي فرق الله تعالى به بين أوليائه السعداء وأعدائه الأشقياء، وبين أوليائه أهل الجنة وأعدائه أهل النار، وبين أوليائه أهل الهدى والرشاد وبين أعدائه أهل الغي والضلال والفساد وأعدائه حزب الشيطان وأوليائه الذين كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه. قال تعالى: **﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله﴾**[2] الآية وقال تعالى: **﴿إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾**[3].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤١٩/٣.

(٢) سورة المجادلة آية ٢٢.

(٣) سورة الأنفال آية ١٢.

وقال في أعدائه ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم﴾[1] وقال: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾[2] وقال: ﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين. تنزل على كل أفاك أثيم. يلقون السمع وأكثرهم كاذبون. والشعراء يتبعهم الغاوون. ألم تر أنهم في كل واد يهيمون. وأنهم يقولون ما لا يفعلون. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً. وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾[3].

فنزه سبحانه وتعالى نبينا محمداً ﷺ عمن تقترن به الشياطين، من الكهان والشعراء والمجانين؛ وبين أن الذي جاءه بالقرآن ملك كريم اصطفاه. قال الله تعالى: ﴿الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس﴾[4] وقال تعالى: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين. نزل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين. بلسان عربي مبين﴾[5]. وقال تعالى: ﴿قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله﴾[6] الآية. وقال تعالى: ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾[7] إلى قوله ﴿وبشرى للمسلمين﴾[8] فسماه الروح الأمين وسماه روح القدس.

وقال تعالى: ﴿فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس﴾[9] يعنى: الكواكب التي تكون في السماء خانسة أي: مختفية قبل طلوعها، فإذا ظهرت رآها الناس جارية في السماء، فإذا غربت ذهبت إلى كناسها الذي يحجبها ﴿والليل إذا عسعس﴾[10] أي إذا أدبر، وأقبل الصبح ﴿والصبح إذا تنفس﴾ أي أقبل ﴿إنه لقول رسول كريم﴾ وهو جبريل عليه السلام ﴿ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين﴾ أي مطاع في السماء أمين ثم قال: ﴿وما صاحبكم بمجنون﴾[11] أي

---

(١) سورة الأنعام آية ١٢١.
(٢) سورة الأنعام آية ١١٢.
(٣) سورة الشعراء الآيات ٢١١ ـ ٢٢٧.
(٤) سورة الحج آية ٧٥.
(٥) سورة الشعراء الآيات ١٩٢ ـ ١٩٥.
(٦) سورة البقرة آية ٩٧.
(٧) سورة النحل آية ٩٨.
(٨) سورة النحل آية ٨٩.
(٩) سورة التكوير آية ١٥ ـ ١٦.
(١٠) سورة التكوير آية ١٧.
(١١) الآيات من سورة التكوير آيات ١٨ ـ٢١.

صاحبكم الذي مَنَّ الله عليكم به إذ بعثه إليكم رسولاً من جنسكم يصحبكم إذ كنتم لا تطيقون أن تروا الملائكة كما قال تعالى: **﴿وقالوا لولا أنزل عليه ملك، ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون. ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً﴾**[1] الآية.

فأولياء الله المتقون هم المقتدون بمحمد ﷺ فيفعلون ما أمر به وينتهون عما عنه زجر؛ ويقتدون به فيما بين لهم أن يتبعوه فيه، فيؤيدهم بملائكته وروح منه، ويقذف الله في قلوبهم من أنواره، ولهم الكرامات التي يكرم الله بها أولياءه المتقين. وخيار أولياء الله كراماتهم لحجة في الدين أو لحاجة بالمسلمين، كما كانت معجزات نبيهم ﷺ كذلك.

[كرامات الأولياء]

وكرامات أولياء الله إنما حصلت ببركة اتباع رسوله ﷺ فهي في الحقيقة تدخل في معجزات الرسول ﷺ: مثل انشقاق القمر، وتسبيح الحصا في كفه، واتيان الشجر إليه، وحنين الجذع إليه، وإخباره ليلة المعراج بصفة بيت المقدس، وإخباره بما كان وما يكون، وإتيانه بالكتاب العزيز، وتكثير الطعام والشراب مرات كثيرة، كما أشبع في الخندق العسكر من قدر طعام وهو لم ينقص في حديث أم سلمة المشهور، وأروى العسكر في غزوة خيبر من مزادة ماء ولم تنقص، وملأ أوعية العسكر عام تبوك من طعام قليل ولم ينقص هم نحو ثلاثين ألفاً، ونبع الماء من بين أصابعه مرات متعددة حتى كفى الناس الذين كانوا معه، كما كانوا في غزوة الحديبية نحو ألف وأربعمائة أو خمسمائة، ورده لعين أبي قتادة حين سالت على خده فرجعت أحسن عينيه، ولما أرسل محمد بن مسلمة لقتل كعب بن الأشرف فوقع وانكسرت رجله فمسحها فبرئت، وأطعم من شواء مائة وثلاثين رجلاً كلاً منهم حز له قطعة وجعل منها قطعتين فأكلوا منها جميعهم ثم فضل فضلة، ودين عبد الله أبي جابر لليهودي وهو ثلاثون وسقاً. قال جابر: فأمر صاحب الدين أن يأخذ التمر جميعه بالذي كان له فلم يقبل فمشى فيها رسول الله ﷺ ثم قال لجابر جد له فوفاه الثلاثين وسقاً وفضل سبعة عشر وسقا، ومثل هذا كثير قد جمعت نحو ألف معجزة.

---

(١) سورة الأنعام آية ٨ ـ ٩.

وكرامات الصحابة والتابعين بعدهم وسائر الصالحين كثيرة جداً: مثل ما كان «أسيد بن حضير» يقرأ سورة الكهف فنزل من السماء مثل الظلة فيها أمثال السرج وهي الملائكة نزلت لقراءته، وكانت الملائكة تسلم على عمران بن حصين، وكان سلمان[1] وأبو الدرداء يأكلان في صحفة فسبحت الصحفة أو سبح ما فيها، وعباد بن بشر وأسيد بن حضير خرجا من عند رسول الله ﷺ في ليلة مظلمة فأضاء لهما مثل طرف السوط فلما افترقا افترق الضوء معهما، رواه البخاري وغيره.

وقصة «الصديق» في الصحيحين لما ذهب بثلاثة أضياف معه إلى بيته وجعل لا يأكلُ لقمة إلا ربى من أسفلها أكثر منها فشبعوا وصارت أكثر مما هي قبل ذلك فنظر إليها أبو بكر وامرأته فإذا هي أكثر مما كانت، فرفعها إلى رسول الله ﷺ، وجاء إليه أقوام كثيرون فأكلوا منها وشبعوا.

و«خبيب بن عدي» كان أسيراً عند المشركين بمكة شرفها الله تعالى وكان يؤتى بعنب يأكله وليس بمكة عنبة.

و «عامر بن فهيرة» قتل شهيداً فالتسموا جسده فلم يقدروا عليه وكان لما قتل رفع فرآه عامر بن الطفيل وقد رفع، وقال: عروة: فيرون الملائكة رفعته.

وخرجت «أم أيمن»[2] مهاجرة وليس معها زاد ولا ماء فكادت تموت من العطش فلما كان وقت الفطر وكانت صائمة سمعت حساً على رأسها فرفعته فإذا دلو معلق فشربت منه حتى رويت وما عطشت بقية عمرها.

و«سفينة» مولى رسول الله ﷺ أخبر الأسد بأنه رسول الله ﷺ فمشى معه الأسد حتى أوصله مقصده.

و «البراء بن مالك» كان إذا أقسم على الله تعالى أبر قسمه، وكان الحرب إذا اشتد على المسلمين في الجهاد يقولون: يا براء! أقسم على ربك، فيقول: يارب! أقسمت عليك لما منحتنا أكتافهم فيهزم العدو، فلما كان يوم «القادسية» قال:

---

(١) أي سلمان الفارسي رضي الله عنه.

(٢) أم أيمن: حاضنة النبي ﷺ ورضي الله عنها يقال اسمها بركة، وهي والدة أسامة بن زيد، ماتت في خلافة عثمان رضي الله عنه (انظر تقريب التهذيب ص ٤٧٤).

أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم وجعلتني أول شهيد، فمنحوا أكتافهم، وقتل البراء شهيداً.

و «خالد بن الوليد» حاصر حصناً منيعاً فقالوا لا نسلم حتى تشرب السم فشربه فلم يضره.

و «سعد بن أبي وقاص» كان مستجاب الدعوة ما دعى قط إلا استجيب له وهو الذي هزم جنود كسرى وفتح العراق.

و «عمر بن الخطاب» لما أرسل جيشاً أمر رجلاً يسمى «سارية» فبينما عمر يخطب فجعل يصيح على المنبر يا سارية الجبل، يا سارية الجبل، فقدم رسول الجيش فسأل فقال يا أمير المؤمنين لقينا عدواً فهزمونا فإذا بصائح: يا سارية الجبل، يا سارية الجبل، فأسندنا ظهورنا بالجبل فهزمهم الله.

ولما عذبت «الزبيرة»[1] على الإسلام في الله فأبت إلا الإسلام وذهب بصرها قال المشركون أصاب بصرها اللات والعزى قالت كلا والله فرد الله عليها بصرها.

ودعا «سعيد بن زيد» على أروى بنت الحكم فأعمى بصرها لما كذبت عليه فقال: اللهم إن كانت كاذبة فأعم بصرها، واقتلها في أرضها، فعميت ووقعت في حفرة من أرضها فماتت.

«والعلاء بن الحضرمي» كان عامل رسول الله ﷺ على البحرين وكان يقول في دعائه: يا عليم! يا حليم! يا علي! يا عظيم! فيستجاب له، ودعا الله بأن يسقوا ويتوضئوا لما عدموا الماء والإسقاء لما بعدهم فأجيب، ودعا الله لما اعترضهم البحر ولم يقدروا على المرور بخيولهم فمروا كلهم على الماء ما ابتلت سروج خيولهم؛ ودعا الله أن لا يروا جسده إذا مات، فلم يجدوه في اللحد.

وجرى مثل ذلك «لأبي مسلم الخولاني» الذي ألقي في النار، فإنه مشى هو

---

(١) ضبطها ابن حجر «زنيرة» بزاي ثم نون ثم ياء، وضبطها ابن عبد البر «زنبرة» بزاي ونون ثم باء، وهي صحابية من السابقات إلى الإسلام، وممن عذب في الله، وكان أبو جهل يعذبها، ثم اشتراها أبو بكر رضي الله عنه وقصتها في الإصابة، (انظر الإصابة في تمييز الصحابة ٣١١/٤ ـ ٣١٢).

ومن معه من العسكر على دجلة وهي ترمي بالخشب من مدها ثم التفت إلى أصحابه فقال: تفقدون من متاعكم شيئاً حتى ادعوا الله عز وجل فيه؟ فقال بعضهم: فقدت مخلاة[1]، فقال اتبعني فتبعه فوجدها قد تعلقت بشيء فأخذها، وطلبه الأسود العنسي لما ادعى النبوة فقال له: أتشهد أني رسول الله. قال ما أسمع، قال أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال نعم، فأمر بنار فألقي فيها فوجدوه قائماً يصلي فيها وقد صارت عليه برداً وسلاماً؛ وقدم المدينة بعد موت النبي ﷺ فأجلسه عمر بينه وبين أبي بكر الصديق رضي الله عنهما وقال الحمد لله الذي لم يمتني حتى أرى من أمة محمد ﷺ من فعل به كما فعل بابراهيم خليل الله. ووضعت له جارية السم في طعامه فلم يضره. وخببت[2] امرأة عليه زوجته فدعا عليها فعميت، وجاءت وتابت فدعا لها فرد الله عليها بصرها.

وكان «عامر بن عبد قيس» يأخذ عطاء ألفي درهم في كمه وما يلقاه سائل في طريقه إلا أعطاه بغير عدد، ثم يجيء بيته فلا يتغير عددها ولا وزنها. ومر بقافلة قد حبسهم الأسد فجاء حتى مس بثيابه الأسد ثم وضع رجله على عنقه وقال: إنما أنت كلب من كلاب الرحمن وإني أستحي أن أخاف شيئاً غيره، ومرت القافلة، ودعا الله تعالى أن يهون عليه الطهور في الشتاء، فكان يؤتى بالماء له بخار، ودعا ربه أن يمنع قلبه من الشيطان وهو في الصلاة فلم يقدر عليه.

وتغيب «الحسن البصري» عن الحجاج فدخلوا عليه ست مرات فدعا الله عز وجل فلم يروه، ودعا على بعض الخوارج كان يؤذيه فخر ميتاً.

و «صلة بن أشيم» مات فرسه وهوفي الغزو، فقال اللهم لا تجعل لمخلوق علي منة ودعا الله عز وجل فأحيا له فرسه. فلما وصل إلى بيته قال يا بني خذ سرج الفرس فإنه عارية، فأخذ سرجه فمات الفرس، وجاع مرة بالأهواز، فدعا الله عز وجل واستطعمه، فوقعت خلفه دوخلة[3] رطب في ثوب حرير فأكل التمر وبقي

---

(١) المخلاة، يقال ناقة مخلاة، إذا أخليت عن ولدها.

(٢) خبب على فلان زوجه: أفسدها عليه.

(٣) الدوخلة: زبيل (قُفّه) من خوص يجعل فيه التمر.

الثوب عند زوجته زماناً. وجاء الأسد وهو يصلي في غيضة بالليل فلما سلم قال له إطلب الرزق من غير هذا الموضع فولى الأسد وله زئير.

وكان «سعيد بن المسيب» في أيام الحرة يسمع الأذان من قبر رسول الله ﷺ أوقات الصلوات، وكان المسجد قد خلا فلم يبق غيره.

ورجل من «النخع» كان له حمار فمات في الطريق فقال له أصحابه هلم نتوزع متاعك على رحالنا فقال لهم: أمهلوني هنيهة ثم توضأ فأحسن الوضوء وصلى ركعتين ودعا الله تعالى فأحيا له حماره فحمل عليه متاعه.

ولما مات «أويس القرني» وجدوا في ثيابه أكفاناً لم تكن معه قبل، ووجدوا له قبراً محفوراً فيه لحد في صخرة فدفنوه فيه وكفنوه في تلك الأثواب.

وكان «عمرو بن عقبة بن فرقد» يصلي يوماً في شدة الحر فأظلته غمامة، وكان السبع يحميه وهو يرعى ركاب أصحابه لأنه كان يشترط على أصحابه في الغزو أنه يخدمهم.

وكان «مطرف بن عبد الله بن الشخير» إذا دخل بيته سبحت معه آنيته، وكان هو وصاحب له يسيران في ظلمة فأضاء لهما طرف السوط.

ولما مات «الأحنف بن قيس» وقعت قلنسوة رجل في قبره فأهوى ليأخذوه فوجد القبر قد فسح فيه مد البصر.

وكان «إبراهيم التيمي» يقيم الشهر والشهرين لا يأكل شيئاً وخرج يمتار لأهله طعاماً فلم يقدر عليه فمر بسهلة حمراء فأخذ منها ثم رجع إلى أهله ففتحها فإذا هي حنطة حمراء فكان إذا زرع منها تخرج السنبلة من أصلها إلى فرعها حباً متراكباً.

وكان «عتبة الغلام» سأل ربه ثلاث خصال صوتاً حسناً ودمعاً غزيراً وطعاماً من غير تكلف. فكان إذا قرأ بكى وأبكى ودموعه جارية دهره، كان يأوي إلى منزله فيصيب فيه قوته ولا يدري من أين يأتيه.

وكان «عبد الواحد بن زيد» أصابه الفالج فسأل ربه أن يطلق له أعضاءه وقت الوضوء فكان وقت الوضوء تطلق له أعضاؤه ثم تعود بعده.

وهـذا باب واسـع قد بسط الكـلام على كـرامـات الأولياء في غيـر هذا الموضع[1].

وأما ما نعرفه عن أعيان ونعرفه في هذا الزمان فكثير.

ومما ينبغي أن يعرف أن الكرامات قد تكون بحسب حاجة الرجل فإذا احتاج إليها الضعيف الإيمان أو المحتاج أتاه منها ما يقوي إيمانه ويسد حاجته، ويكون من هو أكمل ولاية لله منه مستغنياً عن ذلك فلا يأتيه مثل ذلك لعلو درجته وغناه عنها لا لنقص ولايته؛ ولهذا كانت هذه الأمور في التابعين أكثر منها في الصحـابة؛ بخلاف من يجري على يـديه الخـوارق لهدي الخلق ولحـاجتهم فهؤلاء أعظم درجة.

وهذا بخلاف الأحوال الشيطانية مثل حال «عبد الله بن صياد» الذي ظهر في زمن النبي ﷺ وكان قد ظن بعض الصحابة أنه الدجال، وتوقف النبي ﷺ في أمره حتى تبين له فيما بعد أنه ليس هو الدجال؛ لكنه كان من جنس الكهان، قال له النبي ﷺ وقد خبأت لك خبأ قال: الدخ الدخ. وقد كان خبأ له سورة الدخان فقال له النبي ﷺ «إخسأ فلن تعدو قدرك» يعني إنما أنت من أخوان الكهان؛ والكهان كان يكون لأحدهم القرين من الشياطين يخبره بكثير من المغيبات بما يسترقه من السمع، وكانوا يخلطون الصدق بالكذب، كما في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره أن النبي ﷺ قال: «إن الملائكة تنزل في العنان [وهو السحاب] فتذكر الأمر قضي في السماء فتسترق الشياطين السمع فتوحيه إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم».

وفي الحديث الذي رواه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «بينما النبي ﷺ في نفر الأنصار إذ رمي بنجم فاستنار فقال النبي ﷺ: ما كنتم تقولون لمثل هذا في االـجاهلية إذا رأيتموه؟ قالوا كنا نقول يموت عظيم أو يولد عظيم، قال رسول الله ﷺ فإنه لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته؛ ولكن ربنا تبارك وتعالى إذا قضى أمراً سبح حملة العرش، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، حتى

(١) لقد أفاض في هذا الأمر مستقصياً كرامات الأولياء وقصصهم وأحوالهم أبو نعيم الأصبهاني في كتابه «حلية الأولياء» فليراجع، وقد اختصره أبو الفرج ابن الجوزي في كتاب سماه: «صفوة الصفوة».

يبلغ التسبيح أهل هذه السماء، ثم يسأل أهل السماء السابعة حملة العرش ماذا قال ربنا؟ فيخبرونهم، ثم يستخبر أهل كل سماء حتى يبلغ الخبر أهل السماء الدنيا، وتخطف الشياطين السم فيرمون فيقذفونه إلى أوليائهم فما جاءوا به على وجه فهو حق ولكنهم يزيدون».

وفي رواية قال معمر قلت للزهري: أكان يرمى بها في الجاهلية قال نعم ولكنها غلظت حين بعث النبي ﷺ.

و «الأسود العنسي» الذي ادعى النبوة كان له من الشياطين من يخبره ببعض الأمور المغيبة، فلما قاتله المسلمون كانوا يخافون من الشياطين أن يخبروه بما يقولون فيه: حتى أعانتهم عليه امرأته لما تبين لها كفره فقتلوه.

وكذلك «مسيلمة الكذاب» كان معه من الشياطين من يخبره بالمغيبات ويعينه على بعض الأمور، وأمثال هؤلاء كثيرون مثل «الحارث الدمشقي» الذي خرج بالشام زمن عبد الملك بن مروان وادعى النبوة وكانت الشياطين يخرجون رجليه من القيد، وتمنع السلاح أن ينفذ فيه، وتسبح الرخامة إذا مسحها بيده، وكان يُري الناس رجالاً وركباناً على خيل في الهواء ويقول: هي الملائكة، وإنما كانوا جناً، ولما أمسكه المسلمون ليقتلوه طعنه الطاعن بالرمح فلم ينفذ فيه، فقال له عبد الملك: إنك لم تسم الله فسمى الله فطعنه فقتله.

وهكذا أهل «الأحوال الشيطانية» تنصرف عنهم شياطنيهم إذا ذُكر عندهم ما يطردها مثل آية الكرسي، فإنه قد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه لما وكله النبي ﷺ بحفظ زكاة الفطر فسرق منه الشيطان ليلة بعد ليلة وهو يمسكه فيتوب فيطلقه، فيقول له النبي ﷺ «ما فعل أسيرك البارحة» فيقول زعم أنه لا يعود، فيقول «كذبك وإنه سيعود» فلما كان في المرة الثالثة. قال: دعني حتى أعلمك ما ينفعك: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ إلى آخرها، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فلما أخبر النبي ﷺ قال «صدقك وهو كذوب» واخبره انه شيطان(١).

(١) أنظر في فضائل آية الكرسي ما أورده ابن كثير الدمشقي في تفسيره، حيث استقصى الآثار في ذلك=

ولهذا إذا قرأها الإنسان عند الأحوال الشيطانية بصدق أبطلتها مثل من يدخل النار بحال شيطاني أو يحضر سماع المكاء والتصدية فتنزل عليه الشياطين وتتكلم على لسانه كلاماً لا يعلم وربما لا يفقه، وربما كاشف بعض الحاضرين بما في قلبه، وربما تكلم بألسنة مختلفة كما يتكلم الجني على لسان المصروع، والإنسان الذي حصل له الحال لا يدري بذلك بمنزلة المصروع الذي يتخبطه الشيطان من المس. ولبسه، وتكلم على لسانه، فإذا أفاق لم يشعر بشيء مما قال، ولهذا قد يضرب المصروع، وذلك الضرب لا يؤثر في الإنسي ويخبر إذا أفاق إنه لم يشعر بشيء لأن الضرب كان على الجني الذي لبسه.

ومن هؤلاء من يأتيه الشيطان بأطعمة وفواكه وحلوى وغير ذلك مما لا يكون في ذلك الموضع، ومنهم من يطير بهن الجني إلى مكة أو بيت المقدس أو غيرهما، ومنهم من يحمله عشية عرفة ثم يعيده من ليلته فلا يحج حجاً شرعياً؛ بل يذهب بثيابه، ولا يحرم إذا حاذى الميقات. ولا يلبي، ولا يقف بمزدلفة ولا يطوف بالبيت؛ ولا يسعى بين الصفا والمروة، ولا يرمي الجمار، بل يقف بعرفة بثيابه ثم يرجع من ليلته، وهذا ليس بحج، [ولهذا رأى بعض هؤلاء الملائكة تكتب الحجاج] فقال ألا تكتبوني؟ فقالوا لست من الحجاج يعني حجاً شرعياً.

وبين كرامات الأولياء وما يشبهها من الأحوال الشيطانية فروق متعددة:

منها أن «كرامات الأولياء» سببها الإيمان والتقوى، و«الأحوال الشيطانية» سببها ما نهى الله عنه ورسوله. وقد قال تعالى: **﴿قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾** فالقول على الله بغير علم والشرك والظلم والفواحش قد حرمها الله تعالى ورسوله فلا تكون سبباً لكرامة الله تعالى بالكرامات عليها، فإذا كانت لا تحصل بالصلاة والذكر وقراءة القرآن، بل تحصل بما يحبه الشيطان وبالأمور التي فيها شرك كالاستغاثة بالمخلوقات، أو كانت مما

= فليراجع (١/٤٥٥ - ٤٦٤) وفيه ما أخرجه الحاكم في مستدركه عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «سورة البقرة فيها آية سيدة آي القرآن، لا تقرأ في بيت فيه شيطان إلا خرج منه: آية الكرسي» وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

يستعان بها على ظلم الخلق وفعل الفواحش، فهي من الأحوال الشيطانية لا من الكرامات الرحمانية.

ومن هؤلاء من إذا حضر سماع المكاء والتصدية يتنزل عليه شيطانه حتى يحمله في الهواء ويخرجه من تلك الدار، فإذا حصل رجل من أولياء الله تعالى طرد شيطانه فيسقط كما جرى هذا لغير واحد.

ومن هؤلاء من يستغيث بمخلوق إما حي أو ميت سواء كان ذلك الحي مسلماً أو نصرانياً أو مشركاً فيتصور الشيطان بصورة ذلك المستغاث به ويقضي بعض حاجة ذلك المستغيث فيظن أنه ذلك الشخص أو هو ملك على صورته، وإنما هو شيطان أضله لما أشرك بالله، كما كانت الشياطين تدخل الأصنام وتكلم المشركين.

ومن هؤلاء من يتصور له الشيطان، ويقول له: أنا الخضر، وربما أخبره ببعض الأمور وأعانه على بعض مطالبه، كما قد جرى ذلك لغير واحد من المسلمين واليهود والنصارى وكثير من الكفار بأرض المشرق والمغرب، يموت لهم الميت فيأتي الشيطان بعد موته على صورته، وهم يعتقدون أنه ذلك الميت، ويقضي الديون، ويرد الودائع، ويفعل أشياء تتعلق بالميت، ويدخل على زوجته ويذهب، وربما يكونون قد أحرقوا ميتهم بالنار كما تضع كفار الهند فيظنون أنه عاش بعد موته.

ومن هؤلاء شيخ كان بمصر أوصى خادمه فقال: إذا أنا مت فلا تدع أحداً يغسلني فأنا أجيء وأغسل نفسي فلما مات رآى خادمه شخصاً في صورته فاعتقد أنه هو دخل وغسل نفسه فلما قضى ذلك الداخل غسله ـ أي غسلت الميت ـ غاب وكان ذلك شيطاناً، وكان قد أضل الميت، وقال: إنك بعد الموت تجيء فتغسل نفسك، فلما مات جاء أيضاً في صورته ليغوي الأحياء كما أغوى الميت قبل ذلك.

ومنهم من يرى عرشاً في الهواء وفوقه نور، ويسمع من يخاطبه ويقول أنا ربك، فإن كان من أهل المعرفة علم أنه شيطان فزجره واستعاذ بالله فيزول. ومنهم من يرى أشخاصاً في اليقظة يدعى أحدهم أنه نبي أو صديق أو شيخ من الصالحين، وقد جرى هذا لغير واحد. ومنهم من يرى في منامه أن بعض الأكابر: إما الصديق رضي الله عنه أو غيره قد قص شعره أو حلقه أو ألبسه طاقيته أو ثوبه

فيصبح وعلى رأسه طاقية وشعره محلوق أو مقصر، وإنما الجن قد حلقوا شعره أو قصروه وهذه الأحوال الشيطانية تحصل لمن خرج عن الكتاب والسنة وهم درجات والجن الذين يقترنون بهم من جنسهم وهم على مذهبهم، والجن فيهم الكافر والفاسق والمخطىء، فإن كان الإنسي كافراً أو فاسقاً أو جاهلاً دخلوا معه في الكفر والفسوق والضلال، وقد يعاونونه إذا وافقهم على ما يختارونه من الكفر، مثل الإقسام عليهم بأسماء من يعظمونه من الجن وغيرهم، ومثل أن يكتب أسماء الله أو بعض كلامه بالنجاسة أو يقلب فاتحة الكتاب أو سورة الإخلاص أو آية الكرسي أو غيرهن ويكتبهن بنجاسة فيغورون له الماء، وينقلونه بسبب ما يرضيهم من الكفر. وقد يأتونه بما يهواه من امرأة أو صبي إما في الهواء وإما مدفوعاً ملجأ إليه.

إلى أمثال هذه الأمور التي يطول وصفها، والإيمان بها إيمان بالجبت والطاغوت. والجبت السحر، والطاغوت الشياطين والأصنام، وإن كان الرجل مطيعاً لله ورسوله باطناً وظاهراً لم يمكنهم الدخول معه في ذلك أو مسالمته.

ولهذا لما كانت عبادة المسلمين المشروعة في المساجد التي هي بيوت الله كان عمار المساجد أبعد عن الأحوال الشيطانية، وكان أهل الشرك والبدع يعظمون القبور ومشاهد الموتى فيدعون الميت أو يدعون به أو يعتقدون أن الدعاء عنده مستجاب أقرب إلى الأحوال الشيطانية، فإنه ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

وثبت في صحيح مسلم عنه أنه قال قبل أن يموت بخمس ليال: «إن من آمن الناس علي في صحبته وذات يده أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً من أهل الأرض لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله. لا يبقين في المسجد خوخة إلا سدت إلا خوخة أبي بكر، إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك».

وفي الصحيحين عنه أنه ذكر له في مرضه كنيسة بأرض الحبشة، وذكروا من حسنها وتصاوير فيها فقال: «إن أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيها تلك التصاوير أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة».

وفي المسند وصحيح أبي حاتم عنه ﷺ قال: «إن من شرار الخلق تدركهم الساعة وهم أحياء والذين اتخذوا القبور مساجد».

وفي الصحيح عنه ﷺ قال: «لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها» وفي الموطأ عنه أنه قال: اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

وفي السنن عنه أنه قال: «لا تتخذوا قبري عيداً وصلوا عليَّ حيثما كنتم فإن صلاتكم تبلغني».

وقال ﷺ: «ما من رجل يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام»[1] وقال ﷺ: «إن الله وكل بقبري ملائكة يبلغوني عن أمتي السلام»[2] وقال ﷺ: «اكثروا علي الصلاة يوم الجمعة وليلة الجمعة؛ فان صلاتكم معروضة عليّ، قالوا: يا رسول الله! كيف تعرض صلاتنا عليك وقد ارمت - أي بليت؟ - فقال إن الله حرم على الأرض أن تأكل لحوم الأنبياء».

وقد قال الله تعالى في كتابه عن المشركين من قوم نوح عليه السلام: **﴿وقالوا لا تذرن آلهتكم، ولا تذرن وداً ولا سواعاً، ولا يغوث ويعوق ونسراً﴾**[3] قال ابن عباس وغيره من السلف: هؤلاء قوم كانوا صالحين من قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم فعبدوهم، فكان هذا مبدأ عبادة الأوثان. فنهى النبي ﷺ عن اتخاذ القبور مساجد ليسد باب الشرك، كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس ووقت غروبها؛ لأن المشركين يسجدون للشمس حينئذ، والشيطان يقارنها وقت الطلوع ووقت الغروب، فتكون في الصلاة حينئذ مشابهة لصلاة المشركين، فسد هذا الباب.

والشيطان يضل بني آدم حسب قدرته، فمن عبد الشمس والقمر والكواكب

---

(١) انظر سنن أبي داود في المناسك ٩٦، ومسند أحمد ٢/٥٢٧.

(٢) انظر الدارمي في الرقاق ٥٨، وأحمد في المسند ١/٣٨٧، ولفظه فيه: «قال رسول الله ﷺ: إن لله ملائكة في الأرض سياحين يبلغوني من أمتي السلام» وانظر أيضاً المسند ١/٤٤١، ٤٥٢.

(٣) سورة نوح آية ٢٣.

ودعاها ـ كما يفعل أهل دعوة الكواكب ـ فإنه ينزل عليه شيطان يخاطبه ويحدثه ببعض الأمور ويسمون ذلك روحانية الكواكب، وهو شيطان، والشيطان وإن أعان الإنسان على بعض مقاصده فإنه يضره أضعاف ما ينفعه، وعاقبة من أطاعه إلى شر إلا أن يتوب الله عليه، وكذلك عبد الأصنام قد تخاطبهم الشياطين، وكذلك من استغاث بميت أو غائب، وكذلك من دعا الميت أو دعا به أو ظن أن الدعاء عند قبره أفضل منه في البيوت والمساجد، ويروون حديثاً هو كذب باتفاق أهل المعرفة وهو: «إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور» وإنما هذا وضع من فتح باب الشرك.

ويوجد لأهل البدع وأهل الشرك المتشبهين بهم من عباد الأصنام والنصارى والضلال من المسلمين أحوال عند المشاهد يظنونها كرامات وهي من الشياطين: مثل أن يضعوا سراويل عند القبر فيجدونه قد انعقد، أو يوضع عنده مصروع فيرون شيطانه قد فارقه. يفعل الشيطان هذا ليضلهم، وإذ قرأت آية الكرسي هناك بصدق بطل هذا، فإن التوحيد يطرد الشيطان؛ ولهذا حمل بعضهم في الهواء فقال: لا إله إلا الله فسقط، ومثل أن يرى أحدهم أن القبر قد انشق وخرج منه إنسان فيظنه الميت وهو شيطان.

وهذا باب واسع لا يتسع له هذا الموضع.

ولما كان الانقطاع إلى المغارات والبوادي من البدع التي لم يشرعها الله ولا رسوله صارت الشياطين كثيراً ما تأوي إلى المغارات والجبال: مثل مغارة الدم التي بجبل قاسيون، وجبل لبنان الذي بساحل الشام، وجبل الفتح بأسوان بمصر، وجبال بالروم وخراسان وجبال بالجزيرة، وغير ذلك، وجبل اللكام، وجبل الأحيش، وجبل سولان قرب أردبيل، وجبل شهنك عند تبريز وجبل ماشكو عند أقشوان، وجبل نهاوند، وغير ذلك من الجبال التي يظن بعض الناس أن بها رجالاً من الصالحين من الإنس ويسمونهم رجال الغيب، وإنما هناك رجال من الجن، فالجن رجال كما أن الإنس رجال، قال تعالى: **﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً﴾**[1].

---

(١) سورة الجن آية ٦.

ومن هؤلاء من يظهر بصورة رجل شعراني جلده يشبه جلد الماعز فيظن من لا يعرفه أنه إنسي وإنما هو جني، ويقال بكل جبل من هـذه الجبال الأربعـون الأبدال، وهؤلاء الذين يظن أنهم الأبدال هم جن بهذه الجبال، كما يعرف ذلك بطرق متعددة.

وهذا باب لا يتسع هذا الموضع لبسطه وذكر ما نعرفه من ذلك فإنا قد رأينا وسمعنا من ذلك ما يطول وصفه في هذا المختصر الذي كتب لمن سأل أن نذكر له من الكلام على أولياء الله تعالى ما يعرف به جمل ذلك.

والناس في **خوارق العادات** على ثلاثة أقسام:

«قسم» يكذب بوجود ذلك لغير الأنبياء، وربما صدق به مجملاً وكذب ما يذكر له عن كثير من الناس لكونه عنده ليس من الأولياء.

ومنهم من يظن أن كل من كان له نوع من خرق العادة كان ولياً لله وكلا الأمرين خطأ، ولهذا تجد أن هؤلاء يذكرون أن للمشركين وأهل الكتاب نصراء يعينونهم على قتال المسلمين وأنهم من أولياء الله. وأولئك يكذبون أن يكون معهم من له خرق عادة، والصواب القول الثالث وهو أن معهم من ينصرهم من جنسهم لا من أولياء الله عز وجل كما قال الله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض، ومن يتولهم منكم فإنه منهم**﴾[1] وهؤلاء العباد والزهاد الذين ليسوا من أولياء الله المتقيـن المتبعين للكتاب والسنة تقترن بهم الشياطين فيكون لأحدهم من الخوارق ما يناسب حاله؛ لكن خوارق هؤلاء يعارض بعضها بعضاً، وإذا حصل من له تمكن من أولياء الله تعالى أبطلها عليهم، ولا بد أن يكون في أحدهم من الكذب جهلاً أو عمداً، ومن الإثم ما يناسب حال الشياطين المقترنة بهم ليفرق الله بذلك بين أوليائه المتقين وبين المتشبهين بهم من أولياء الشياطين. قال الله تعالى ﴿**هل أنبئكم على من تنزل الشياطين؟ تنزل على كل أفاك أثيم**﴾[2] والأفاك الكذاب. والأثيم الفاجر.

---

(١) سورة المائدة آية ٥١.

(٢) سورة الشعراء آية ٢٢١.

ومن أعظم ما يقوي الأحوال الشيطانية سماع الغناء والملاهي، وهو سماع المشركين، قال الله تعالى: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية﴾[1] قال ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم وغيرهما من السلف، «التصدية» التصفيق باليد، و«المكاء» مثل الصفير، فكان المشركون يتخذون هذا عبادة، وأما النبي ﷺ وأصحابه فعبادتهم ما أمر الله به من الصلاة والقراءة والذكر ونحو ذلك، والاجتماعات الشرعية، ولم يجتمع النبي ﷺ وأصحابه على استماع غناء قط لا بكف ولا بدف، ولا تواجد ولا سقطت بردته؛ بل كل ذلك كذب باتفاق أهل العلم بحديثه.

وكان أصحاب النبي ﷺ إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم أن يقرأ، والباقون يستمعون، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأبي موسى الأشعري: ذكرنا ربنا، فيقرأ وهم يستمعون، ومر النبي ﷺ بأبي موسى الأشعري وهو يقرأ فقال له: «مررت بك البارحة وأنت تقرأ فجعلت أستمع لقراءتك فقال: لو علمت أنك تستمع لحبرته لك تحبيراً» أي لحسنته لك تحسيناً، كما قال النبي ﷺ «زينوا القرآن بأصواتكم» وقال ﷺ: «لله اشهد إذناً [أي استماعاً] إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته»[3]: وقال ﷺ لابن مسعود «اقرأ علي القرآن فقال اقرأ عليك وعليك انزل؟ فقال: إني أحب أن أسمعه من غيري فقرأت عليه سورة النساء، حتى انتهيت إلى هذه الآية ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً؟﴾ قال: حسبك، فإذا عيناه تذرفان من البكاء».

ومثل هذا السماع هو سماع النبيين وأتباعهم، كما ذكره الله في القرآن فقال: ﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح، ومن

---

(١) سورة الأنفال آية ٣٥.

(٢) قال ابن الملقن في تفسير غريب القرآن: «﴿إلا مكاء﴾ أي صفيراً بالأفواه ﴿وتصدية﴾ أي تصفيقاً بالأيدي كفعل الصبيان» (ص ١٥٠).

أخرجه البخاري في التوحيد ٥٢، وأبو داود في الوتر ٢٠، والنسائي في الافتتاح ٨٣، وابن ماجة ١٧٦، والدارمي في فضائل القرآن ٣٤، وأحمد ٢٨٣/٤، ٢٨٥، ٢٩٦، ٣٠٤.

(٣) أخرجه ابن ماجة في الإقامة ١٧٦، وأحمد ١٩/٦، ٢٠.

ذرية إبراهيم وإسرائيل، وممن هدينا واجتبينا، إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً﴾[1] وقال في أهل المعرفة: **﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق﴾**[2] ومدح سبحانه أهل هذا السماع بما يحصل لهم من زيادة الإيمان واقشعرار الجلد ودمع العين فقال تعالى: **﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾**[3] وقال تعالى: **﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً، وعلى ربهم يتوكلون. الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. أولئك هم المؤمنون حقاً، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم﴾**[4].

وأما السماع المحدث، سماع الكف والدف والقصب فلم تكن الصحابة التابعون لهم بإحسان وسائر الأكابر من أئمة الدين يجعلون هذا طريقاً إلى الله تبارك وتعالى، ولا يعدونه من القرب والطاعات، بل يعدونه من البدع المذمومة، حتى قال الشافعي: خلفت ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة يسمونه التغبير يصدون به الناس عن القرآن وأولياء الله العارفون يعرفون ذلك، ويعلمون أن للشيطان فيه نصيباً وافراً، ولهذا تاب منه خيار من حضره منهم.

ومن كان أبعد عن المعرفة وعن كمال ولاية الله كان نصيب الشيطان منه أكثر وهو بمنزلة الخمر، يؤثر في النفوس أعظم من تأثير الخمر؛ ولهذا إذا قويت سكرة أهله نزلت عليهم الشياطين، وتكلمت على ألسنة بعضهم، وحملت بعضهم في الهواء، وقد تحصل عداوة بينهم، كما تحصل بين شراب الخمر فتكون شياطين أحدهم أقوى من شياطين الآخر فيقتلونه، ويظن الجهال أن هذا من كرامات أولياء الله المتقين وإنما هذا مبعد لصاحبه عن الله وهو من أحوال الشياطين؛ فإن قتل المسلم لا يحل إلا بما أحله الله، فكيف يكون قتل المعصوم مما يكرم الله به

---

(١) سورة مريم آية ٥٨.

(٢) سورة المائدة آية ٨٣.

(٣) سورة الزمر آية ٢٣.

(٤) سورة الأنفال الآيات ٢ ـ ٤.

أولياءه؟! وإنما غاية الكرامة لزوم الاستقامة، فلم يكرم الله عبداً بمثل أن يعينه على ما يحبه ويرضاه، ويزيده مما يقربه إليه، ويرفع به درجته.

وذلك أن الخوارق منها ما هو من جنس العلم كالمكاشفات، ومنها ما هو من جنس القدرة والملك كالتصرفات الخارقة للعادات، منها ما هو من جنس الغنى عن جنس ما يعطاه الناس في الظاهر من العلم والسلطان والمال والغنى.

وجميع ما يؤتيه الله لعبده من هذه الأمور إن استعان به على ما يحبه الله ويرضاه ويقربه إليه ويرفع درجته ويأمره الله به ورسوله، ازداد بذلك رفعة وقرباً إلى الله ورسوله، وعلت درجته وإن استعان به على ما نهى الله عنه ورسوله كالشرك والظلم والفواحش، استحق بذلك الذم والعقاب، فإن لم يتداركه الله تعالى بتوبة أو حسنات ماحية وإلا كان كأمثاله من المذنبين؛ ولهذا كثيراً ما يعاقب أصحاب الخوارق تارة بسلبها، كما يعزل الملك عن ملكه ويسلب العالم علمه. وتارة بسلب التطوعات، فينقل من الولاية الخاصة إلى العامة، وتارة ينزل إلى درجة الفساق، وتارة يرتد عن الإسلام. وهذا يكون فيمن له خوارق شيطانية؛ فإن كثيراً من هؤلاء يرتد عن الإسلام، وكثير منهم لا يعرف أن هذه شيطانية بل يظنها من كرامات أولياء الله، ويظن من يظن منهم أن الله عز وجل إذا أعطى عبداً خرق عادة لم يحاسبه على ذلك، كمن يظن أن الله [إذا] أعطى عبداً ملكاً ومالاً وتصرفاً لم يحاسبه عليه، ومنهم من يستعين بالخوارق على أمور مباحة لا مأموراً بها ولا منهياً عنها، فهذا يكون من عموم الأولياء، وهم الأبرار المقتصدون، وأما السابقون المقربون فأعلى من هؤلاء، كما أن العبد الرسول أعلى من النبي الملك[1].

ولكا كانت الخوارق كثيراً ما تنقص بها درجة الرجل كان كثير من الصالحين يتوب من مثل ذلك ويستغفر الله تعالى، كما يتوب من الذنوب: كالزنا والسرقة، وتعرض على بعضهم فيسأل الله زوالها، وكلهم يأمر المريد السالك أن لا يقف عندها ولا يجعلها همته ولا يتبجح بها؛ مع ظنهم أنها كرامات، فكيف إذا كانت بالحقيقة من الشياطين تغويهم بها، فإني أعرف من تخاطبه النباتات بما فيها من

(١) «العبد الرسول»: مثل النبي محمد ﷺ، «والنبي الملك»: مثل سليمان عليه السلام.

المنافع، وإنما يخاطبه الشيطان الذي دخل فيها، وأعرف من يخاطبهم الحجر والشجر وتقول: هنيئاً لك ولي الله، فيقرأ آية الكرسي فيذهب ذلك، وأعرف من يقصد صيد الطير فتخاطبه العصافير وغيرها وتقول: خذني حتى يأكلني الفقراء، ويكون الشيطان قد دخل فيها كما يدخل في الإنس ويخاطبه بذلك، ومنهم من يكون في البيت وهو معلق فيرى نفسه خارجه وهو لم يفتح وبالعكس، وكذلك في أبواب المدينة وتكون الجن قد أدخلته وأخرجته بسرعة أو تمر به أنوار، أو تحضر عنده من يطلبه ويكون ذلك من الشياطين يتصورون بصورة صاحبه، فإذا قرأ آية الكرسي مرة ذهب ذلك كله.

وأعرف من يخاطبه مخاطب ويقول له أنا من أمر الله، ويعده بأنه المهدي الذي بشر النبي ﷺ ويظهر له الخوارق مثل أن يخطر بقلبه تصرف في الطير والجراد في الهواء؛ فإذا خطر بقلبه ذهاب الطير أو الجراد يميناً أو شمالاً ذهب حيث أراد، وإذا خطر بقلبه قيام بعض المواشي أو نومه أو ذهابه حصل له ما أراد من غير حركة منه في الظاهر، وتحمله إلى مكة وتأتي به، وتأتيه بأشخاص في صورة جميلة وتقول له الملائكة الكروبيون أرادوا زيارتك، فيقول في نفسه: كيف تصوروا بصورة المردان؟! فيرفع رأسه فيجدهم بلحى ويقول له علامة أنك أنت المهدي أنك تنبت في جسدك شامة فتنبت ويراها وغير ذلك، وكله من مكر الشيطان.

وهذا باب واسع لو ذكرت ما أعرفه منه لاحتاج إلى مجلد كبير، وقد قال تعالى: **﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن﴾**[1] قال الله تبارك وتعالى: **﴿كلا﴾**، ولفظ **﴿كلا﴾** فيها زجر وتنبيه: زجر عن مثل هذا القول، وتنبيه على ما يخبر به ويؤمر به بعده، وذلك أنه ليس كل من حصل له نعم دنيوية تعد كرامة يكون الله عز وجل مكرماً له بها، ولا كل من قدر عليه ذلك يكون مهيناً له بذلك؛ بل هو سبحانه يبتلي عبده بالسراء والضراء، فقد يعطى النعم الدنيوية لمن لا يحبه. ولا

---

(١) سورة الفجر آية ١٥ ـ ١٦.

هو كريم عنده ليستدرجه بذلك. وقد يحمى منها من يحبه ويواليه لئلا تنقص بذلك مرتبته عنده أو يقع بسببها فيما يكرهه منه.

وأيضاً «كرامات الأولياء» لا بد أن يكون سببها الإيمان والتقوى فما كان سببه الكفر والفسوق والعصيان فهو من خوارق أعداء الله لا من كرامات أولياء الله، فمن كانت خوارقه لا تحصل بالصلاة والقراءة والذكر وقيام الليل والدعاء، وإنما تحصل عند الشرك: مثل دعاء الميت والغائب، أو بالفسق والعصيان وأكل المحرمات: كالحيات والزنانير والخنافس والدم وغيره من النجاسات، ومثل الغناء والرقص؛ لا سيما مع النسوة الأجانب والمردان، وحالة خوارقه تنقص عند سماع القرآن وتقوى عند سماع مزامير الشيطان فيرقص ليلاً طويلاً،فإذا جاءت الصلاة صلى قاعداً أو ينقر الصلاة نقر الديك، وهو يبغض سماع القرآن وينفر عنه ويتكلفه ليس له فيه محبة ولا ذوق ولا لذة عند وجده، ويحب سماع المكاء والتصدية ويجد عنده مواجيد. فهذه أحوال شيطانية؛ وهو ممن يتناوله قوله تعالى: **﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين﴾**[1].

فالقرآن هو ذكر الرحمن، قال الله تعالى: **﴿ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا. ونحشره يوم القيامة أعمى. قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً. قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها، وكذلك اليوم تُنسى﴾**[2] يعني تركت العمل بها، قال ابن عباس رضي الله عنهما: تكفل الله لمن قرأ كتابه وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة؛ ثم قرأ هذه الآية.

---

(١) سورة الزخرف آية ٣٦، ومعنى «يعش» يعرض، كما فسره ابن الملقن (تفسير غريب القرآن ص ٣٦٦).

(٢) سورة طه آية ١٢٤.

الباب السابع



المعجزات والكرامات

وَقَالَ الشّيخ الإمَام العَالم العَلّامة العارف الرباني، المقذوف في قلبه النور القرآني، شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية رضي الله عنه وارضاه.

الحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضاه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا إله سواه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي اصطفاه واجتباه وهداه، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

قَاعِدة شريفَة في المعجزَات والكرامات

وإن كان اسم «المعجزة» يعم كل خارق للعادة في اللغة وعرف الأئمة المتقدمين كالإمام أحمد بن حنبل وغيره ـ ويسمونها: الآيات ـ لكن كثير من المتأخرين يفرق في اللفظ بينهما، فيجعل «المعجزة» للنبي، و «الكرامة» للولي، وجماعهما الأمر الخارق للعادة.

فنقول: صفات الكمال ترجع إلى «ثلاثة»: العلم، والقدرة، والغنى. وإن شئت أن تقول: العلم، والقدرة. والقدرة إما على الفعل وهو التأثير، وإما على الترك وهو الغنى. والأول أجود. وهذه الثلاثة لا تصلح على وجه الكمال إلا لله وحده؛ فإنه الذي أحاط بكل شيء علماً، وهو على كل شيء قدير، وهو غني عن العالمين.

وقد أمر الرسول ﷺ أن يبرأ من دعوى هذه الثلاثة بقوله: **﴿قل لا أقول لكم**

عندي خزائن الله، ولا أعلم الغيب، ولا أقول لكم إني ملك، إن أتبع إلا ما يوحى إلي﴾[1] وكذلك قال نوح عليه السلام. فهذا أول أولي العزم، وأول رسول بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض. وهذا خاتم الرسل وخاتم أولي العزم كلاهما يتبرأ من ذلك. وهذا لأنهم يطالبون الرسول ﷺ تارة بعلم الغيب كقوله: **﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾**[2] و **﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها، قل إنما علمها عند ربي﴾**[3] وتارة بالتأثير، كقوله: **﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً. أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً. أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلا﴾**[4] - إلى قوله - **﴿قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً؟﴾**[5] وتارة يعيبون عليه الحاجة البشرية، كقوله: **﴿وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق؟ لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً. أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها؟﴾**[6].

فأمره أن يخبر أنه لا يعلم الغيب، ولا يملك خزائن الله، ولا هو ملك غني عن الأكل والمال، إن هو إلا متبع لما أوحي إليه، واتباع ما أوحي إليه هو الدين، وهو طاعة الله، وعبادته علماً وعملاً بالباطن والظاهر وإنما ينال من تلك الثلاثة بقدر ما يعطيه الله تعالى فيعلم منه ما علمه إياه، ويقدر منه على ما أقدره الله عليه، ويستغني عما أغناه الله عنه من الأمور المخالفة للعادة المطردة أو لعادة غالب الناس.

فما كان من الخوارق من «باب» فتارة بأن يسمع العبد ما لا يسمعه غيره. وتارة بأن يرى مالا يراه غيره يقظة ومناماً. وتارة بأن يعلم ما لا يعلم غيره وحياً وإلهاماً، أو إنزال علم ضروري، أو فراسة صادقة، ويسمى كشفاً ومشاهدات، ومكاشفات، ومخاطبات: فالسماع مخاطبات، والرؤية مشاهدات، والعلم مكاشفة، ويسمى ذلك كله «كشفاً» و«مكاشفة» أي كشف له عنه.

---

(١) سورة الأنعام آية ٥٠.
(٢) سورة الأنبياء آية ٣٨.
(٣) سورة الأعراف آية ١٨٧ - ١٨٨.
(٤) سورة الإسراء الآيات ٩٠ - ٩٢.
(٥) سورة الإسراء آية ٩٣.
(٦) سورة الفرقان آية ٧ - ٨.

وما كان من «باب القدرة» فهو التأثير، وقد يكون همة وصدقاً ودعوة مجابة، وقد يكون من فعل الله الذي لا تأثير له فيه بحال، مثل هلاك عدوه بغير أثر منه، كقوله «من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة»[1] «وإني لأثأر لأوليائي كما يثأر الليث الحرب». ومثل تذليل النفوس له ومحبتها اياه ونحو ذلك.

وكذلك ما كان من «باب العلم والكشف». قد يكشف لغيره من حاله بعض أمور، كما قال النبي ﷺ في المبشرات: «هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له»[2] وكما قال: النبي ﷺ «أنتم شهداء الله في الأرض»[3].

وكل واحد «من الكشف والتأثير» قد يكون قائماً به، وقد لا يكون قائماً به، بل يكشف الله حاله ويصنع له من حيث لا يحتسب، كما قال يوسف بن أسباط: «ما صدق الله عبد إلا صنع له» وقال: أحمد بن حنبل «لو وضع الصدق على جرح لبرأ» لكن من قام بغيره له من الكشف والتأثير فهو سببه أيضاً، وإن كان خرق عادة في ذلك الغير، فمعجزات الأنبياء وأعلامهم ودلائل نبوتهم تدخل في ذلك.

وقد جمع لنبينا محمد ﷺ جميع أنواع «المعجزات والخوارق»: أما العلم والأخبار الغيبية والسماع والرؤية فمثل أخبار نبينا ﷺ عن الأنبياء المتقدمين وأممهم ومخاطباته لهم وأحواله معهم، وغير الأنبياء من الأولياء وغيرهم بما يوافق ما عند أهل الكتاب الذين ورثوه بالتواتر أو بغيره من غير تعلم له منهم، وكذلك إخباره عن أمور الربوبية والملائكة والجنة والنار بما يوافق الأنبياء قبله من غير تعلم منهم، ويعلم أن ذلك موافق لنقول الأنبياء، تارة بما في أيديهم من الكتب الظاهرة ونحو ذلك من النقل المتواتر، وتارة بما يعلمه الخاصة من علمائهم، وفي مثل هذا قد يستشهد أهل الكتاب وهو من حكمة إبقائهم بالجزية وتفصيل ذلك ليس هذا موضعه.

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٣٨.

(٢) أنظر البخاري في التعبير ١، ٥، ومسلم في الرؤيا ٣، ٤، ٦، والترمذي في الرؤيا ٢، وابن ماجة في الرؤيا ١.

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز ٨٥، ومسلم في الجنائز ٦٠، والترمذي في الجنائز ٦٣، والنسائي في الجنائز ٥٠، وابن ماجة في الجنائز ٢٠، والزهد ٢٥، وأحمد ٢٦١/٢، ٤٩٩، ٥٢٨، و١٧٩/٣، ١٨٦، ٢٤٥، ٢٨١.

فإخباره عن الأمور الغائبة ماضيها وحاضرها هو من «باب العلم الخارق» وكذلك إخباره عن الأمور المستقبلة مثل مملكة أمته وزوال مملكة فارس والروم، وقتال الترك، وألوف مؤلفة من الأخبار التي أخبر بها مذكور بعضها في «كتب دلائل النبوة»، و «سيرة الرسول» و «فضائله» و «كتب التفسير»، و «الحديث» و «المغازي» مثل دلائل النبوة لأبي نعيم والبيهقي وسيرة ابن إسحق، وكتب الأحاديث المسندة كمسند الإمام أحمد، والمدونة كصحيح البخاري، وغير ذلك مما هو مذكور أيضاً في «كتب أهل الكلام والجدل»: كأعلام النبوة للقاضي عبد الجبار وللماوردي، والرد على النصارى للقرطبي، ومصنفات كثيرة جداً. وكذلك ما أخبر عنه غيره مما وجد في كتب الأنبياء المتقدمين وهي في وقتنا هذا إثنان وعشرون نبوة بأيدي اليهود والنصارى، كالتوراة، والإنجيل، والزبور، وكتاب شعيا، وحبقوق، ودانيال، وأرميا وكذلك أخبار غير الأنبياء من الأحبار والرهبان وكذلك أخبار الجن والهواتف المطلقة، وأخبار الكهنة كسطيح وشق وغيرهما، وكذلك المنامات وتعبيرها: كمنام كسرى وتعبير الموبذان، وكذا أخبار الأنبياء المتقدمين بما مضى وما عبر هو من إعلامهم.

وأما «القدرة والتأثير» فإما أن يكون في العالم العلوي أو مادونه وما دونه إما بسيط أو مركب، والبسيط إما الجو وإما الأرض؛ والمركب إما حيوان وإما نبات وإما معدن. والحيوان إما ناطق وإما بهيم؛ فالعلوي كانشقاق القمر، ورد الشمس ليوشع بن نون، وكذلك ردها لما فاتت علياً الصلاة والنبي ﷺ نائم في حجره - إن صح الحديث - فمن الناس من صححه كالطحاوي والقاضي عياض. ومنهم من جعله موقوفاً كأبي الفرج بن الجوزي وهذا أصح. وكذلك معراجه إلى السماوات.

وأما «الجو» فاستسقاؤه، واستصحاؤه غير مرة: كحديث الأعرابي الذي في الصحيحين وغيرهما وكذلك كثرة الرمي بالنجوم عند ظهوره وكذلك اسراؤه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.

وأما «الأرض والماء» فكاهتزاز الجبل تحته وتكثير الماء في عين تبوك وعين الحديبية ونبع الماء من بين أصابعه غير مرة ومزادة المرأة.

وأما «المركبات» فتكثيره للطعام غير مرة في قصة الخندق من حديث جابر

وحديث أبي طلحة، وفي أسفاره، وجراب أبي هريرة، ونخل جابر بن عبد الله، وحديث جابر وابن الزبير في انقلاع النخل له وعوده إلى مكانه، وسقياه لغير واحد من الأرض كعين أبي قتادة.

وهذا باب واسع لم يكن الغرض هنا ذكر أنواع معجزاته بخصوصه وإنما الغرض التمثيل.

وكذلك من باب «القدرة» عصا موسى ﷺ وفلق البحر والقمل والضفادع والدم، وناقة صالح، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى لعيسى، كما أن من باب العلم إخبارهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم.

وفي الجملة لم يكن المقصود هنا ذكر المعجزات النبوية بخصوصها، وإنما الغرض التمثيل بها.

وأما المعجزات التي لغير الأنبياء من «باب الكشف والعلم» فمثل قول عمر في قصة سارية، وإخبار أبي بكر بأن ببطن زوجته أنثى، وإخبار عمر بمن يخرج من ولده فيكون عادلاً، وقصة صاحب موسى في علمه بحال الغلام.

و «القدرة» مثل قصة الذي عنده علم من الكتاب، وقصة أهل الكهف، وقصة مريم، وقصة خالد بن الوليد، وسفينة مولى رسول الله ﷺ وأبي مسلم الخولاني، وأشياء يطول شرحها فإن تعداد هذا مثل المطر. وإنما الغرض التمثيل بالشيء الذي سمعه أكثر الناس. وأما القدرة التي لم تتعلق بفعله فمثل نصر الله لمن ينصره وإهلاكه لمن يشتمه.

فَصْل
[الخارق]

الخارق كشفاً كان أو تأثيراً إن حصل به فائدة مطلوبة في الدين كان من الأعمال الصالحة المأمور بها ديناً وشرعاً، إما واجب وإما مستحب، وإن حصل به أمر مباح كان من نعم الله الدنيوية التي تقتضي شكراً، وإن كان على وجه يتضمن ما هو منهي عنه نهي تحريم أو نهي تنزيه كان سبباً للعذاب أو البغض، كقصة

الذي أوتي الآيات فانسلخ منها: بلعام بن باعوراء؛ لكن قد يكون صاحبها معذوراً لاجتهاد أو تقليد أو نقص عقل أو علم أو غلبة حال أو عجز أو ضرورة فيكون من جنس برح العابد.

و «النهي» قد يعود إلى سبب الخارق وقد يعود إلى مقصوده فالأول مثل أن يدعو الله دعاء منهياً عنه اعتداء عليه. وقد قال تعالى: ﴿**ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين**﴾[1] ومثل الأعمال المنهي عنها إذا أورثت كشفاً أو تأثيراً. والثاني أن يدعو على غيره بما لا يستحقه أو يدعو للظالم بالإعانة، ويعينه بهمته: كخفراء العدو وأعوان الظلمة من ذوي الأحوال؛ فإن كان صاحبه من عقلاء المجانين والمغلوبين غلبة بحيث يعذرون والناقصين نقصاً لا يلامون عليه كانوا برحية. وقد بينت في غير هذا الموضع ما يعذرون فيه وما لا يعذرون فيه، وإن كانوا عالمين قادرين كانوا بلعامية، فإن أتى بخارق على وجه منهي عنه أو لمقصود منهي عنه فإما أن يكون معذوراً معفواً عنه كبرح، أو يكون متعمداً للكذب كبلعام.

فتلخص أن الخارق «ثلاثة أقسام»: محمود في الدين، ومذموم في الدين، ومباح لا محمود ولا مذموم في الدين؛ فإن كان المباح فيه منفعة كان نعمة، وإن لم يكن فيه منفعة كان كسائر المباحات التي لا منفعة فيها كاللعب والعبث.

قال أبو علي الجوزجاني: كن طالباً للاستقامة لا طالباً للكرامة. فإن نفسك منجبلة على طلب الكرامة، وربك يطلب منك الاستقامة. قال الشيخ السهروردي[2] في عوارفه: وهذا الذي ذكره أصل عظيم كبير في الباب، وسر غفل عن حقيقته كثير من أهل السلوك والطلاب. وذلك أن المجتهدين والمتعبدين سمعوا عن سلف الصالحين المتقدمين، وما منحوا به من الكرامات وخوارق العادات، فأبداً نفوسهم لا تزال تتطلع إلى شيء من ذلك، ويحبون أن يرزقوا شيئاً من ذلك. ولعل أحدهم يبقى منكسر القلب متهماً لنفسه في صحة عمله حيث لم يكاشف بشيء من ذلك، ولو علموا سر ذلك لهان عليهم الأمر، فيعلم أن الله يفتح

---

(١) سورة الأنعام آية ٦٣.

(٢) بضم السين والراء وفتح واو وسكون راء ثانية وكسر دال.

على بعض المجاهدين الصادقين من ذلك باباً، والحكمة فيه أن يزداد بما يرى من خوارق العادات وآثار القدرة تفنناً، فيقوى عزمه على هذا الزهد في الدنيا، والخروج من دواعي الهوى، وقد يكون بعض عباده يكاشف بصدق اليقين، ويرفع عن قلبه الحجاب، ومن كوشف بصدق اليقين أغني بذلك عن رؤية خرق العادات؛ لأن المراد منها كان حصول اليقين، وقد حصل اليقين فلو كوشف هذا المرزوق صدق اليقين بشيء من ذلك لازداد يقيناً. فلا تقتضي الحكمة كشف القدرة بخوارق العادت لهذا الموضع استغناء به، وتقتضي الحكمة كشف ذلك لآخر لموضع حاجته، وكان هذا الثاني يكون أتم استعداداً وأهلية من الأول. فسبيل الصادق مطالبة النفس بالاستقامة، فهي كل الكرامة. ثم إذا وقع في طريقه شيء خارق كان كأن لم يقع فما يبالي ولا ينقص بذلك. وإنما ينقص بالإخلال بواجب حق الاستقامة.

فتعلم هذا؛ لأنه أصل كبير للطالبين، والعلماء الزاهدين، ومشايخ الصوفية.

فَصْل
[الكلمات الكونية والدينية]

كلمات الله تعالى «نوعان»: كلمات كونية، وكلمات دينية. فكلماته الكونية هي: التي استعاذ بها النبي ﷺ في قوله «أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر»[1] وقال سبحانه: **﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾**[2] وقال تعالى **﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً﴾**[3] والكون كله داخل تحت هذه الكلمات وسائر الخوارق الكشفية التأثيرية.

و «النوع الثاني» الكلمات الدينية وهي: القرآن وشرع الله الذي بعث به رسوله وهي: أمره ونهيه وخبره، وحظ العبد منها العلم بها والعمل والأمر بما أمر

(١) أخرجه الإمام مالك في موطئه في باب الشعر ١٠ و١٢.

(٢) سورة يس آية ٨٢.

(٣) سورة الأنعام آية ١١٥.

الله به، كما أن حظ العبد عموماً وخصوصاً من الأول العلم بالكونيات، والتأثير فيها. أي بموجبها.

فالأولى قدرية كونية والثانية شرعية دينية، وكشف الأولى العلم بالحوادث الكونية، وكشف الثانية العلم بالمأمورات الشرعية، وقدرة الأولى التأثير في الكونيات، وقدرة الثانية التأثير في الشرعيات، وكما أن الأولى تنقسم إلى تأثير في نفسه، كمشيه على الماء وطيرانه في الهواء وجلوسه على النار، وإلى تأثير في غيره بإسقام وإصحاح، وإهلاك وإغناء وإفقار فكذلك الثانية تنقسم إلى تأثير في نفسه بطاعته لله ورسوله، والتمسك بكتاب الله وسنة رسوله باطناً، وظاهراً، وإلى تأثير في غيره بأن يأمر بطاعة الله ورسوله؛ فيطاع في ذلك طاعة شرعية؛ بحيث تقبل النفوس ما يأمرها به من طاعة الله ورسوله في الكلمات الدينيات. كما قبلت من الأول ما أراد تكوينه فيها بالكلمات الكونيات.

وإذا تقرر ذلك فاعلم أن عدم الخوارق علماً وقدرة لا تضر المسلم في دينه، فمن لم ينكشف له شيء من المغيبات، ولم يسخر له شيء من الكونيات، لا ينقصه ذلك في مرتبته عند الله؛ بل قد يكون عدم ذلك أنفع له في دينه إذا لم يكن وجود ذلك في حقه مأموراً به أمر إيجاب ولا استحباب، وأما عدم الدين والعمل به فيصير الإنسان ناقصاً مذموماً إما أن نجعله مستحقاً للعقاب، وإما أن يجعله محروماً من الثواب، وذلك لأن العلم بالدين وتعليمه والأمر به ينال به العبد رضوان الله وحده وصلاته وثوابه، وإما العلم بالكون والتأثير فيه فلا ينال به ذلك إلا إذا كان داخلاً في الدين، بل قد يجب عليه شكره، وقد يناله به إثم.

إذا عرف هذا فالأقسام ثلاثة: إما أن يتعلق بالعلم والقدرة [أو] بالدين فقط، أو بالكون فقط.

فالأول: كما قال لنبيه ﷺ: **﴿وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق، واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً﴾** فإن السلطان النصير يجمع الحجة والمنزلة عند الله، وهو كلماته الدينية، والقدرية والكونية عند الله بكلماته

(١) سورة الإسراء آية ٨٠.

الكونيات، ومعجزات الأنبياء عليهم السلام تجمع الأمرين، فإنها حجة على النبوة من الله وهي قدرية. وأبلغ ذلك القرآن الذي جاء به محمد ﷺ، فإنه هو شرع الله وكلماته الدينيات، وهو حجة محمد ﷺ على نبوته، ومجيئه من الخوارق للعادات، فهو الدعوة وهو الحجة والمعجزة.

وأما القسم الثاني: فمثل من يعلم بما جاء به الرسول خبراً وأمراً ويعمل به ويأمر به الناس، ويعلم بوقت نزول المطر وتغير السعر، وشفاء المريض، وقدوم الغائب، ولقاء العدو، وله تأثير إما في الأناسي، وإما في غيرهم بإصحاح وإسقام وإهلاك، أو ولادة أو ولاية أو عزل. وجماع التأثير إما جلب منفعة كالمال والرياسة؛ وإما دفع مضرة كالعدو والمرض، أو لا واحد منهما مثل ركوب أسد بلا فائدة؛ أو اطفاء نار ونحو ذلك.

وأما الثالث: فمن يجتمع له الأمران؛ بأن يؤتى من الكشف والتأثير الكوني ما يؤيد به الكشف والتأثير الشرعي. وهو علم الدين والعمل به، والأمر به، ويؤتى من علم الدين والعمل به، ما يستعمل به الكشف والتأثير الكوني؛ بحيث تقع الخوارق الكونية تابعة للأوامر الدينية، أو أن تخرق له العادة في الأمور الدينية؛ بحيث ينال من العلوم الدينية، ومن العمل بها، ومن الأمر بها، ومن طاعة الخلق فيها، ما لم ينله غيره في مطرد العادة، فهذه أعظم الكرامات والمعجزات وهو حال نبينا ﷺ وأبي بكر الصديق وعمر وكل المسلمين.

فهذا القسم الثالث هو مقتضى ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾[1] إذ الأول هو العبادة، والثاني هو الاستعانة، وهو حال نبينا محمد ﷺ والخواص من أمته المتمسكين بشرعته ومنهاجه باطناً وظاهراً، فإن كراماتهم كمعجزاته لم يخرجها إلا لحجة أو حاجة، فالحجة ليظهر بها دين الله ليؤمن الكافر ويخلص المنافق ويزداد الذين آمنوا إيماناً، فكانت فائدتها اتباع دين الله علماً وعملاً، كالمقصود بالجهاد. والحاجة كجلب منفعة يحتاجون إليها كالطعام والشراب وقت الحاجة إليه، أو دفع مضرة عنهم ككسر العدو بالحصى الذي رماهم به فقيل له: ﴿وما رميت إذ رميت

---

(١) سورة الفاتحة آية ٤.

ولكن الله رمى﴾[1]. وكل من هذين يعود إلى منفعة الدين كالأكل والشرب وقتال العدو والصدقة على المسلمين؛ فإن هذا من جملة الدين والأعمال الصالحة.

وأما «القسم الأول» وهو المتعلق بالدين فقط فيكون منه ما لا يحتاج إلى الثاني ولا له فيه منفعة، كحال كثير من الصحابة، والتابعين وصالحي المسلمين، وعلمائهم وعبادهم، مع أنه لا بد أن يكون لهم حاجة أو انتفاعاً بشيء من الخوارق، وقد يكون منهم من لا يستعمل أسباب الكونيات ولا عمل بها، فانتفاء الخارق الكوني في حقه إما لانتفاء سببه وإما لانتفاء فائدته، وانتفاؤه لانتفاء فائدته لا يكون نقصاً، وأما انتفاؤه لانتفاء سببه فقد يكون نقصاً وقد لا يكون نقصاً، فإن كان لإخلاله بفعل واجب وترك محرم كان عدم الخارق نقصاً وهو سبب الضرر، وإن كان لإخلاله بالمستحبات فهو نقص عن رتبة المقربين السابقين وليس هو نقصاً عن رتبة أصحاب اليمين المقتصدين، وإن لم يكن كذلك بل لعدم اشتغاله بسبب بالكونيات التي لا يكون عدمها ناقصاً لثواب لم يكن ذلك نقصاً، مثل من يمرض ولده ويذهب ماله فلا يدعو ليعافى أو يجيء ماله، أو يظلمه ظالم فلا يتوجه عليه لينتصر عليه.

وأما «القسم الثاني» وهو صاحب الكشف والتأثير الكوني فقد تقدم أنه تارة يكون زيادة في دينه، وتارة يكون نقصاً، وتارة لا له ولا عليه وهذا غلب حال أهل الاستعانة، كما أن الأول غالب حال أهل العبادة، وهذا الثاني بمنزلة الملك والسلطان الذي قد يكون صاحبه خليفة نبياً، فيكون خير أهل الأرض، وقد يكون ظالماً من شر الناس، وقد يكون ملكاً عادلاً فيكون من أوساط الناس؛ فإن العلم بالكونيات والقدرة على التأثير فيها بالحال والقلب كالعلم بأحوالها والتأثير فيها بالملك وأسبابه، فسلطان الحال والقلب كسلطان الملك واليد، إلا أن أسباب هذا باطنة روحانية، وأسباب هذا ظاهرة جثمانية. وبهذا تبين لك أن القسم الأول إذا صح فهو أفضل من هذا القسم، وخير عند الله وعند رسوله وعباده الصالحين المؤمنين العقلاء.

---

(١) سورة الأنفال آية ١٧.

وذلك من جوه:

أحدها: أن علم الدين طلباً وخبراً لا ينال إلا من جهة الرسول ﷺ، وأما العلم بالكونيات فأسبابه متعددة، وما اختص به الرسل وورثتهم أفضل مما شركهم فيه بقية الناس، فلا ينال علمه إلا هم وأتباعهم، ولا يعلمه إلا هم وأتباعه.

الثاني: أن الدين لا يعمل به إلا المؤمنون الصاحلون الذين هم أهل الجنة وأحباب الله، وصفوته وأحباؤه وأولياؤه، ولا يأمر به إلا هم.

وأما «التأثير الكوني» فقد يقع من كافر ومنافق وفاجر، تأثيره في نفسه وفي غيره كالأحوال الفاسدة والعين والسحر، وكالملوك والجبابرة المسلطين والسلاطين الجبابرة، وما كان من العلم مختصاً بالصالحين أفضل مما يشترك فيه المصلحون والمفسدون.

الثالث: إن العلم بالدين والعمل به ينفع صاحبه في الآخرة ولا يضره. وأما الكشف والتأثير فقد لا ينفع في الآخرة بل قد يضره كما قال تعالى: ﴿**ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون**﴾[1].

الرابع: إن الكشف والتأثير إما أن يكون فيه فائدة أو لا يكون، فإن لم يكن فيه فائدة؛ كالاطلاع على سيئات العباد وركوب السباع لغير حاجة، والاجتماع بالجن لغير فائدة، والمشي على الماء مع إمكان العبور على الجسر؛ فهذا لا منفعة فيه لا في الدنيا ولا في الآخرة، وهو بمنزلة العبث واللعب وإنما يستعظم هذا من لم ينله. وهو تحت القدرة والسلطان في الكون، مثل من يستعظم الملك أو طاعة الملوك لشخص وقيام الحالة عند الناس بلا فائدة، فهو يستعظمه من جهة سببه لا من جهة منفعته كالمال والرياسة ، ودفع مضرة كالعدو والمرض؛ فهذه المنفعة تنال غالباً بغير الخوارق أكثر مما تنال بالخوارق، ولا يحصل بالخوارق منها إلا القليل، ولا تدوم إلا بأسباب أخرى. وأما الآخر أيضاً فلا يحصل بالخوارق إلا مع الدين. والدين وحده موجب للآخرة بلا خارق، بل الخوارق الدينية الكونية أبلغ من تحصيل الآخرة كحال نبينا محمد ﷺ. وكذلك المال والرياسة التي تحصل لأهل

(١) سورة البقرة آية ١٠٣.

الدين بالخوارق إنما هو مع الدين، وإلا فالخوارق وحدها لا تؤثر في الدنيا إلا أثراً ضعيفاً.

فإن قيل: مجرد الخوارق إن لم تحصل بنفسها منفعة لا في الدين ولا في الدنيا فهي علامة طاعة النفوس له، فهو موجب الرياسة والسلطان، ثم يتوسط ذلك فتجتلب المنافع الدينية، وتدفع المضار الدينية والدنيوية.

قلت: نحن لم نتكلم إلا في منفعة الدين أو الخارق في نفسه من غير فعل الناس. وأما إن تكلمنا فيما يحصل بسببها من فعل الناس فنقول أولاً: الدين الصحيح أوجب لطاعة النفوس وحصول الرياسة من الخارق المجرد كما هو الواقع، فإنه لا نسبة لطاعة من أطيع لدينه إلى طاعة من أطيع لتأثيره، إذ طاعة الأول أعم وأكثر، والمطيع بها خيار بني آدم عقلاً وديناً. وأما الثانية فلا تدوم ولا تكثر ولا يدخل فيها الاجهال الناس، كأصحاب مسيلمة الكذاب وطليحة الأسدي ونحوهم وأهل البوادي والجبال ونحوهم ممن لا عقل له ولا دين.

ثم نقول ثانياً: لو كان الخارق يناله من الرياسة والمال أكثر من صاحب الدين لكان غايته أن يكون ملكاً من الملوك، بل ملكه إن لم يقرنه بالدين فهو كفرعون وكمقدمي الإسماعيلية[1] ونحوهم، وقد قدمنا أن رياسة الدنيا التي ينالها الملوك بسياستهم وشجاعتهم وإعطائهم أعظم من الرياسة بالخارق المجرد، فإن هذه أكثر ما يكون مدة قريبة.

الخامس: أن الدين ينفع صاحبه في الدنيا والآخرة ويدفع عنه مضرة الدنيا والآخرة من غير أن يحتاج معه إلى كشف أو تأثير.

وأما الكشف أو التأثير فإن لم يقترن به الدين وإلا هلك صاحبه في الدنيا

---

(١) الإسماعيلية: هم الذين قالوا بإمامة اسماعيل بن جعفر، وقالوا بعدم خلو الأرض من إمام حي قائم إما ظاهر مكشوف أو باطن مستور، وإن الأئمة تدور أحكامهم على سبعة كأيام الاسبوع، وقالوا أن من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية، واشتهروا بلقب الباطنية لقولهم بأن لكل ظاهر باطن، ولكل تنزيل تأويلاً (انظر الملل والنحل للشهرستاني ١/٢٢٧ ـ ٢٢٨).

والآخرة، أما في الآخرة فلعدم الدين الذي هو أداء الواجبات وترك المحرمات، وأما في الدنيا فإن الخوارق هي من الأمور الخطرة التي لا تنالها النفوس إلا بمخاطرات في القلب والجسم والأهل والمال، فإنه إن سلك طريق الجوع والرياضة المفرطة خاطر بقلبه ومزاجه ودينه، وربما زال عقله ومرض جسمه وذهب دينه، وإن سلك طريق الوله والاختلاط بترك الشهوات ليتصل بالأرواح الجنية وتغيب النفوس عن أجسامها، - كما يفعله مولهوا الأحمدية - فقد أزال عقله وأذهب ماله ومعيشته، وأشقى نفسه شقاء لا مزيد عليه، وعرض نفسه لعذاب الله في الآخرة لما تركه من الواجبات وما فعله من المحرمات، وكذلك إن قصد تسخير الجن بالأسماء والكلمات من الإقسام والعزائم فقد عرض نفسه لعقوبتهم ومحاربتهم، بل لو لم يكن الخارق إلا دلالة صاحب المال المسروق والضال على ماله أو شفاء المريض أو دفع العدو من السلطان والمحاربين - فهذا القدر إذا فعله الإنسان مع الناس ولم يكن عمله ديناً يتقرب به إلى الله كان كأنه قهرمان[1] للناس يحفظ أموالهم، أو طبيب أو صيدلي يعالج أمراضهم، أو أعوان سلطان يقاتلون عنه إذ عمله من جنس عمل اولئك سواء.

ومعلوم أن من سلك هذا المسلك على غير الوجه الديني فإنه يحابي بذلك أقواماً ولا يعدل بينهم، وربما أعان الظلمة بذلك كفعل بلعام وطوائف من هذه الأمة وغيرهم. وهذا يوجب له عداوة الناس التي هي من أكثر أسباب مضرة الدنيا ولا يجوز أن يحتمل المرء ذلك إلا إذا أمر الله به ورسوله؛ لأن ما أمر الله به ورسوله وإن كان فيه مضرة فمنفعته غالبة على مضرته والعاقبة للتقوى.

السادس: إن للدين علماً وعملاً إذا صح فلا بد أن يوجب خرق العادة إذا احتاج إلى ذلك صاحبه. قال الله تعالى: **﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾**[2] وقال تعالى: **﴿إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾**[3] وقال تعالى: **﴿ولو انهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً. وإذاً لآتيناهم**

---

(١) القهرمان: أمين الملك، ووكيله الخاص بتدبير دخله وخرجه.

(٢) سورة الطلاق آية ٢.

(٣) سورة الأنفال آية ٢٩.

من لدنا أجراً عظيماً. ولهديناهم صراطاً مستقيماً﴾[1] وقال تعالى: **﴿ألا إن اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. الذين آمنوا وكانوا يتقون. لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾**[2].

وقال رسول الله ﷺ «اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله»[3] ثم قرأ قوله تعالى: **﴿إن في ذلك لآيات للمتوسمين﴾**[4] رواه الترمذي وحسنه من رواية أبي سعيد.

وقال الله تعالى فيما روى عنه رسول الله ﷺ «من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، وما يتقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يـزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لاعيذنه، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بدله منه»[5] فهذا فيه محاربة الله لمن حارب وليه. وفيه أن محبوبه به يعلم سمعاً وبصراً، وبه يعمل بطشاً وسعياً، وفيه أنه يجيبه إلى ما يطلبه منه من المنافع، ويصرف عنه ما يستعيذ به من المضار. وهذا باب واسع.

وأما الخوارق فقد تكون، مع الدين، وقد تكون مع عدمه أو فساده أو نقصه.

السابع: أن الدين هو إقامة حق العبودية وهو فعل ما عليك وما أمرت به، وأما الخوارق فهي من حق الربوبية إذ لم يؤمر العبد بها، وإن كانت بسعي من العبد فإن الله هو الذي يخلقها بما ينصبه من الأسباب، والعبد ينبغي له أن يهتم بما عليه وما أمر به، وأما اهتمامه بما يفعله الله إذا لم يؤمر بالاهتمام به فهو إما فضول فتكون لما فيها من المنافع كالمنافع السلطانية المالية التي يستعان بها على الدين، كتكثير الطعام والشراب وطاعة الناس إذا رأوها. ولما فيها من دفع المضار عن الدين بمنزلة الجهاد الذي فيه دفع العدو وغلبته.

---

(١) سورة النساء آية ٦٦ ـ ٦٨.

(٢) سورة يونس آية ٦٢.

(٣) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الحجر باب ٦.

(٤) سورة الحجر آية ٧٥.

(٥) مر تخريجه.

ثم هـل الدين محتـاج إليها في الأصـل، ولأن الإيمان بـالنبوة لا يتم إلا بالخارق أو ليس بمحتاج في حق الخاصة بل في حق العامة؟ هذا نتكلم عليه.

وأنفع الخوارق الخارق الديني وهو حال نبينا محمد ﷺ. قال ﷺ «ما من نبي إلا وقد أعطي من الآيات ما آمن على مثله البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله الي فارجو ان اكون اكثرهم تابعاً يوم القيامة» اخرجاه في الصحيحين. وكانت آيته هي دعوته وحجته بخلاف غيـره من الأنبياء. ولهـذا نجد كثيـراً من المنحـرفين منا إلى العيسـوية يفـرون من القرآن، والقـال إلى الحال، كمـا أن المنحرفين منا إلى الموسويـة يفرون من الإيمـان والحال إلى القـال، ونبينا ﷺ صاحب القال والحال، وصاحب القرآن والإيمان.

ثم بعده الخارق المؤيـد للدين المعين له، لأن الخـارق في مرتبـة (إياك نستعين) والدين في مرتبة (إياك نعبد). فأما الخارق الذي لم يعن الدين فإما متاع دنيا أو مبعد صاحبه عن الله تعالى.

فظهر بذلك أن الخوارق النافعة تابعة للدين حادثة له، كما أن الرياسة النافعة هي التابعة للدين، وكذلك المال النافع، كما كان السلطان والمال بيد النبي ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فمن جعلها هي المقصودة وجعل الـدين تابعـاً لها ووسيلة إليها لا لأجل الدين في الأصل فهو يشبه بمن يأكل الدنيا بالدين، وليست حاله كحال من ندين خوف العذاب أو رجاء الجنة فإن ذلك مأمور به وهو على سبيل نجاةوشريعة صحيحة.

والعجب أن كثيراً ممن يزعم أن همه قد ارتفع وارتقى عن أن يكون دينه خوفاً من النار أو طلباً للجنة يجعل همه بدينه أدنى خارق من خوارق الدنيا، ولعله يجتهد اجتهاداً عظيماً في مثله وهذا خطأ؛ ولكن منهم من يكون قصده بهذا تثبيت قلبه وطمأنينته وإيقانه بصحة طريقه وسلوكه، فهو يطلب الآية علامة وبرهاناً على صحة دينه، كما تطلب الأمم من الأنبياء الآيات دلالة على صدقهم، فهذا أعذر لهم في ذلك.

ولهذا لما كان الصحابة رضي الله عنهم مستغنين في علمهم بدينهم وعملهم

به عن الآيات بما رأوه من حال الرسول ونالوه من علم، صار كل من كان عنهم أبعد مع صحة طريقته يحتاج إلى ما عندهم في علم دينه وعمله.

فيظهر مع الأفراد في أوقات الفترات وأماكن الفترات من الخوارق مالا يظهر لهم ولا لغيرهم من حال ظهور النبوة والدعوة.

فصل
[طرق كشف العلم بالكائنات]

العلم بالكائنات وكشفها له طرق متعددة: حسية وعقلية وكشفية وسمعية، ضرورية ونظرية وغير ذلك، وينقسم إلى قطعي وظني وغير ذلك، وسنتكلم إن شاء الله تعالى على ما يتبع منها وما لا يتبع في الأحكام الشرعية، أعني الأحكام الشرعية على العلم بالكائنات من طريق الكشف يقظة ومناماً كما كتبته في الجهاد.

أما العلم بالدين وكشفه فالدين نوعان: أمور خبرية اعتقادية وأمور طلبية عملية. فالاول كالعلم بالله، وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر، ويدخل في ذلك أخبار الأنبياء وأممهم ومراتبهم في الفضائل، وأحوال الملائكة وصفاتهم وأعمالهم، ويدخل في ذلك صفة الجنة والنار وما في الأعمال من الثواب والعقاب، وأحوال الأولياء والصحابة وفضائلهم ومراتبهم وغير ذلك.

وقد يسمى هذا النوع أصول دين، ويسمى العقد الأكبر، ويسمى الجدال فيه بالعقل كلاماً. ويسمى عقائد واعتقادات، ويسمى المسائل العلمية والمسائل الخبرية، ويسمى علم المكاشفة.

والثاني: الأمور العملية الطلبية من أعمال الجوارح والقلب كالواجبات والمحرمات والمستحبات والمكروهات والمباحات؛ فان الأمر والنهي قد يكون بالعلم والاعتقاد، فهو من جهة كونه علماً واعتقاداً أو خبراً صادقاً أو كاذباً يدخل في القسم الأول، ومن جهة كونه مأموراً به أو منهياً عنه يدخل في القسم الثاني، مثل شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فهذه الشهادة من جهة كونها صادقة مطابقة لمخبرها فهي من القسم الأول، ومن جهة أنها فرض واجب وأن

صاحبها بها يصير مؤمناً يستحق الثواب، وبعدمها يصير كافراً يحل دمه وماله فهي من القسم الثاني.

وقد يتفق المسلمون على بعض الطرق الموصلة إلى القسمين كاتفاقهم على أن القرآن دليل فيهما في الجملة، وقد يتنازعون في بعض الطرق كتنازعهم في أن الأحكام العملية من الحسن والقبيح والوجوب والحظر هل تعلم بالعقل كما تعلم بالسمع، أم لا تعلم إلا بالسمع؟ وأن السمع هل هو منشأ الأحكام أو مظهر لها كما هو مظهر للحقائق الثابتة بنفسها؟ وكذلك الاستدلال بالكتاب والسنة والإجماع على المسائل الكبار في القسم الأول مثل مسائل الصفات والقدر وغيرهما مما اتفق عليه أهل السنة والجماعة من جميع الطوائف، وأبى ذلك كثير من أهل البدع المتكلمين بما عندهم على أن السمع لا تثبت به تلك المسائل فاثباتها بالعقل[1] حتى يزعم كثير من القدرية[2] والمعتزلة انه لا يصح الاستدلال بالقرآن على حكمة الله وعدله، وأنه خالق كل شيء وقادر على كل شيء، وتزعم الجهمية من هؤلاء ومن اتبعهم من بعض الأشعرية وغيرهم أنه لا يصح الاستدلال بذلك على علم الله وقدرته وعبادته، وأنه مستو على العرش.

ويزعم قوم من غالية أهل البدع أنه لا يصح الاستدلال بالقرآن والحديث على المسائل القطعية مطلقاً؛ بناء على أن الدلالة اللفظية لا تفيد اليقين بما زعموا.

ويزعم كثير من أهل البدع أنه لا يستدل بالأحاديث المتلقاة بالقبول على مسائل الصفات والقدر ونحوهما مما يطلب فيه القطع واليقين.

ويزعم قوم من غالية المتكلمين أنه لا يستدل بالإجماع على شيء[3]،

---

(١) بالأصل سقط ولعل ما أثبت هنا هو المقصود.

(٢) القدرية فرقة افترقت على اثنين وعشرين فرقة، كل فرقة منها تكفر سائرها، ومنهم فرقتان من المغالين في الكفر وهما الحايطية والحمارية، ويجمع هذه الصفات نفيها عن الله عز وجل صفاته الأزلية وقولها بأنه ليس لله عز وجل علم ولا قدرة ولا حياة ولا سمع ولا بصر ولا صفة أزلية، وقالوا باستحالة رؤية الله عز وجل بالأبصار، وأن كلام الله تعالى حادث، وغير ذلك (انظر الفرق بين الفرق ص ٩٣ - ٩٤).

(٣) الذين انكروا الاجماع هم الخوارج والنظام والرافضة.

ومنهم من يقول لا يصح الاستدلال به على الأمور العلمية لأنه ظني[1]. وأنواع من هذه المقالات التي ليس هذا موضعها.

فإن طرق العلم والظن وما يتوصل به إليهما من دليل أو مشاهدة، باطنة أو ظاهرة، عام أو خاص، فقد تنازع فيه بنو آدم تنازعاً كثيراً.

وكذلك كثير من أهل الحديث والسنة قد ينفي حصول العلم لأحد بغير الطريق التي يعرفها، حتى ينفي أكثر الدلالات العقلية من غير حجة على ذلك. وكذلك الأمور الكشفية التي للأولياء من أهل الكلام من ينكرها، ومن أصحابنا من يغلو فيها، وخيار الأمور أوساطها.

فالطريق العقلية والنقلية والكشفية والخبرية والنظرية طريقة أهل الحديث وأهل الكلام وأهل التصوف قد تجاذبها الناس نفياً وإثباتاً، فمن الناس من ينكر منها ما لا يعرفه، ومن الناس من يغلو فيما يعرفه، فيرفعه فوق قدره وينفي ما سواه. فالمتكلمة والمتفلسفة تعظم الطرق العقلية وكثير منها فاسد متناقض، وهم أكثر خلق الله تناقضاً واختلافاً، وكل فريق يرد على الآخر فيما يدعيه قطعياً.

وطائفة ممن تدعي السنة والحديث يحتجون فيها بأحاديث موضوعة وحكايات مصنوعة يعلم أنها كذب وقد يحتجون بالضعيف في مقابلة القوي، وكثير من المتصوفة والفقراء يبني على منامات وأذواق وخيالات يعتقدها كشفاً وهي خيالات غير مطابقة. وأوهام غير صادقة ﴿**إن يتبعون إلا الظن؛ وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً**﴾[2] فنقول:

أما طرق الأحكام الشرعية التي نتكلم عليها في أصول الفقه فهي - باجماع المسلمين - «الكتاب» لم يختلف أحد من الأئمة في ذلك، كما خالف بعض أهل الضلال في الاستدلال على بعض المسائل الاعتقادية.

---

(١) قال الشوكاني في إرشاد الفحول: «اختلف القائلون بحجية الإجماع هل هو حجة قطعية أو ظنية، فذهب جماعة منهم إلى أنه حجة قطعية، وقال جماعة منهم الرازي الآمدي أنه لا يفيد إلا الظم» (ص ٧٨ - ٧٩) وقال ابن تيمية: «التحقيق أن قطعيه قطعي وظنيه ظني» (مجموع فتاوى ابن تيمية ١٩ / ٢٧٠) يعني أن ما كان دليله قطعي فهو حجة قطعية، وما كان دليله ظني فهو حجة ظنية.

(٢) سورة النجم آية ٢٨.

والثاني: «السنة المتواترة» التي لا تخالف ظاهر القرآن؛ بل تفسره، مثل أعداد الصلاة وأعداد ركعاتها، ونصب الزكاة وفرائضها وصفة الحج والعمرة وغير ذلك من الأحكام التي لم تعلم إلا بتفسير السنة.

وأما السنة المتواترة التي لا تفسر ظاهر القرآن، أو يقال تخالف ظاهره كالسنة في تقدير نصاب السرقة ورجم الزاني وغير ذلك، فمذهب جميع السلف العمل بها أيضاً إلا الخوارج؛ فإن من قولهم ـ أو قول بعضهم ـ مخالفة السنة، حيث قال أولهم للنبي ﷺ في وجهه: إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله. ويحكى عنهم أنهم لا يتبعونه ﷺ إلا فيما بلغه عن الله من القرآن والسنة المفسرة له، وأما ظاهر القرآن إذا خالفه الرسول فلا يعملون إلا بظاهره، ولهذا كانوا مارقة مرقوا من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية. وقال النبي ﷺ لأولهم: «لقد خبت وخسرت إن لم أعدل»[1] فإذا جوز أن الرسول يجوز أن يخون ويظلم فيما ائتمنه الله عليه من الأموال، وهو معتقد أنه أمين الله على وحيه، فقد اتبع ظالماً كاذباً، وجوز أن يخون ويظلم فيما ائتمنه من المال هو صادق أمين فيما ائتمنه الله عليه من خبر السماء؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «أيأمنني من في السماء ولا تأمنوني»؟[2] أو كما قال. يقول ﷺ إن أداء الأمانة في الوحي أعظم والوحي الذي أوجب الله طاعته هو الوحي بحكمه وقسمه.

وقد ينكر هؤلاء كثيراً من السنن طعناً في النقل لا رداً للمنقول كما ينكر كثير

---

(١) في رواية مسلم للحديث قال: «لما كان يوم حنين آثر رسول الله ﷺ ناساً في القسمة، فأعطى الأقرع ابن حابس مائة من الإبل. وأعطى عيينة مثل ذلك. وأعطى أناساً من أشراف العرب، وآثرهم يومئذ في القسمة. فقال رجل: والله إن هذه لقسمة ما عدل فيها، وما أريد فيها وجه الله. قال فقلت: والله لأخبرن رسول الله ﷺ. قال: فأتيته فأخبرته بما قال. قال: فتغير وجهه حتى كان كالصرف. ثم قال «فمن يعدل إن لم يعدل الله ورسوله» قال: ثم قال: «يرحم الله موسى. قد أوذي بأكثر من هذا فصبر» (٢/٧٣٩) وأخرجه أيضاً البخاري في الخمس ١٩.

(٢) هي رواية أخرى للحديث الآنف الذكر حيث أورده مسلم بلفظ: «. . . أيأمنني على أهل الأرض ولا تأمنوني» (مسلم ٢/٧٤١) ورواية أخرى: «ألا تأمنوني؟ وأنا أمين من في السماء، يأتيني خبر السماء صباحاً ومساءً (مسلم ٢/٧٤٢) وانظر البخاري في كتاب الأنبياء ٦ والتوحيد ٢٣، وأبو داود في السنة ٢٨، والنسائي في الزكاة ٧٩ وتحريم الدم ٢٦، وأحمد ٣/٦٨، ٧٣.

من أهل البدع السنن المتواترة عند أهل العلم كالشفاعة والحوض والصراط والقدر وغير ذلك.

الطريق الثالث: «السنن المتواترة» عن رسول الله ﷺ؛ إما متلقاة بالقبول بين أهل العلم بها؛ أو برواية الثقاب لها. وهذه أيضاً مما اتفق أهل العلم على اتباعها من أهل الفقه والحديث والتصوف وأكثر أهل العلم، وقد أنكرها بعض أهل الكلام. وأنكر كثير منهم أن يحصل العلم بشيء منها وإنما يوجب العلم. فلم يفرقوا بين المتلقي بالقبول وغيره، وكثير من أهل الرأي قد ينكر كثيراً منها بشروط اشترطها، ومعارضات دفعها بها ووضعها، كما يرد بعضهم بعضاً، لأنه بخلاف ظاهر القرآن فيما زعم، أو لأنه خلاف الأصول، أو قياس الأصول، أو لأن عمل متأخري أهل المدينة على خلافه أو غير ذلك من المسائل المعروفة في كتب الفقه والحديث وأصول الفقه.

الطريق الرابع: الإجماع وهو متفق عليه بين عامة المسلمين من الفقهاء والصوفية وأهل الحديث والكلام وغيرهم في الجملة، وأنكره بعض أهل البدع من المعتزلة والشيعة، لكن المعلوم منه هو ما كان عليه الصحابة، وأما ما بعد ذلك فتعذر العلم به غالباً، ولهذا اختلف هل العلم فيما يذكر من الإجماعات الحادثة بعد الصحابة واختلف في مسائل منه كاجماع التابعين على أحد قولي الصحابة، والإجماع الذي لم ينقرض عصر أهله حتى خالفهم بعضهم، والإجماع السكوتي[1] وغير ذلك.

الطريق الخامس: «القياس على النص والإجماع». وهو حجة أيضاً عند جماهير الفقهاء لكن كثيراً من أهل الرأي أسرف فيه حتى استعمله قبل البحث عن النص، وحتى رد به النصوص، وحتى استعمل منه الفاسد، ومن أهل الكلام وأهل

(١) الإجماع السكوتي الذي اعتبره الأحناف حجة، لم يعتبره الشافعي حجة وقدم عليه القياس، ونقل الرازي عن الشافعي أنه: «إذا قال بعض أهل العصر قولاً وكان الباقون حاضرين لكنهم سكتوا وما أنكروه، فمذهب الشافعي وهوالحق أنه ليس بإجماع ولا حجة» (المحصول في علم الأصول ٢ قسم ١ /٢١٥).

الحديث وأهل القياس من يذكره رأساً، وهي مسألة كبيرة والحق فيها متوسط بين الاسراف والنقص.

الطريق السادس: «الاستصحاب»[1] وهو البقاء على الأصل فيما لم يعلم ثبوته وانتفاؤه بالشرع. وهو حجة على عدم الاعتقاد بالاتفاق، وهل هو حجة في اعتقاد العدم؟ فيه خلاف، ومما يشبهه الاستدلال بعدم الدليل السمعي على عدم الحكم الشرعي، مثل أن يقال: لو كانت الأضحية أو الوتر واجباً لنصب الشرع عليه دليلاً شرعياً، إذ وجوب هذا لا يُعلم بدون الشرع، ولا دليل، فلا وجوب.

فالاول يبقى على نفي الوجوب والتحريم المعلوم بالعقل حتى يثبت المغير له. وهذا استدلال بعدم الدليل السمعي المثبت على عدم الحكم، إذ يلزم من ثبوت مثل هذا الحكم ثبوت دليله السمعي؛ كما يستدل بعدم النقل لما تتوفر الهمم والدواعي على نقله، وما توجب الشريعة نقله، وما يعلم من دين أهلها وعادتهم أنهم ينقلونه على أنه لم يكن؛ كالاستدلال بذلك على عدم زيادة في القرآن وفي الشرائع الظاهرة، وعدم النص الجلي بالإمامة على علي أو العباس أو غيرهما؛ ويعلم الخاصة من أهل العلم بالسنن والآثار وسيرة النبي ﷺ وخلفائه انتفاء أمور من هذا، لا يعلم انتفاءهم غيرهم؛ ولعلمهم بما ينفيها من أمور منقولة يعلمونها هم؛ ولعلمهم بانتفاء لوازم نقلها، فإن وجود أحد الضدين ينفي الآخر، وأنتفاء اللازم دليل على انتفاء الملزوم.

الطريق السابع: «المصالح المرسلة» وهو أن يرى المجتهد أن هذا الفعل يجلب منفعة راجحة؛ وليس في الشرع ما ينفيه؛ فهذه الطريق فيها خلاف مشهور، فالفقهاء يسمونها «المصالح المرسلة»، ومنهم من يسميها الرأي، وبعضهم يقرب إليها الاستحسان، وقريب منها ذوق الصوفية ووجدهم وإلهاماتهم؛ فإن حاصلها أنهم يجدون في القول والعمل مصلحة في قلوبهم وأديانهم ويذوقون طعم ثمرته، وهذه مصلحة، لكن بعض الناس يخص المصالح المرسلة بحفظ النفوس والأموال والأعراض والعقول والأديان. وليس كذلك، بل المصالح المرسلة في جلب

---

(١) الاستصحاب قال به الجمهور، وخالف به الأحناف.

المنافع وفي دفع المضار، وما ذكروه من دفع المضار عن هذه الأمور الخمسة فهو أحد القسمين.

وجلب المنفعة يكون في الدنيا وفي الدين، ففي الدنيا كالمعاملات والأعمال التي يقال فيها مصلحة للخلق من غير حظر شرعي، وفي الدين ككثير من المعارف والأحوال والعبادات والزهادات التي يقال فيها مصلحة للإنسان من غير منع شرعي. فمن قصر المصالح على العقوبات التي فيها دفع الفساد عن تلك الأحوال ليحفظ الجسم فقط فقد قصر.

وهذا فصل عظيم ينبغي الاهتمام به فإن من جهته حصل في الدين اضطراب عظيم، وكثير من الأمراء والعلماء والعباد رأوا مصالح فاستعملوها بناء على هذا الأصل، وقد يكون منها ما هو محظور في الشرع ولم يعلموه وربما قدم على المصالح المرسلة كلاماً بخلاف النصوص، وكثير منهم من أهمل مصالح يجب اعتبارها شرعاً بناء على أن الشرع لم يرد بها، ففوت واجبات ومستحبات، أو وقع في محظورات ومكروهات، وقد يكون الشرع ورد بذلك ولم يعلمه.

وحجة الأول: أن هذه مصلحة والشرع لا يهمل المصالح، بل قد دل الكتاب والسنة والإجماع على اعتبارها، وحجة الثاني: ان هذا أمر لم يرد به الشرع نصاً ولا قياساً.

والقول بالمصالح المرسلة يشرع من الدين ما لم يأذن به الله [غالباً]. وهي تشبه من بعض الوجوه مسألة الاستحسان والتحسين العقلي والرأي ونحو ذلك. فإن الاستحسان طلب الحسن والأحسن كالاستخراج، وهو رؤية الشيء حسناً كما أن الاستقباح رؤيته قبيحاً، والحسن هو المصلحة، فالاستحسان والاستصلاح متقاربان، والتحسين العقلي قول بأن العقل يدرك الحسن، لكن بين هذه فروق.

والقول الجامع أن الشريعة لا تهمل مصلحة قط، بل الله تعالى قد أكمل لنا الدين وأتم النعمة، فما من شيء يقرب إلى الجنة إلا وقد حدثنا به النبي ﷺ وتركنا على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعده إلا هالك، لكن ما اعتقده العقل مصلحة وإن كان الشرع لم يرد به فأحد الأمرين لازم له، إما أن الشرع دل عليه من حيث لم يعلم هذا الناظر أو أنه ليس بمصلحة، وإن اعتقده مصلحة؛ لأن

المصلحة هي المنفعة الحاصلة أو الغالبة، وكثيراً ما يتوهم الناس أن الشيء ينفع في الدين والدنيا ويكون فيه منفعة مرجوحة بالمضرة، كما قال تعالى في الخمر والميسر: ﴿**قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما**﴾[1].

وكثير مما ابتدعه الناس من العقائد والأعمال من بدع أهل الكلام وأهل التصوف وأهل الرأي وأهل الملك حسبوه منفعة أو مصلحة نافعاً وحقاً وصواباً ولم يكن كذلك، بل كثير من الخارجين عن الإسلام من اليهود والنصارى والمشركين والصابئين والمجوس يحسب كثير منهم أن ما هم عليه من الاعتقادات والمعاملات والعبادات مصلحة لهم في الدين والدنيا، ومنفعة لهم، فقد ﴿**ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً**﴾[2] وقد زين لهم سوء عملهم فرأوه حسناً. فإذا كان الإنسان يرى حسناً ما هو سيء كان استحسانه أو استصلاحه قد يكون من هذا الباب. وهذا بخلاف الذين جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً. فإن باب جحود الحق ومعاندته غير باب جهله والعمى عنه، والكفار فيهم هذا وفيهم هذا، وكذلك في أهل الأهواء من المسلمين القسمان. فإن الناس كما أنهم في باب الفتوى والحديث يخطئون تارة ويتعمدون الكذب أخرى، فكذلك هم في أحوال الديانات، وكذلك في الأفعال قد يفعلون ما يعلمون أنه ظلم وقد يعتقدون أنه ليس بظلم هو ظلم فإن الإنسان كما قال الله تعالى: ﴿**وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا**﴾[3] فتارة يجهل وتارة يظلم: ذلك في قوة علمه وهذا في قوة عمله.

واعلم أن هذا الباب مشترك بين أهل العلم والقول وبين أهل الإرادة والعمل فذلك يقول هذا جائز أو حسن بناء على مارآه وهذا يفعله من غير اعتقاد تحريمه أو اعتقاد أنه خير له كما يجد نفعاً في مثل السماع المحدث: سماع المكاء والتصدية واليراع التي يقال لها الشبابة والصفارة والأوتار وغير ذلك وهذا يفعله لما يجده من لذته وقد يفعله لما يجده من منفعة دينه بزيادة أحواله الدينية كما يفعل مع القرآن.

---

(١) سورة البقرة آية ٢١٩.

(٢) سورة الكهف آية ١٠٤.

(٣) سورة الأحزاب آية ٧٢.

وهذا يقول جائز لما يرى من تلك المصلحة والمنفعة، وهو نظير المقالات المبتدعة. وهذا يقول هو حق لدلالة القياس العقلي عليه. وهذا يقول يجوز ويجب اعتقادها وادخالها في الدين إذا كانت كذلك، وكذلك سياسات ولاة الأمور من الولاة والقضاة وغير ذلك.

واعلم أنه لا يمكن العاقل أن يدفع عن نفسه أنه قد يميز بعقله بين الحق والباطل، والصدق والكذب، وبين النافع والضار، والمصلحة والمفسدة. ولا يمكن المؤمن أن يدفع عن إيمانه أن الشريعة جاءت بما هو الحق والصدق في المعتقدات، وجاءت بما هو النافع والمصلحة في الأعمال التي تدخل فيها الاعتقادات، ولهذا لم يختلف الناس أن الحسن أو القبيح إذا فسر بالنافع والضار والملائم للانسان والمنافي له واللذيذ والأليم - فإنه قد يعلم بالعقل، هذا في الأفعال.

وكذلك إذا فسر حسنه بأنه موجود أو كمال الموجود يوصف بالحسن ومنه قوله تعالى ﴿**ولله الأسماء الحسنى**﴾[1] وقوله ﴿**الذي أحسن كل شيء خلقه**﴾[2] كما نعلم أن الحي أكمل من الميت في وجوده، وأن العالم أكمل من الجاهل، وأن الصادق أكمل من الكاذب - فهذا أيضاً قد يعلم بالعقل. وإنما اختلفوا في أن العقل هل يعتبر المنفعة والمضرة. وإنه هل «باب التحسين» واحد في الخالق والمخلوق؟

فأما الوجهان الأولان فثابتان في أنفسهما، ومنهما ما يعلم بالعقل: الأول في الحق المقصود، والثاني في الحق الموجود. (الأول) متعلق بحب القلب وبغضه وارادته وكراهته وخطابه بالأمر والنهي. و(الثاني) متعلق بتصديقه وتكذيبه واثباته ونفيه وخطابه الخبري المشتمل عن النفي والاثبات. والحق والباطل يتناول النوعين، فإن الحق يكون بمعنى الموجود الثابت. والباطل بمعنى المعدوم المنتفي، والحق بازاء ما ينبغي قصده طلبه وعمله. وهو النافع. والباطل بازاء ما لا ينبغي قصده ولا طلبه لا عمله، وهو غير النافع، والمنفعة تعود إلى حصول النعمة

---

(١) سورة الأعراف آية ١٨٠.

(٢) سورة السجدة آية ٧.

واللذة والسعادة التي هي حصول اللذة، ودفع الألم هو حصول المطلوب، وزوال المرهوب. حصول النعيم وزوال العذاب. وحصول الخير وزوال الشر. ثم الموجود والنافع قد يكون ثابتاً دائماً، وقد يكون منقطعاً لا سيما إذا كان زمناً يسيراً فيستعمل الباطل كثيراً بازاء ما لا يبقى من المنفعة، وبازاء ما لا يدوم من الوجود. كما يقال الموت حق والحياة باطل، وحقيقته أنه يستعمل بازاء ما ليس من المنافع خالصاً أو راجحاً، كما تقدم القول فيه فيما يزهد فيه، وهو ما ليس بنافع. والمنفعة المطلقة هي الخالصة أو الراجحة. وأما ما يفوت أرجح منها أو يعقب ضرراً ليس هو دونها فإنها باطل في الاعتبار، والمضرة أحق باسم الباطل من المنفعة. وأما ما يظن فيه منفعة وليس كذلك أو يحصل به لذة فاسدة فهذا لا منفعة فيه بحال. فهذه الأمور التي يشرع الزهد فيها وتركها وهي باطل؛ ولذلك ما نهى الله عنه ورسوله باطل ممتنع أن يكون مشتملاً على منفعة خالصة أو راجحة. ولهذا صارت أعمال الكفار والمنافقين باطلة لقوله: ﴿**لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى، كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر، فمثله كمثل صفوان عليه تراب**﴾[1] الآية. أخبر أن صدقة المرائي والمنان باطلة لم يبق فيها منفعة له. وكذلك قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم**﴾[2] وكذلك الإحباط في مثل قوله ﴿**ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله**﴾[3] ولهذا تسميه الفقهاء العقود.

«والعبادات» بعضها صحيح وبعضها باطل وهو ما لم يحصل به مقصوده ولم يترتب عليه أثره، فلم يكن فيه المنفعة المطلوبة منه. ومن هذا قوله ﴿**والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء**﴾[4] الآية وقوله ﴿**مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته**﴾[5] وقوله ﴿**وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً**﴾[6] ولذلك

---

(١) سورة البقرة آية ٢٦٤.
(٢) سورة محمد آية ٣٣.
(٣) سورة الفاتحة آية ٥.
(٤) سورة النور آية ٣٩.
(٥) سورة آل عمران آية ١١٧.
(٦) سورة الفرقان آية ٢٣.

وصف الاعتقادات والمقالات بأنها باطلة ليست مطابقة ولا حقاً، كما أن الأعمال ليست نافعة.

وقد توصف الاعتقادات والمقالات بأنها باطلة إذا كانت غير مطابقة إن لم يكن فيها منفعة، كقوله ﷺ: «اللهم إني اعوذ بك من علم لا ينفع»[1] فيعود الحق فيما يتعلق بالإنسان إلى ما ينفعه من علم وقول وعمل وحال، قال الله تعالى **﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها﴾**[2] إلى قوله **﴿كذلك يضرب الله الحق والباطل، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال﴾**[3] وقال تعالى: **﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم. والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد﴾** إلى قوله **﴿كذلك يضرب الله للناس أمثالهم﴾**.[4]

وإذا كان كذلك وقد علم أن كل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل حابط لا ينفع صاحبه وقت الحاجة إليه، فكل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل، لأن ما لم يرد به وجهه إما أن لا ينفع بحال، وإما أن ينفع في الدنيا أو في الآخرة. فالأول ظاهر، وكذلك منفعته في الآخرة بعد الموت، فإنه قد ثبت بنصوص المرسلين أنه بعد الموت لا ينفع الإنسان من العمل إلا ما أراد به وجه الله. وأما في الدنيا فقد يحصل له لذات وسرور، وقد يجزى بأعماله في الدنيـا، لكن تلك اللذات إذا كانت تعقب ضرراً اعظم منها وتفوت أنفع منها وابقى. فهي باطلة أيضاً، فثبت ان كل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل وان كان فيه لذة ماً.

وأما الكائنات فقد كانت معدومة منتفية، فثبت أن أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: «ألا كل شيء ما خلا الله باطل» وكما قال ﷺ «أصدق كلمة قالها شاعر

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر ٧٣، وأبو داود في الوتر ٣٢، والترمذي في الدعوات ٦٨، والنسائي في الاستعاذة ١٣ و١٨ و٢١ و٦٤، وابن ماجة في المقدمة ٢٣ والدعاء ٢و٣، وأحمد ١٦٧/٢، ١٩٨، ٣٤٠، ٣٦٥، ٤٥١، و١٩٢/٣، ٢٥٥، ٢٨٣، و٣٧١/٤، ٣٨١.

(٢) و(٣) سورة الرعد آية ١٧.

(٤) سورة محمد الآيات ١ ـ ٣.

قول لبيد«ألا كل شيء ما خلا الله باطل»[1] وانها تجمع الحق الموجود والحق المقصود، وكل موجود بدون الله باطل، وكل مقصود بدون قصد الله فهو باطل، وعلى هذين فقد فسر قوله (كل شيء هالك إلا وجهه)[2] إلا ما أريد به وجهه، وكل شيء معدوم إلا من جهته. هذا على قول، واما القول الآخر وهو المأثور عن طائفة من السلف وبه فسره الإمام أحمد رحمه الله في رده على الجهمية والزنادقة قال أحمد: وأما قوله **﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾** وذلك أن الله أنزل **﴿كل من عليها فان﴾**[3] فقالت الملائكة: هلك أهل الأرض، وطمعوا في البقاء، فأنزل الله تعالى أنه يخبر عن أهل السموات والأرض أنكم تموتون فقال: كل شيء من الحيوان هالك - يعني ميتاً - إلا وجهه، فإنه حي لا يموت، فلما ذكر ذلك أيقنوا عند ذلك بالموت» ذكر ذلك في رده على الجهمية قولهم إن الجنة والنار تفنيان.

وقد تبين مما دكرناه أن الحسن هو الحق والصدق والنافع والمصلحة والحكمة والصواب. وإن الشيء القبيح هو الباطل والكذب والضار والمفسدة والسفه والخطأ.

وأما مواضع الاشتباه والنزاع واختلاف الخلائق فموضع واحد وذلك أن فعل الله كله حسن جميل، قال الله عز وجل: **﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾**[4] وقال تعالى **﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾**[5] وقال تعالى **﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون﴾**[6].

وقال النبي ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال»[7] وهو حكم عدل قال الله تعالى **﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولواالعلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو**

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في مناقب الأنصار ٢٦ والأدب ٩٠ والرقاق ٢٩، ومسلم في الشعر ٢ - ٦، وابن ماجة في الأدب ٤١، وأحمد ٢/٢٤٨، ٣٩٣، ٤٥٨، ٤٧٠.

(٢) سورة القصص آية ٨٨.

(٣) سورة الرحمن آية ٨٨.

(٤) سورة السجدة آية ٧.

(٥) سورة النمل آية ٨٨.

(٦) سورة الأعراف آية ١٨٠.

(٧) أخرجه مسلم في الإيمان ١٤٧، وابن ماجة في الدعاء ١٠، وأحمد ٤/١٣٣، ١٣٤، ١٥١.

العزيز الحكيم﴾[١] وقال تعالى: **﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها﴾**[٢] وقال تعالى: **﴿وهو الحكيم الخبير﴾**[٣]. وهذا كله متفق عليه بين الأمة مجملاً غير مفسر فإذا فسر تنازعوا فيه.

وذلك أن هذه الأعمال الفاسدة والآلام وهذا الشر الوجودي المتعلق بالحيوان، وأنه لا يخلو عن أن يكون عملاً من الأعمال، أو أن يكون الماً من الآلام الواقعة بالحيوان، وذلك العمل القبيح والألم شره من ضرره، وهذا العمل والتألم: المعتزلة ومن اتبعها من الشيعة تزعم أن الأعمال ليست من خلقه ولا كونها شيء، وإن الآلام لا يجوز أن يفعلها إلا جزاء على عمل سابق، أو تعوض بنفع لاحق، وكثير من أهل الإثبات ومن اتبعهم من الجبرية يقولون بل الجميع خلقه، وهو يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، ولا فرق بين خلق المضار والمنافع، والخير والشر بالنسبة إليه. ويقول هؤلاء: إنه لا يتصور أن يفعل ظلماً ولا سفهاً أصلاً، بل لو فرض أنه فعل أي شيء كان فعله حكمة وعدلاً وحسناً، إذ لا قبيح إلا ما نهى عنه وهو لم ينهه أحد، ويسوون بين تنعيم الخلائق وتعذيبهم، وعقوبة المحسن، ورفع درجات الكفار والمنافقين.

والفريقان متفقان على أنه لا ينتفع بطاعات العباد ولا يتضرر بمعصيتهم، لكن الأولون يقولون: الإحسان إلى الغير حسن لذاته وإن لم يعد إلى المحسن منه فائدة.

والآخرون يقولون: ما حسن منا حسن منه، وما قبح منا قبح منه، والآخرون مع جمهور الخلائق ينكرون، والأولون يقولون: إذا أمر بالشيء فقد أراده منا. لا يعقل الحسن والقبيح إلا ما ينفع أو يضر، كنحو ما يأمر الواحد منا غيره بشيء فإنه لا بد أن يريده منه ويعينه عليه، وقد أقدر الكفار بغاية القدرة، ولم يبق يقدر على أن يجعلهم يؤمنون اختياراً، وإنما كفرهم وفسوقهم وعصيانهم بدون مشيئته واختياره. وآخرون يقولون: الأمر ليس بمستلزم الإرادة أصلاً، وقد بينت التوسط بين هذين في غير هذا الموضع، وكذلك أمره. والأولون يقولون لا يأمر إلا بما فيه

---

(١) سورة آل عمران آية ١٨.

(٢) سورة النساء آية ٤٠.

(٣) سورة الأنعام آية ١٨.

مصلحة العباد، والآخرون يقولون أمره لا يتوقف على المصلحة.

وهنا مقدمات، تكشف هذه المشكلات.

إحداها: أنه ليس ما حسن منه حسن منا، وليس ما قبح منه يقبح منا، فإن المعتزلة شبهت الله بخلقه، وذلك أن الفعل يحسن منا لجلبه المنفعة، ويقبح لجلبه المضرة، ويحسن لأنا أمرنا به، ويقبح لأنا نهينا عنه، وهذان الوجهان منتفيان في حق الله تعالى قطعاً، ولو كان الفعل يحسن باعتبار آخر كما قال بعض الشيوخ:

ويقبح من سواك الفعل عندي وتفعله فيحسن منك ذاكا

المقدمة الثانية: أن الحسن والقبح قد يكونان صفة لأفعالنا، وقد يدرك بعض ذلك بالعقل، وإن فسر ذلك بالنافع والضار والمكمل والمنقص فإن أحكام الشارع فيما يأمر به وينهى عنه تارة تكون كاشفة للصفات الفعلية ومؤكدة لها وتارة تكون مبينة للفعل صفات لم تكن له قبل ذلك، وأن الفعل تارة يكون حسنه من جهة نفسه، وتارة من جهة الأمر به وتارة من الجهتين جميعاً. ومن أنكر أن يكون للفعل صفات ذاتية لم يحسن إلا لتعلق الأمر به وأن الأحكام بمجرد نسبة الخطاب إلى الفعل فقط، فقد أنكر ما جاءت به الشرائع من المصالح والمفاسد، والمعروف والمنكر، وما في الشريعة من المناسبات بين الأحكام وعللها، وأنكر خاصة الفقه في الدين الذي هو معرفة حكمة الشريعة ومقاصدها ومحاسنها.

المقدمة الثالثة. إن الله خلق كل شيء وهو على كل شيء قدير. ومن جعل شيئاً من الأعمال خارجاً عن قدرته ومشيئته فقد ألحد في أسمائه وآياته بخلاف ما عليه القدرية.

المقدمة الرابعة: إن الله إذا أمر العبد بشيء فقد أراده منه إرادة شرعية دينية وإن لم يرده منه إرادة قدرية كونية. فإثبات إرادته في الأمر مطلقاً خطأ، ونفيها عن الأمر مطلقاً خطأ، وإنما الصواب التفصيل كما جاء في التنزيل **﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾**[1] **﴿يريد الله أن يخفف عنكم﴾**[2] **﴿ما يريد الله**

(١) سورة البقرة آية ١٨٥. (٢) سورة النساء آية ٢٨.

ليجعل عليكم من حرج﴾[1] وقال **﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضـله يجعل صدره ضيقاً حرجاً﴾**[2] وقال **﴿أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم﴾**[3] وقال **﴿ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد﴾**[4] وأمثال ذلك كثير.

المقدمة الخامسة: إن محبته ورضاه مستلزم للإرادة الدينية والأمر الديني، وكذلك بغضـه وغضبه وسخـطه مستلـزم لعدم الإرادة الـدينية فـالمحبة والـرضا والغضب والسخط ليس هو مجرد الإرادة. هذا قول جمهور أهل السنة. ومن قال إن هذه الأمور بمعنى الإرادة كما يقوله كثير من القدرية وكثير من أهل الإثبات فإنه يستلزم أحد الأمرين: إما [أن] الكفر والفسوق والمعاصي مما يكرهها دينا فقد كره كونها وأنها واقعة بدون مشيئته وإرادته. وهذا قول القدرية، أو يقول إنه لما كان مريداً لها شاءها فهو محب لها راض بها كما تقوله طائفة من أهل الإثبات. وكلا القولين فيه ما فيه، فإن الله تعالى يحب المتقين ويحب المقسطين وقد رضي عن المؤمنين، ويحب ما أمر به أمر إيجاب أو استحبات، وليس هذا المعنى ثابتاً في الكفار والفجار والظالمين، ولا يرضى لعباده الكفر ولا يحب كل مختال فخور، ومع هذا فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

وأحسن ما يعتذر به من قال هذا القول من أهل الإثبات: إن المحبة بمعنى الإرادة إنه أحبخها كما أرادها كوناً. فكذلك أحبها ورضيها كوناً. وهذا فيه نظر مذكور في غير هذا الموضع.

(فإن قيل) تقسيم الإرادة لا يعرف في حقنا بل إن الأمر منه بالشيء إما أن يريده أو لا يـريده، وأما الفرق بين الإرادة والمحبة فقد يعرف في حقنا فيقال: وهذا هو الواجب فإن الله تعالى ليس كمثله شيء، وليس أمره لنا كأمر الواحد منا لعبده وخدمه، وذلك أن الواحد منا إذا أمر عبده فإما أن يأمره لحاجته إليه أو إلى المأمور

---

(١) سورة المائدة آية ٦.

(٢) سورة الأنعام آية ١٢٥.

(٣) سورة المائدة آية ٤١.

(٤) سورة البقرة آية ٢٥٣.

به أو لحاجته إلى الأمر فقط، فالأول كأمر السلطان جنده بما فيه حفظ ملكه ومنافعهم له، فإن هداية الخلق وإراشادهم بالأمر والنهي هي من باب الإحسان إليهم، والمحسن من العباد يحتاج إلى إحسانه قال الله تعالى **﴿إن أحسنتم أحسنتم لانفسكم وإن أسأتم فلها﴾**[١] وقال **﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن اساء فعليها﴾**[٢].

والله تعالى لم يأمر عباده لحاجته إلى خدمتهم ولا هو محتاج إلى أمرهم وإنما أمرهم إحساناً منه ونعمة أنعم بها عليهم، فأمرهم بما فيه صلاحهم ونهاهم عما فيه فسادهم. وإرسال الرسل، وإنزال الكتب من أعظم نعمه عل خلقه كما قال: **﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾**[٣] وقال تعالى: **﴿لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم﴾**[٤] وقال: **﴿يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين. قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾**[٥] فمن انعم الله عليه مع الأمر بالامتثال فقد تمت النعمة في حقه كما قال: **﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي﴾**[٦] وهؤلاء هم المؤمنون ومن لم ينعم عليه بالامتثال بل خذله حتى كفر وعصى فقد شقي لما بدل نعمة الله كفراً كما قال: **﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار﴾**[٧] والأمر والنهي الشرعيان لما كانا نعمة ورحمة عامة لم يضر ذلك عدم انتفاع بعض الناس بهما من الكفار، كانزال المطر وإنبات الرزق هو نعمة عامة وإن تضرر بها بعض الناس لحكمة أخرى كذلك مشيئته لما شاءه من المخلوقات وأعيانها وأفعالها لا يوجب أن يحب كل شيء منها فإذا أمر العبد بأمر فذاك إرشاد ودلالة، فإن فعل المأمور به صار محبوباً لله وإلا لم يكن محبوباً له وإن كان مراداً له، وإرادته له تكويناً لمعنى آخر. فالتكوين غير التشريع.

(فإن قيل) المحبة والرضا يقتضيان ملاءمة ومناسبة بين المحب والمحبوب

---

(١) سورة الإسراء آية ٧.

(٢) سورة فصلت آية ٤٦.

(٣) سورة الأنبياء آية ١٠٧.

(٤) سورة آل عمران آية ١٦٤.

(٥) سورة يونس آية ٥٧ ـ ٥٨.

(٦) سورة المائدة آية ٣.

(٧) سورة ابراهيم آية ٢٨.

ويوجب للمحب بدرك محبوبه فرحاً ولذة وسروراً، وكذلك البغض لا يكون إلا عن منافرة بين المبغض والمبغض، وذلك يقتضي للمبغض بدرك المبغض أذى وبغضاً ونحو ذلك، والملاءمة والمنافرة تقتضي الحاجة، إذ ما لا يحتاج الحي إليه لا يحبه، وما لا يضره كيف يبغضه؟ والله غني لا تجوز عليه الحاجة، إذ لو جازت عليه الحاجة للزم حدوثه وإمكانه وهـو غني عن العالمين، وقد قال تعالى [أي في الحديث القدسي][1] «يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني» فلهذا فسرت المحبة والرضا بالإرادة إذ يفعل النفع والضر. فيقال الجـواب من وجهين:

أحدهما: الإلزام وهو أن نقول: الإرادة لا تكون إلا للمناسبة بين المريد والمراد، وملاءمته في ذلك تقتضي الحاجة، وإلا فما لا يحتـاج إليه الحي لا ينتفع به ولا يريده، ولذلك إذا أراد به العقوبة والإضرار لا يكون إلا لنفرة وبغض، وإلا فما لم يتألـم به الحي أصلاً لا يكرهه ولا يدفعه، وكذلك نفس نفع الغير وضرره هو في الحي متنافر من الحاجة فإن الواحد منـا إنما يحسن إلى غيره لجلب منفعة أو لدفع مضرة، وإنما يضر غيره لجلب منفعة أو دفع مضرة، فإذا كان الذي يثبت صفة وينفي أخرى يلزمه فيما أثبته نظير ما يلزمه فيما نفاه لم يكن إثبات إحداهما ونفي الأخرى أولى من العكس، ولو عكس عاكس فنفى ما أثبته من الإرادة وأثبت ما نفاه من المحبة لما ذكره لم يكن بينهما فرق، وحينئذ فالواجب إما نفي الجميع ولا سبيل إليه للعلم الضروري بوجود نفع الخلق والإحسان إليهم وإن ذلك يستلزم الإرادة، وأما إثبات الجميع كما جاءت به النصوص، وحينئذ فمن توهم أنه يلزم من ذلك محذور فأحد الأمرين لازم: إما أن ذلك المحذور لا يلزم أو أنه إن لـزم فليس بمحذور.

الجواب الثاني: إن الذي يعلم قطعاً [هو] أن الله قديم واجـب الوجـود كامل، وأنه لا يجوز عليه الحدوث ولا الإمكان ولا النقص، لكن كون هذه الأمور التي جاءت بها النصوص مستلزمة للحدوث والإمكان أو النقص هو موضع النظر، فإن الله غني واجب بنفسه، وقد عرف أن قيام الصفات به لا يلزم حدوثه ولا إمكانه ولا حاجته. وأن قول القائل للزوم افتقـاره إلى صفاته اللازمة بمنزلة قوله مفتقر إلى

ذاته، ومعلوم أنه غني بنفسه، وأنه واجب الوجود بنفسه، وأنه موجود بنفسه، فتوهم حاجة نفسه إلى نفسه، إن عنى به أن ذاته لا تقوم إلا بذاته فهذا حق، فإن الله غني عن العالمين وعن خلقه، وهو غني بنفسه.

وإما إطلاق القول بأنه غني عن نفسه فهو باطل فإنه محتاج إلى نفسه، وفي إطلاق كل منهما إيهام معنى فاسد، ولا خالق إلا الله تعالى فإذا كان سبحانه عليماً يحب العلم، عفواً يحب العفو، جميلاً يحب الجمال، نظيفاً يحب النظافة، طيباً يحب الطيب، وهو يحب المحسنين والمتقين والمقسطين، وهو سبحانه الجامع لجميع الصفات المحبوبة؛ والأسماء الحسنى والصفات العلى، وهو يحب نفسه ويثني بنفسه على نفسه، والخلق لا يحصون ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه. فالعبد المؤمن يحب نفسه، ويحب في الله من أحب الله وأحبه الله؛ فالله سبحانه أولى بأن يحب نفسه، ويحب في نفسه عباده المؤمنين، ويبغض الكافرين، ويرضى عن هؤلاء ويفرح بهم، ويفرح بتوبة عبده التائب من أولئك، ويمقت الكفار ويبغضهم، ويحب حمد نفسه والثناء عليه، كما قال النبي ﷺ للأسود بن سريع لما قال: إنني حمدت ربي بمحامد فقال «إن ربك يحب الحمد» وقال ﷺ «لا أحد أحب إليه المدح من الله، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل الرسل، ولا أحد أصبر على أذى من الله، يجعلون له ولداً وشريكاً وهو يعافيهم ويرزقهم»[1] فهو يفرح بما يحبه، ويؤذيه ما يبغضه، ويصبر على ما يؤذيه، وحبه ورضاه وفرحه وسخطه وصبره على ما يؤذيه كل ذلك من كماله، وكل ذلك من صفاته وأفعاله، وهو الذي خلق الخلائق وأفعالهم، وهم لن يبلغوا ضره فيضروه ولن يبلغوا نفعه فينفعوه. وإذا فرح ورضي بما فعله بعضهم فهو سبحانه الذي خلق فعله، كما أنه إذا فرح ورضي بما يخلقه فهو الخالق، وكل الذين يؤذون الله ورسوله هو الذي مكنهم وصبر على أذاهم بحكمته فلم يفتقر إلى غيره، ولم يخرج

(١) أخرجه البخاري في التوحيد ٢٠، ومسلم في التوبة ٣٥، واللعان ١٧، وأحمد في المسند ٤/٢٤٨، ولفظه في صحيح مسلم: «ليس أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل، من أجل ذلك مدح نفسه، وليس أحد أغير من الله، من ذلك حرم الفواحش، وليس أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل (٤/٢١١٤).

شيء عن مشيئته ولم يفعل أحد ما لا يريد، وهذا قول عامة القدرية ونهاية الكمال والعزة.

وأما الإمكان لو افتقر وجوده إلى فرح غيره، وأما الحدوث فيبنى على قيام الصفات فيلزم منه حدوثه، وقد ذكر في غير هذا الموضع أن ما سلكه الجهمية في نفي الصفات فمبناه على القياس الفاسد المحض وله شرح مذكور في غير هذا الموضع.

ومن تأمل نصوص الكتب والسنة وجدها في غاية الإحكام والإتقان وإنها مشتملة على التقديس لله عن كل نقص، والإثبات لكل كمال، وإنه تعالى ليس له كمال ينتظر بحيث يكون قبله ناقصاً؛ بل من الكمال إنه يفعل ما يفعله بعد أن لم يكن فاعله، وإنه إذا كان كاملاً بذاته وصفاته وأفعاله لم يكن كاملاً بغيره ولا مفتقراً إلى سواه، بل هو الغني ونحن الفقراء، وقال تعالى **﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء، سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق﴾**[1] وهو سبحانه في محبته ورضاه ومقته وسخطه وفرحه وأسفه وصبره وعفوه ورأفته له الكمال الذي لا تدركه الخلائق وفوق الكمال، إذ كل كمال فمن كماله يستفاد، وله الثناء الحسن الذي لا تحصيه العباد، وإنما هو كما أثنى على نفسه، له الغنى الذي لا يفتقر إلى سواه، **﴿إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً. لقد أحصاهم وعدهم عداً. وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً﴾**[2].

فهذا الأصل العظيم وهو مسألة خلقه وأمره وما يتصل به من صفاته وأفعاله من محبته ورضاه وفرحه بالمحبوب وبغضه وصبره على ما يؤذيه هي متعلقة بمسائل القدر ومسائل الشريعة. والمنهاج الذي هو المسؤول عنه ومسائل الصفات ومسائل الثواب والعقاب والوعد والوعيد، وهذه الأصول الأربعة كلية جامعة وهي متعلقة به وبخلقه.

وهي في عمومها وشمولها وكشفها للشبهات تشبه مسألة الصفات الذاتية

---

(١) سورة آل عمران آية ١٨١.

(٢) سورة مريم الآيات ٩٣ ـ ٩٥.

والفعلية، ومسألة الذات والحقيقة والحد وما يتصل بذلك من مسائل الصفات والكلام في حلول الحوادث ونفي الجسم وما في ذلك من تفصيل وتحقيق.

فإن المعطلة والملحدة في أسمائه وآياته كذبوا بحق كثير جاءت به الرسل بناء على ما اعتقدوه من نفي الجسم والعرض ونفي حلول الحوادث ونفي الحاجة.

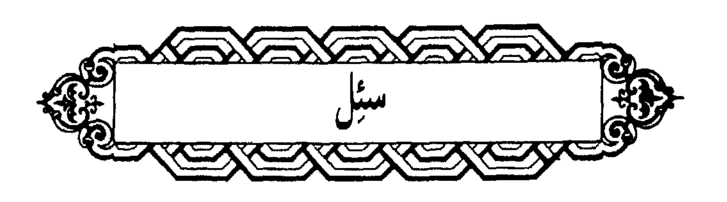
وهذه الأشياء يصح نفيها باعتبار ولكن ثبوتها يصح باعتبار آخر، فوقعوا في نفي الحق الذي لا ريب فيه الذي جاءت به الرسل ونزلت به الكتب وفطرت عليه الخلائق ودلت عليه الدلائل السمعية والعقلية والله أعلم.



سئل

عن رجل يحب رجلاً عالماً. فإذا التقيا ثم افترقا حصل لذلك الرجل شبه الغشي من أجل الافتراق. وإذا كان الرجل العالم مشغولاً بحيث لا يلتفت إليه لم يحصل له هذا الحال. فهل هذا من الرجل المحب؟. أم هو تأثير الرجل العالم؟

فأجاب: الحمد لله، سببه من هذا ومن هذا، مثل الماء إذا شربه العطشان حصل له لذة وطيب، وسببها عطشه وبرد الماء، وكذلك النار إذا وقعت في القطن سببه منها، ومن القطن. والعالم المقبل على الطالب يحصل له لذة وطيب وسرور بسبب إقبال هذا وتوجهه، وهذا حال المحب مع المحبوب، والله أعلم.



سئل

ما الحكمة في أن المشتغلين بالذكر والفكر والرياضة ومجاهدة النفس وما اشبهه يفتح عليهم من الكشوفات والكرامات وما سوى ذلك من الأحوال ـ مع قلة علمهم، وجهل بعضهم ـ ما لا يفتح على المشتغلين بالعلم ودرسه؟. والبحث عنه؟ حتى لو بات الإنسان متوجهاً مشتغلاً بالذكر والحضور لا بد أن يرى واقعة أو يفتح عليه شيء، ولو بات ليلة يكرر على باب من أبواب الفقه لا يجد ذلك، حتى أن كثيراً من المتعبدين يجد للذكر حلاوة ولذة، ولا يجد ذلك عند قراءة القرآن، مع أنه قد وردت السنة بتفضيل العالم على العابد، لا سيما إذا كان العابد محتاجاً إلى علم هو مشتغل به عن العبادة.

ففي الحديث «إن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع»[1]، «وأن العلماء ورثة الأنبياء»[2]، «وأن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب»[3] وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا كان يوم القيامة يقول الله عز وجل للعابدين والمجاهدين: ادخلوا الجنة، فيقول العلماء بفضل علمنا

---

(١) أخرجه أبو داود في العلم ١، والترمذي في العلم ١٩، والنسائي في الطهارة ١١٢، وابن ماجة في المقدمة ١٧، وأحمد ٤/٢٢٩ ـ ٢٤١، و٥/١٩٦.

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي وأحمد وصححه ابن حبان والحاكم، وحسنه حمزة والكتاني، وضعفه غيرهم بالاضطراب في سنده، لكن له شواهد يتقوى بها (انظر المقاصد الحسنة ص ٢٨٦) وأخرجه أيضاً البخاري في العلم ١٠، وابن ماجة في المقدمة ١٧، والدارمي في المقدمة ٣٢.

(٣) أخرجه أبو داود في العلم ١، والترمذي في العلم ١٩، وابن ماجة في المقدمة ١٧، والدارمي في المقدمة ٣٢، وأحمد ٥/٩٦.

عبـدوا وجاهـدوا، فيقول الله عـزوجـل لهم: أنتم عنـدي كمـلائكتي، اشفعـوا فيشفعون. ثم يدخلون الجنة» وغير ذلك من الأحاديث والآثار.

ثم إن كثيراً من المتعبدين يؤثر العبادة على طلب العلم، مع جهله بما يبطل كثيراً من عبادته كنواقض الوضوء، أو مبـطلات الصلاة والصـوم، وربما يحكي بعضهم حكاية في هذا المعنى: بأن «رابعة العدوية»[1] ـ رحمها الله ـ أتت ليلة بالقدس تصلي حتى الصباح، وإلى جانبها بيت فيه فقيه يكرر على باب الحيض إلى الصباح، فلما أصبحت رابعة قالت له: يا هذا! وصل الواصلون إلى ربهم، وأنت مشتغل بحيض النساء. أو نحوها، فما المانع أن يحصل للمشتغلين بالعلم ما يحصل للمشتغلين بالعبادة مع فضله عليه؟.

فأجاب: الحمد لله رب العالمين. لا ريب إن الـذي أوتي العلم والإيمان أرفع درجة من الذين أوتوا الإيمان فقط، كما دل على ذلك الكتاب والسنة، والعلم الممدوح الذي دل عليه الكتاب والسنة هو العلم الذي ورثته الأنبياء. كما قال النبي ﷺ: «إن العلماء ورثة الأنبياء؛ إن الأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه اخذ بحظ وافر».

وهذا العلم ثلاثة أقسام:

«**علم بالله وأسمائه وصفاتـه**»، وما يتبـع ذلك، وفي مثله أنـزل الله سورة الإخلاص، وآية الكرسي، ونحوهما.

و «**القسم الثاني**»: العلم بما أخبر الله به، مما كان من الأمور الماضيـة، وما يكون من الأمور المستقبلة، وما هو كائن من الأمور الحاضرة، وفي مثل هذا أنزل الله آيات القصص، والوعد، والوعيد، وصفة الجنة والنار، ونحو ذلك.

و «**القسم الثـالث**»: العلم بما أمـر الله به من الأمـور المتعلقـة بـالقلوب والجوارح من الإيمان بالله من معارف القلوب وأحوالها أقوال الجوارح وأعمالها وهذا العلـم يندرج فيه العلم بأصول الإيمان وقواعد الإسلام ويندرج فيـه العلم

---

(١) هي رابعة بنت اسماعيل العدوية أم الخير، بصرية، اشتهرت بالعبادة والتصوف، ولها شعر، توفيت بالقدس، وهناك يزار قبرها، سنة ١٣٥ هـ وقيل سنة ١٨٥ هـ (انظر الأعلام ٣/ ١٠).

بالأقوال والأفعال الظاهرة، وهذا العلم يندرج فيه ما وجد في كتب الفقهاء من العلم بأحكام الأفعال الظاهرة، فإن ذلك جزء من جزء من جزء من علم الدين كما أن المكاشفات التي تكون لأهل الصفا جزء من جزء من جزء من علم الأمور الكونية.

والناس إنما يغلطون في هذه المسائل؛ لأنهم يفهمون مسميات الأسماء الواردة في الكتاب والسنة، ولا يعرفون حقائق الأمور الموجودة فرب رجل يحفظ حروف العلم التي أعظمها حفظ حروف القرآن ولا يكون له من الفهم؛ بل ولا من الإيمان ما يتميز به على من أوتي القرآن ولم يؤت حفظ حروف العلم، كما قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه «مثل المؤمن الذي يقر القرآن مثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب. ومثل المؤمن الذي لا يقر القرآن: مثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها. ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن: كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر. ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها».

فقد يكون الرجل حافظاً لحروف القرآن وسوره، ولا يكون مؤمناً بل يكون منافقاً. فالمؤمن الذي لا يحفظ حروفه وسوره خير منه. وإن كان ذلك المنافق ينتفع به الغير كما ينتفع بالريحان. وأما الذي أوتي العلم والإيمان فهو مؤمن عليم، فهو أفضل من المؤمن الذي ليس مثله في العلم مثل اشتراكهما في الإيمان: فهذا أصل تجب معرفته.

وههنا «أصل آخر»: وهو أنه ليس كل عمل أورث كشوفاً أو تصرفاً في الكون يكون أفضل من العمل الذي لا يورث كشفاً وتصرفاً؛ فإن الكشف والتصرف إن لم يكن مما يستعان به على دين الله وإلا كان من متاع الحياة الدنيا. وقد يحصل ذلك للكفار من المشركين وأهل الكتاب؛ وإن لم يحصل لأهل الإيمان الذين هم أهل الجنة؛ وأولئك أصحاب النار.

ففضائل الأعمال ودرجاتها لا تتلقى من مثل هذا؛ وإنما تتلقى من دلالة الكتاب والسنة؛ ولهذا كان كثير من الأعمال يحصل لصاحبه في الدنيا رئاسة ومال، فأكرم الخلق عند الله أتقاهم. ومن عبد الله بغير علم فقد أفسد أكثر مما يصلح، وإن حصل له كشف وتصرف؛ وإن اقتدى به خلق كثير من العامة؛ وقد بسطنا

الكلام في هذا الباب في مواضعه؛ فهذا «أصل ثان».

و«أصل ثالث» إن تفضيل العلم على العمل قد يكون مطلقاً مثل تفضيل أصل الدين على فرعه، وقد يكون مقيداً. فقد يكون أحد العملين في حق زيد أفضل من الآخر، والآخر في حق عمرو أفضل، وقد يكونان متماثلين في حق الشخص، وقد يكون المفضول في وقت أفضل من الفاضل؛ وقد يكون المفضول في حق من يقدر عليه وينتفع به أفضل من الفاضل في حق من ليس كذلك.

مثال ذلك إن قراءة القرآن أفضل من مجرد الذكر بسنة رسول الله ﷺ، وإجماع الأمة ـ ولا اعتبار بمن يخالف ذلك من جهال العباد ـ ثم الركوع والسجود ينهى فيه عن قراءة القرآن، ويؤمر فيه بالذكر، وكذلك الذكر والدعاء في الطواف وعرفة ونحوهما، أفضل من قراءة القرآن، وكذلك الأذكار المشروعة: مثل ما يقال عند سماع النداء ودخول المسجد والمنزل والخروج منهما، وعند سماع الديكة والحمر ونحو ذلك أفضل من قراءة القرآن في هذا الموطن. وأيضاً فأكثر السالكين إذا قرؤا القرآن لا يفهمونه. وهم بعد لم يذوقوا حلاوة الإيمان الذي يزيدهم بها القرآن إيماناً، فإذا أقبلوا على الذكر أعطاهم الذكر من الإيمان ما يجدون حلاوته ولذته، فيكون الذكر أنفع لهم حينئذ من قراءة لا يفهمونها، ولا معهم من الإيمان ما يزداد بقراءة القرآن أما إذا أوتي الرجل الإيمان فالقرآن يزيده من الإيمان ما لا يحصل بمجرد الذكر، فهذا «أصل ثالث».

و«أصل رابع»: وهو أن الرجل قد يأتي بالعمل الفاضل من غير قيام بشروطه، ولا إخلاص فيه، فيكون بتفويت شرائطه دون من أتى بالمفضول المكمل.

فهذه الأصول ونحوها تبين جواب هذا السائل، وإن كان تفصيل ذلك لا تتسع له الورقة والله أعلم.

[الأوامر والنواهي في حق المتصوفة]

سُئِلَ الشيخ رَحِمَهُ الله عن قوم داوموا على «الرياضة» مرة فرأوا أنهم قد

تجوهروا، فقالوا: لا نبالي الآن ما عملنا، وإنما الأوامر والنواهي رسوم العوام، ولو تجوهورا لسقطت عنهم، وحاصل النبوة يرجع إلى الحكمة والمصلحة والمراد منها ضبط العوام، ولسنا نحن من العوام، فندخل في حجر التكليف، لأنا قد تجوهرنا، وعرفنا الحكمة. فهل هذا القول كفر من قائله؟ أم يبدع من غير تكفير؟ وهل يصير ذلك عمن في قلبه خضوع للنبي - ﷺ -؟.

فأجاب: - لا ريب عند أهل العلم والإيمان أن هذا القول من أعظم الكفر، وأغلظه. وهو شر من قول اليهود والنصارى؛ فإن اليهودي والنصراني آمن ببعض الكتاب، وكفر ببعض. وأولئك هم الكافرون حقاً كما ذكر أنهم يقرون بـأن لله أمراً ونهياً، ووعداً ووعيداً، وإن ذلك متناول لهم إلى حين الموت. هـذا إن كانـوا متمسكين باليهودية والنصرانية المبدلة المنسوخة.

وأمـا إن كانـوا من منافقي أهـل ملتهم - كما هـو الغـالب على متكلمهم ومتفلسفهم - كانوا شراً من منافقي هذه الأمة، حيث كانوا مظهرين للكفر ومبطنين للنفاق، فهم شر ممن يظهر إيماناً ويبطن نفاقا.

والمقصود أن المتمسكين بجملة فيها تبديل خير من هؤلاء الذين يزعمون سقوط الأمر والنهي عنهم بالكلية؛ فإن هؤلاء خارجون في هذه الحال عن جميع الكتب والشرائع والملل؛ لا يلتزمون لله أمراً ولا نهياً بحال؛ بل هؤلاء شـر من المشركين المستمسكين ببقايا من الملل: كمشركي العرب الذين كانوا مستمسكين ببقايا من دين إبراهيم عليه السلام، فإن أولئك معهم نوع من الحق يلتزمونه، وإن كانوا مع ذلك مشركين، وهؤلاء خارجون عن التزام شيء من الحق، بحيث يظنون أنهم قد صاروا سدى لا أمر عليهم ولا نهي.

فمن كان من قوله هو أنه أو طائفة غيره قد خرجت عن كل أمر ونهي، بحيث لا يجب عليها شيء، ولا يحرم عليها شيء، فهؤلاء أكفر أهل الأرض، وهم من جنس فرعون وذويه، وهم مع هذا لا بد أن يلتزموا بشيء يعيشون به، إذ لا يمكن النوع الإنساني أن يعيش إلا بنوع أمر ونهي، فيخرجون عن طاعة الرحمن وعبادته إلى طاعة الشيطان وعبادته؛ ففرعون هو الذي قال لموسى: ﴿**وما رب العالمين**﴾[1] ثم

(١) سورة الشعراء آية ٢٣.

كانت له آلهة يعبدها. كما قال له قومه: ﴿ويذرك وآلهتك﴾[1].

ولكن كثير من هؤلاء لا يطلقون السلب العام، ويخرجون عن ربقة العبودية مطلقاً، بل يزعمون سقوط بعض الواجبات عنهم، أو حل بعض المحرمات لهم، فمنهم من يزعم أنه سقطت عنه الصلوات الخمس لوصوله إلى المقصود وربما قد يزعم سقوطها عنه إذا كان في حال مشاهدة وحضور، وقد يزعمون سقوط الجماعات عنهم استغناء عنها بما هو فيه من التوجه والحضور. ومنهم من يزعم سقوط الحج عنه مع قدرته عليه؛ لأن الكعبة تطوف به، أو لغير هذا من الحالات الشيطانية. ومنهم من يستحل الفطر في رمضان لغير عذر شرعي زعماً منه استغناؤه عن الصيام ومنهم من يستحل الخمر زعماً منه أنها تحرم على العامة الذين إذا شربوها تخاصموا وتضاربوا دون الخاصة العقلاء، ويزعمون أنها حرم على العامة الذين ليس لهم أعمال صالحة، فأما أهل النفوس الزكية والأعمال الصالحة: فتباح لهم دون العامة

وهذه «الشبهة» كانت قد وقعت لبعض الأولين فاتفق الصحابة على قتلهم إن لم يتوبوا من ذلك فإن قدامة بن عبد الله شربها هو وطائفة وتأولوا قوله تعالى: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات﴾[2] فلما ذكر ذلك لعمر بن الخطاب اتفق هو وعلي بن أبي طالب وسائر الصحابة على أنهم إن اعترفوا بالتحريم جلدوا، وإن أصروا على استحلالها قتلوا. وقال عمر لقدامة: أخطأت إستك الحفرة. أما أنا لو اتقيت وآمنت وعملت الصالحات لم تشرب الخمر؛ وذلك أن هذه الآية نزلت بسبب: إن الله سبحانه لما حرم الخمر ـ وكان تحريمها بعد وقعة أحد ـ قال بعض الصحابة: فكيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر؟ فأنزل الله هذه الآية يبين فيها إن من طعم الشيء في الحال التي تحرم فيها فلا جناح عليه إذا كان من المؤمنين المتقين الصالحين.

---

(١) سورة الأعراف آية ١٢٧.

(٢) سورة المائدة آية ٩٣.

وهذا كما أنه لما صرف القبلة وأمرهم باستقبال الكعبة بعد أن كانوا مأمورين باستقبال بيت المقدس، فقال الله تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾[1] أي صلاتكم إلى بيت المقدس[2]. فبين سبحانه أن من عمل بطاعة الله أثابه الله على ذلك، وإن نهى عن ذلك في وقت آخر، ومن استحل ما لم يحرم لم يكن عليه جناح، إذا كان من المؤمنين المتقين وإن حرم الله ذلك في وقت آخر. فأما بعد أن حرم الخمر فاستحلالها بمنزلة الصلاة إلى الصخرة بعد تحريم ذلك، وبمنزلة التعبد بالسبت واستحلال الزنا، وغير ذلك مما استقرت الشريعة على خلاف ما كان، وإلا فليس لأحد أن يستمسك من شرع منسوخ بأمر. ومن فعل ذلك كان بمنزلة المستمسك بما نسخ من الشرائع؛ فلهذا اتفق الصحابة على أن من استحل الخمر قتلوه، ثم إن أولئك الذين فعلوا ذلك ندموا، وعلموا أنهم أخطأوا وأيسوا من التوبة. فكتب عمر إلى قدامة يقول له: ﴿حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم، غافر الذنب، وقابل التوب، شديد العقاب﴾[3] ما أدري أي ذنبيك أعظم استحلالك المحرم أولاً؟ أم يأسك من رحمة الله ثانياً؟

وهذا الذي اتفق عليه الصحابة، هو متفق عليه بين أئمة الإسلام لا يتنازعون في ذلك، ومن جحد وجوب بعض الواجبات الظاهرة المتواترة: كالصلوات الخمس، وصيام شهر رمضان، وحج البيت العتيق أو جحد تحريم بعض المحرمات الظاهرة المتواترة: كالفواحش، والظلم والخمر والميسر والزنا وغير

---

(١) سورة البقرة آية ١٤٣.

(٢) روى الواحدي في أسباب النزول قوله: «كان رجال من أصحاب رسول الله ﷺ قد ماتوا على القبلة الأولى، منهم أسعد بن زرارة وأبو أمامة أحد بني النجار، والبراء بن معرور أحد بني سلمة، وأناس آخرون، جاءت عشائرهم فقالوا: يا رسول الله توفي إخواننا وهم يصلون إلى القبلة الأولى، وقد صرفك الله تعالى إلى قبلة إبراهيم، فكيف بإخواننا؟ فأنزل الله ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ الآية، ثم قال ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾ وذلك أن النبي ﷺ قال لجبريل عليه السلام: وددت أن الله صرفني عن قبلة اليهود إلى غيرها. وكان يريد الكعبة، لأنه قبلة إبراهيم، فقال له جبريل: إنما أنا عبد مثلك لا أملك شيئاً، فسل ربك أن يحولك عنها إلى قبلة إبراهيم، ثم ارتفع جبريل وجعل رسول الله ﷺ يديم النظر إلى السماء رجاء أن يأتيه جبريل بما سأله، فأنزل الله تعالى هذه الآية» (أسباب النزول ص ٢٧).

(٣) سورة غافر آية ١ ـ ٢.

ذلك، أو جحد حل بعض المباحات الظاهرة المتواترة: كالخبز واللحم والنكاح. فهو كافر مرتد، يستتاب فإن تاب وإلا قتل، وإن أضمر زنديقاً منافقاً، لا يستتاب عند أكثر العلماء؛ بل يقتل بلا استتابة، إذا ظهر ذلك منه.

ومن هؤلاء من يستحل بعض الفواحش: كاستحلال مؤاخاة النساء الأجانب والخلو بهن، زعماً منه أنه يحصل لهن البركة بما يفعله معهن وإن كان محرماً في الشريعة. وكذلك من يستحل ذلك من المردان ويزعم أن التمتع بالنظر إليهم ومباشرتهم هو طريق لبعض السالكين حتى يترقى من محبة المخلوق [إلى محبة الخالق] ويأمرون بمقدمات الفاحشة الكبرى، وقد يستحلون الفاحشة الكبرى، كما يستحلها من يقول: إن التلوط مباح بملك اليمين. فهؤلاء كلهم كفار باتفاق المسلمين، وهم بمنزلة من يستحل قتل المسلمين بغير حق. ويسبي حريمهم ويغنم أموالهم، وغير ذلك من المحرمات، التي يعلم أنها من المحرمات تحريماً ظاهراً متواتراً.

لكن من الناس من يكون جاهلاً ببعض هذه الأحكام جهلاً يعذر به، فلا يحكم بكفر أحد حتى تقوم عليه الحجة من جهة بلاغ الرسالة كما قال تعالى: **﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾**(١) وقال تعالى: **﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾**(٢) ولهذا لو أسلم رجل ولم يعلم أن الصلاة واجبة عليه؛ أو لم يعلم أن الخمر يحرم عليه لم يكفر بعدم اعتقاد إيجاب هذا وتحريم هذا؛ بل ولم يعاقب حتى تبلغه الحجة النبوية. بل قد اختلف العلماء فيمن أسلم بدار الحرب ولم يعلم أن الصلاة واجبة ثم علم. هل يجب عليه قضاء ما تركه في حال الجهل؟ على قولين في مذهب الإمام أحمد وغيره:

أحدهما: لا يجب عليه القضاء، وهو مذهب أبي حنيفة.

والثاني: يجب عليه القضاء، وهو المشهور عند أصحاب الشافعي بل النزاع بين العلماء في كل من ترك واجباً قبل بلوغ الحجة: مثل ترك الصلاة عند عدم

---

(١) سورة النساء آية ١٦٥.

(٢) سورة الإسراء آية ١٥.

الماء يحسب أن الصلاة لا تصح بتيمم، أو من أكل حتى تبين له الخيط الأبيض من الخيط الأسود. ويحسب أن ذلك هو المراد بالآية، كما جرى ذلك لبعض الصحابة، أو مس ذكره، أو أكل لحم الإبل ولم يتوضأ، ثم تبين له وجوب ذلك، وأمثال هذه المسائل هل يجب عليه القضاء؟ على قولين في مذهب أحمد وغيره. وأصل ذلك هل يثبت حكم الخطاب في حق المكلف قبل التمكن من سماعه؟ على «ثلاث أقوال» في مذهب أحمد وغيره.

قيل: يثبت مطلقاً، وقيل: لا يثبت مطلقاً؛ يفرق بين الخطاب الناسخ؛ والخطاب المبتدأ. كأهل القبلة، والصحيح الذي تدل عليه الأدلة الشرعية: إن الخطاب لا يثبت في حق أحد قبل التمكن من سماعه؛ فإن القضاء لا يجب عليه في الصور المذكورة ونظائرها مع اتفاقهم على انتفاء الإثم؛ لأن الله عفا لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان فإذا كان هذا في التأثيم فكيف في التكفير؟!

وكثير من الناس قد ينشأ في الأمكنة والأزمنة الذي يندرس فيها كثير من علوم النبوات، حتى لا يبقى من يبلغ ما بعث الله به ورسوله من الكتاب والحكمة، فلا يعلم كثيراً مما يبعث الله به رسوله ولا يكون هناك من يبلغه ذلك، ومثل هذا لا يكفر؛ ولهذا اتفق الأئمة على أن من نشأ ببادية بعيدة عن أهل العلم والإيمان، وكان حديث العهد بالإسلام، فأنكر شيئاً من هذه الأحكام الظاهرة المتواترة فإنه لا يحكم بكفره حتى يعرف ما جاء به الرسول؛ ولهذا جاء في الحديث «يأتي على الناس زمان لا يعرفون فيه صلاة ولا زكاة ولا صوماً ولا حجا إلا الشيخ الكبير، والعجوز الكبيرة، يقول أدركنا آباءنا وهم يقولون: لا إله إلا الله، وهم لا يدرون صلاة ولا زكاة ولا حجا. فقال: ولا صوم ينجيهم من النار».

وقد دل على هذا الأصل ما أخرجاه في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «قال رجل ـ لم يعجل حسنة قط ـ لأهله إذا مات فحرقوه، ثم اذروا نصفه في البر، ونصفه في البحر، فوالله لئن قدر الله ليعذبنه عذاباً لا يعذبنه أحداً من العالمين. فلما مات الرجل فعلوا ما أمرهم، فأمر الله البر فجمع ما فيه وأمر البحر فجمع ما فيه، ثم قال: لم فعلت هذا؟ قال: من خشيتك يا رب! وأنت أعلم؛ فغفر الله له» وفي لفظ آخر «أسرف رجل على نفسه فلما حضره الموت

أوصى بنيه فقال: إذا أنا مت فأحرقوني، ثم اسحقوني، ثم اذروني في البحر. فوالله لئن قدر علي ربي ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً. قال: ففعلوا ذلك به. فقال للأرض: أدِ ما أخذت، فإذا هو قائم. فقال له: ما حملك على ما صنعت. قال: خشيتك يا رب. أو قال: مخافتك، فغفر له بذلك» وفي طريق آخر «قال الله لكل شيء أخذ منه شيئاً: أد ما أخذت منه».

وقد أخرج البخاري هذه القصة من حديث حذيفة وعقبة بن عمرو أيضاً عن حذيفة عن النبي ﷺ قال: «كان رجل فيمن كان قبلكم كان يسيء الظن بعمله. فقال لأهله: إذا أنامت فخذوني فذروني في البحر في يوم صائف ففعلوا، فجمعه الله. ثم قال: ما حملك على الذي فعلت؟ فقال: ما حملني إلا مخافتك. فغفر له».

وفي طريق آخر: «إن رجلاً حضره الموت، فلما يئس من الحياة أوصى أهله إذا أنامت، فاجمعوا لي حطباً كثيراً، وأوقدوا فيه ناراً حتى إذا أكلت لحمي، ووصلت إلى عظمي، فامتحشت، فخذوها فاطحنوها ثم انظروا يوماً فذروني في اليم. فجمعه الله فقال: له لم فعلت ذلك؟ قال: من خشيتك. فغفر الله له» قال عقبة بن عمرو أنا سمعته - يعنى النبي ﷺ - يقول ذلك. وكان نباشاً.

فهذا الرجل ظن أن الله لا يقدر عليه إذا تفرق هذا التفرق، فظن أنه لا يعيده إذا صار كذلك، وكل واحد من إنكار قدرة الله تعالى، وإنكار معاد الأبدان وإن تفرقت كفر. لكنه كان مع إيمانه بالله وإيمانه بأمره وخشيته منه جاهلاً بذلك، ضالاً في هذا الظن مخطئاً. فغفر الله له ذلك. والحديث صريح في أن الرجل طمع أن لايعيده إذا فعل ذلك، وأدنى هذا أن يكون شاكاً في المعاد، وذلك كفر - إذا قامت حجة النبوة على منكره حكم بكفره - هو بين في عدم إيمانه بالله تعالى، ومن تأول قوله: لئن قدر الله علي بمعنى قضى، أو بمعنى ضيق، فقد أبعد النجعة، وحرف الكلم عن مواضعه، فإنه إنما أمر بتحريقه وتفريقه لئلا يجمع ويعاد. وقال: إذا أنامت فأحرقوني ثم اسحقوني، ثم ذروني في الريح في البحر، فوالله لئن قدر علي ربي ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً.

فذكر هذه الجملة الثانية بحرف الفاء عقيب الأولى يدل على أنه سبب لها،

وأنه فعل ذلك لئلا يقدر الله عليه إذا فعل ذلك. فلو كان مقراً بقدرة الله عليه إذا فعل ذلك كقدرته عليه إذا لم يفعل لم يكن في ذلك فائدة له؛ ولأن التقدير عليه والتضييق موافقان للتعذيب، وهو قد جعل تفريقه مغايراً، لأن يقدر الرب. قال: فوالله! لئن قدر الله علي ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً من العالمين. فلا يكون الشرط هو الجزاء؛ ولأنه لو كان مراده ذلك لقال: فوالله لئن جازاني ربي أو لئن عاقبني ربي ليعذبني عذاباً، كما هو الخطاب المعروف في مثل ذلك؛ ولأن لفظ «قدر» بمعنى ضيق لا أصل له في اللغة.

ومن استشهد على ذلك بقوله: ﴿**وقدر في السرد**﴾[1] وقوله: ﴿**ومن قدر عليه رزقه**﴾[2] فقد استشهد بما لا يشهد له. فان اللفظ كان قوله: ﴿**وقدر في السرد**﴾ أي اجعل بقدر، ولا تزد ولا تنقص وقوله: ﴿**ومن قدر عليه رزقه**﴾ أي جعل قدر ما يغنيه من غير فضل، إذا لو ينقص الرزق عن ذلك لم يعش.

وأما «قَدِرَ» بمعنى قَدَّرَ. أي أراد تقدير الخير والشر فهو لم يقل: إن قدر علي ربي العذاب، بل قال: لئن قدر علي ربي، والتقدير يتناول النوعين، فلا يصح أن يقال؛ لئن قضى الله علي؛ لأنه قد مضى وتقرر عليه ما ينفعه وما يضره؛ ولأنه لو كان المراد التقدير أو التضييق لم يكن ما فعله مانعاً من ذلك في ظنه. ودلائل فساد هذا التحريف كثيرة ليس هذا موضع بسطها، فغاية ما في هذا أنه كان رجلاً لم يكن عالماً بجميع ما يستحقه الله من الصفات، وبتفصيل أنه القادر، وكثير من المؤمنين قد يجهل مثل ذلك، فلا يكون كافراً.

ومن تتبع الأحاديث الصحيحة وجد فيها من هذا الجنس ما يوافقه كما روى مسلم في صحيحه عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «ألا أحدثكم عني وعن رسول الله ـ ﷺ ـ قلنا: بلى! قالت: لما كانت ليلتي التي النبي ﷺ فيها عندي، انقلب فوضع رداءه، وخلع نعليه فوضعها عند رجليه، وبسط طرف إزاره على فراشه، واضطجع فلم يثبت إلا ريثما ظن أني رقدت، فأخذ رداءه رويداً،

---

(١) سورة سبأ آية ١١.

(٢) سورة الطلاق آية ٧.

وانتقل رويداً، وفتح الباب رويداً، فخرج، ثم أجافه[1] رويداً، فجعلت درعي في رأسي، واختمرت وتقنعت إزاري ثم انطلقت على أثره حتى جاء البقيع[2]. فقام فأطال القيام، ثم رفع يديه ثلاث مرات، ثم انحرف فانحرفت وأسرع فأسرعت فهرول وهرولت وأحضر وأحضرت، فسبقته فدخلت، فليس إلا أن اضطجعت فقال: مالك يا عائشة حشيي رابية؟ قالت: لا شيء. قال: لتخبريني، أو ليخبرني اللطيف الخبير. قالت: قلت: يا رسول الله! بأبي أنت وأمي فأخبرته قال: فأنت السواد الذي رأيت أمامي؟ قلت: نعم فلهزني[3] في صدري لهزة أوجعتني. ثم قال: أظننت أن يحيف[4] الله عليك ورسوله؟! قالت: قلت مهما يكتم الناس يعلمه الله، قال: نعم! قال: فإن جبريل ـ عليه السلام ـ أتاني حين رأيت فناداني ـ فأخفاه منك فأجبته وأخفيته منك، ولم يكن يدخل عليك وقد وضعت ثيابك، وظننت أنك رقدت، وكرهت أن أوقظك وخشيت أن تستوحشني ـ فقال: إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم. قلت: كيف أقول يا رسول الله؟ قال: قولي: السلام على أهل الديار من المؤمنين، والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله للاحقون».

فهذه عائشة أم المؤمنين: سألت النبي ـ ﷺ ـ هل يعلم الله كل ما يكتم الناس؟ فقال لها النبي ﷺ: نعم، وهذا يدل على أنها لم تكن تعلم ذلك، ولم تكن قبل معرفتها بأن الله عالم بكل شيء يكتمه الناس كافرة، وإن كان الإقرار [بذلك] بعد قيام الحجة من أصول الإيمان، وإنكار علمه بكل شيء كإنكار قدرته على كل شيء، هذا مع أنها كانت ممن يستحق اللوم على الذنب، ولهذا لهزها النبي ﷺ وقال: أتخافين أن يحيف الله عليك ورسوله؟! وهذا الأصل مبسوط في غير هذا الموضع.

فقد تبين أن هذا القول كفر، ولكن تكفير قائله لايحكم به حتى يكون قد

---

(١) أجافه: أي رده خلفه.

(٢) البقيع: مكان دفن الموتى في المدينة المنورة، وهو مكان قريب من الحرم النبوي.

(٣) لهز: أي ضرب بجميع كفه.

(٤) الحيف: الجور والظلم.

بلغه من العلم ما تقوم به عليه الحجة التي يكفر تاركها، ودلائل فساد هذا القول كثيرة في الكتاب والسنة واتفاق سلف الأمة وأئمتها ومشائخها، لا يحتاج إلى بسطها. بل قد علم بالاضطرار من دين الإسلام: أن الأمر والنهي ثابت في حق العباد إلى الموت.

وأما قول القائل: هل يصدر ذلك عمن في قلبه خضوع للنبي ﷺ؟

فيقال: هذا لا يصدر عمن هو مقر بالنبوات مطلقاً، بل قائل ذلك كافر بجميع الأنبياء والمرسلين؛ لأنهم جميعاً أتوا بالأمر والنهي للعباد إلى حين الموت يل لا يصدر هذا القول ممن في قلبه خضوع لله وإقرار بأنه إله العالم، فإن هذا الإقرار يستلزم أن يكون الإنسان عبداً لله خاضعاً له، ومن سوغ لإنسان أن يفعل ما يشاء من غير تعبد بعبادة الله، فقد أنكر أن يكون الله إلهه.

وأما قولهم إنهم قد تجوهروا، فقالوا: لا نبالي الآن ما عملنا؟

فيقال لهم: ماذا تعنون بقولكم؟ فإن أرادوا أن النفس بقيت صافية طاهرة، لا تنازع إلى الشهوات والأهواء المردية، فهذا لو كان حقاً لكان معناه أن النفس قدصارت مطيعة ليس فيها دواعي المعصية فتكون منقادة إلى فعل المأمور، ولا تميل إلى المحظور، وهذا غايته أن تكون معصومة لا تطلب فعل القبيح، وهذا ما يخرجها أن تكون مأمورة منهية كالملائكة.

وإذا قال مثل هؤلاء: لا ينافي ما عملنا، قيل لهم: الذي تعلمونه إن كان من جنس الأهواء المردية فقد تناقضهم في زعمكم أن نفوسكم لم يبق لها هوى، وإن كان من جنس الأعمال الصالحة فهذا جنس لا ينكر، فعلم أنهم متناقضون في هذا الكلام إذا أرادوا بتجوهر النفس صفاءها وطهارتها عن الأكدار البشرية، مع أن هذا الكمال ممتنع في حق البشر ما دامت الأرواح في الأجسام؛ ولهذا أنكر المشائخ ذلك على من ادعاه، كالآثار المعروفة في ذلك عن الشيخ أبي علي الروذباري وغيرهم وأعظم الناس درجة الأنبياء عليهم السلام، وقد أمرهم الله بالتوبة والاستغفار، حتى خاتم الرسل أمره الله في أواخر ما أنزل عليه القرآن ما أمره به بقوله: ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً. فسبح**

بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا﴾[1].

ولهذا كان الذي عليه سلف الأمة وأئمتها أن الأنبياء إنما هم معصومون من الإقرار على الذنوب، وأن الله يستدركهم بالتوبة التي يحبها الله - ﴿ويحب التوابين﴾[2] - وإن كانت حسنات الأبرار سيئات المقربين. وأن ما صدر منهم من ذلك إنما كان الكمال النهاية بالتوبة لا لنقص البداية بالذنب. وأما غيرهم فلا تجب له العصمة، وإنما يدعي العصمة المطلقة لغير الأنبياء: الجهال من الرافضة وغالية النساك، وهذا مبسوط في موضعه.

وأما قولهم: حاصل النبوة يرجع إلى الحكمة والمصلحة، فلا ريب أن الله يبعث الأنبياء لما فيه صلاح العباد في المعاش والمعاد، ولا ريب أن الله أمر العباد بما فيه صلاحهم ونهاهم عما فيه فسادهم، ولا ريب أن الحكمة هي العلم والعمل بها، كما فسرها بذلك مالك بن أنس وغيره من الأئمة؛ لكن أي شيء في هذا مما يوجب سقوطها عن بعض العباد؟ وإنما يخرج عن الحكمة والمصلحة من يكون سفيها مفسداً ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه﴾[3] ﴿والله لا يحب الفساد﴾[4].

وأما قولهم: المراد منها ضبط العوام ولسنا نحن من العوام.

فالكلمة الأولى: زندقة ونفاق، والثانية كذب واختلاق، فإنه ليس المراد من الشرائع مجرد ضبط العوام؛ بل المراد منها الصلاح باطناًوظاهراً، للخاصة والعامة في المعاش والمعاد، ولكن في بعض فوائد العقوبات المشروعة في الدنيا ضبط العوام. كما قال عثمان بن عفان - رضي الله عنه -: «إن الله ليزع بالسلطان ما لايزع بالقرآن» فإن من يكون من المنافقين والفجار فإنه ينزجر بما يشاهده من العقوبات، وينضبط عن انتهاك المحرمات، فهذا بعض فوائد العقوبات السلطانية المشروعة.

---

(١) سورة النصر.

(٢) سورة البقرة آية ٢٢٢.

(٣) سورة البقرة آية ١٣٠.

(٤) سورة البقرة آية ٢٠٥.

وأما فوائد الأمر والنهي: فأعظم من أن يحصيها خطاب أو كتاب: بل هي الجامعة لكل خير يطلب ويراد، وفي الخروج عنها كل شر وفساد.

ودعوى هؤلاء أنهم من الخواص، ويوجب أنهم من حثالة منافقي العامة، وهم داخلون فيما نعت الله به المنافقين في قوله: **﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين. يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون. في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاًولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون. وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون. وإذا قيل لهم: آمنوا كما آمن الناس. فقالوا: أنؤمن كما آمن السفهاء؟ ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون﴾**[1] إلى قوله: **﴿صم بكم عمي فهم لا يرجعون﴾**[2] وفي مثل قوله: **﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك، وما أنزل من قبلك، يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت، وقد أمروا أن يكفروا به، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً. وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً. فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً. أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم، فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً. وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله، ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً. فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت، ويسلموا تسليماً﴾**[3] ولبسط الكلام على أمثال هؤلاء موضع غير هذا.

ومن هؤلاء من يحتج بقوله: **﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾**[4] ويقول معناه: أعبد ربك حتى يحصل لك العلم والمعرفة، فإذا حصل ذلك سقطت

---

(١) سورة البقرة الآيات ٨ ـ ١٣.

(٢) سورة البقرة آية ١٨.

(٣) سورة النساء الآيات ٦٠ ـ ٦٥.

(٤) سورة الحجر آية ٩٩.

العبادة. وربما قال بعضهم: إعمل حتى يحصل لك حال، فإذا حصل لك حال تصوفي [سقطت عنك العبادة] وهؤلاء فيهم من إذا ظن حصول مطلوبه من المعرفة والحال استحل ترك الفرائض، وارتكاب المحارم، وهذا كفر كما تقدم.

ومنهم من يظن استغناءه عن النوافل حينئذ، وهذا مغبون منقوص جاهل ضال خاسر باعتقاد الاستغناء عن النوافل واستخفافه بها حينئذ، بخلاف من تركها معتقداً كمال من فعلها معظماً لحاله، فإن هذا ليس مذموماً، وإن كان الفاعل لها مع ذلك أفضل منه، أو يكون هذا من المقربين السابقين، وهذا من المقتصدين[1]، أصحاب اليمين.

ومن هؤلاء من يظن أن الاستمساك بالشريعة ـ أمراً ونهياً ـ إنما يجب عليه ما لم يحصل له من المعرفة أو الحال، فإذا حصل له لم يجب عليه حينئذ الاستمساك بالشريعة النبوية، بل له حينئذ أن يمشي مع الحقيقة الكونية القدرية، أو يفعل بمقتضى ذوقه ووجده وكشفه ورأيه من غير اعتصام بالكتاب والسنة، وهؤلاء منهم من يعاقب بسلب حاله حتى يصير منقوصاً عاجزاً محروماً، ومنهم من يعاقب بسلب الطاعة حتى يصير فاسقاً، ومنهم من يعاقب بسلب الإيمان حتى يصير مرتداً منافقاً، أو كافراً ملعناً. وهؤلاء كثيرون جداً، وكثير من هؤلاء يحتج بقصة موسى والخضر.

فأما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿**واعبد ربك حتى يأتيك اليقين**﴾[1] فهي عليهم لا لهم، قال الحسن البصري: إن الله لم يجعل لعمل المؤمنين أجلاً دون الموت، وقرأ قوله: ﴿**واعبد ربك حتى يأتيك اليقين**﴾؛ وذلك أن اليقين هنا الموت وما بعده باتفاق علماء المسلمين وهؤلاء من المستيقنين. وذلك مثل قوله: ﴿**ما سلككم في سقر. قالوا لم نك من المصلين**﴾[3] ـ إلى قوله ـ ﴿**وكنا نخوض مع الخائضين.**

---

(١) جاء في تفسير ابن كثير، حول تفسير كلمة مقتصد في قوله تعالى من سورة فاطر ﴿**ومنهم مقتصد**﴾ قوله: «هو المؤدي للواجبات، التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات ويفعل بعض المكروهات» (٨٨٢/٣) فدرجة المقتصد هي تأتي بعد المقربين السابقين.

(٢) سورة الحجر آية ٩٩.

(٣) سورة المدثر آية ٤٢ ـ ٤٣.

وكنا نكذب بيوم الدين. حتى أتانا اليقين﴾[1] فهذا قالوه وهم في جهنم. وأخبروا أنهم كانوا [على] ما هم عليه من ترك الصلاة والزكاة والتكذيب بالآخرة، والخوض مع الخائضين حتى أتاهم اليقين. ومعلوم أنهم مع هذا الحال لم يكونوا مؤمنين بذلك في الدنيا، ولم يكونوا مع الذين قال الله فيهم: ﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾[2] وإنما أراد بذلك أنه أتاهم ما يوعدون وهو اليقين. ومنه قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح ـ لما توفي عثمان بن مظعون ـ وشهدت له بعض النسوة بالجنة. فقال لها النبي ﷺ: «وما يدريك؟ إني والله وأنا رسول الله ما أدري ما يفعل بي» وقال: «أما عثمان فقد جاءه اليقين من ربه» أي أتاه ما وعده وهو اليقين.

و «يقين» على وزن فعيل. وسواء كان فعيل بمعنى مفعول، أي الموت. كالحبيب والنصيح والذبيح، أو كان مصدراً وضع موضع المفعول. كقوله: ﴿هذا خلق الله﴾[3] وقوله: ﴿أتى أمر الله﴾[4] وقوله: ضرب الأمير؛ وغفر الله لك. قيل: وقولهم قدرة عظيمة. وأمثال ذلك؛ فإنه كثير. فعلى التقديرين المعنى لا يختلف؛ بل اليقين هو ما وعد به العباد من أمر الآخرة، وقوله: ﴿حتى يأتيك اليقين﴾[5] كقولك: يأتيك ما توعد.

فأما أن يظن أن المراد: اعبده حتى يحصل لك إيقان، ثم لاعبادة عليك. فهذا كفر باتفاق أئمة المسلمين؛ ولهذا ذكر للجنيد بم محمد[6] أن قوماً يزعمون أنهم يصلون من طريق البر إلى ترك العبادات. فقال: الزنا والسرقة وشرب الخمر خير من قول هؤلاء، وما زال أئمة الدين ومشائخه يعظمون النكير على هؤلاء

---

(١) سورة المدثر الآيات ٤٥ ـ ٤٧.

(٢) سورة البقرة آية ٤.

(٣) سورة لقمان آية ١١.

(٤) سورة النحل آية ١.

(٥) سورة الحجر آية ٩٩.

(٦) هو الجنيد بن محمد أبو القاسم النهاوندي الأصل البغدادي القواريري الحرار، شيخ طريقة التصوف، تفقه على أبي ثور، وكان يفتي بحلقته وله من العمر عشرون سنة، وهو أول من تكلم في علم التوحيد ببغداد، له رسائل، توفي ببغداد سنة ٢٩٧ هـ وقيل ٢٩٨ هـ. (انظر: طبقات الشافعية للسبكي ٢/٢٨ ـ ٣٧، وشذرات الذهب ٢/٢٢٨ ـ ٢٣٠).

المنافقين، وإن كانوا من الزهاد العابدين وأهل الكشف والتصرف في الكون وأرباب الكلام والنظر في العلوم، فإن هذه الأمور قد يكون بعضها في أهل الكفر والنفاق ومن المشركين وأهل الكتاب. وإنما الفاصل بين أهل الجنة وأهل النار؛ الإيمان والتقوى. الذي هو نعت أولياء الله. كما قال: **﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾**[1] وأما احتجاجهم بقصة موسى والخضر فيحتجون بها على وجهين:

أحدهما: أن يقولوا: إن الخضر كان مشاهداً الإرادة الربانية الشاملة، والمشيئة الإلهية العامة، وهي «الحقيقة الكونية». فلذلك سقط عنه الملام فيما خالف فيه الأمر والنهي الشرعي، وهو من عظيم الجهل والضلال، بل من عظيم النفاق والكفر، فإن مضمون هذا الكلام: أن من آمن بالقدر وشهد أن الله رب كل شيء، لم يكن عليه أمر ولا نهي، وهذا كفر بجميع كتب الله ورسله، وما جاءوا به من الأمر والنهي، وهو من جنس قول المشركين الذين قالوا: **﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء﴾**[2] قال الله تعالى: **﴿كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون﴾**[3] ونظير هذا في سورة النحل، وفي سورة يس. **﴿وإذا قيل لهم: انفقوا مما رزقكم الله. قال: الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه؟ إن أنتم إلا في ضلال مبين﴾**[4] وكذلك في سورة الزخرف: **﴿وقالوا: لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون﴾**[5].

وهؤلاء هم «القدرية المشركية» الذين يحتجون بالقدر على دفع الأمر والنهي هم شر من القدرية الذين هم مجوس هذه الأمة، الذين روى فيهم: «إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم»[6]؛ لأن هؤلاء يقرون بالأمر والنهي والثواب

---

(١) سورة يونس آية ٦٢ ـ ٦٣.

(٢) سورة الأنعام آية ١٤٨.

(٣) سورة الأنعام آية ١٤٨.

(٤) سورة يس آية ٤٧.

(٥) سورة الزخرف آية ٢٠.

(٦) أخرجه أبو داود في السنة ١٦، وابن ماجة في المقدمة ١٠، وانظر مسند أحمد ٧/٥، ٤.

والعقاب، لكن أنكروا عموم الإرادة والقدرة والخلق، وربما أنكروا سابق العلم.

وأما «القدرية المشركية» فإنهم ينكرون الأمر والنهي والثواب والعقاب، لكن [وإن لم ينكروا] عموم الإرادة والقدرة والخلق، فإنهم ينكرون الأمر والنهي والوعد والوعيد، ويكفرون بجميع الرسل والكتب؛ فإن الله إنما أرسل الرسل مبشرين من أطاعهم بالثواب، ومنذرين من عصاهم بالعقاب. وقد بسطنا الكلام على هؤلاء في مواضع غير هذا.

و «أيضاً» فإن موسى عيه السلام كان مؤمناً بالقدر، وعالماً به بل أتباعه من بني إسرائيل كانوا أيضاً مؤمنين بالقدر، فهل يظن من له أدنى عقل أن موسى طلب أن يتعلم من الخضر الإيمان بالقدر، وأن ذلك يدفع الملام، مع أن موسى أعلم بالقدر من الخضر، بل عموم أصحاب موسى يعلمون ذلك.

و «أيضاً» فلو كان هذا هو السر في قصة الخضر بين ذلك لموسى. وقال: إني كنت شاهداً للإرادة والقدر، وليس الأمر كذلك. بل بين له أسباباً شرعية تبيح له ما فعل.

وأما «**الوجه الثاني**»: فإن من هؤلاء من يظن: أن من الأولياء من يسوغ له الخروج عن الشريعة النبوية، كما ساغ للخضر الخروج عن متابعة موسى، وأنه قد يكون للولي في المكاشفة والمخاطبة ما يستغني به عن متابعة الرسول في عموم أحواله أو بعضها، وكثير منهم يفضل الولي في زعمه، إما مطلقاً، وإما من بعض الوجوه على النبي، زاعمين أن في قصة الخضر حجة لهم، وكل هذه المقالات من أعظم الجهالات والضلالات؛ بل من أعظم أنواع النفاق والإلحاد والكفر.

فإنه قد علم بالاضطرار من دين الإسلام: أن رسالة محمد بن عبد الله ـ ﷺ ـ لجميع الناس: عربهم وعجمهم، وملوكهم وزهادهم وعلمائهم وعامتهم، وإنها باقية دائمة إلى يوم القيامة؛ بل عامة الثقلين الجن والإنس، وإنه ليس لأحد من الخلائق الخروج عن متابعته وطاعته وملازمة ما يشرعه لأمته من الدين. وما سنه لهم من فعل المأمورات وترك المحظورات، بل لو كان الأنبياء المتقدمون قبله أحياء لوجب عليهم متابعته ومطاوعته.

وقال الله تعالى: ﴿**وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه. قال: أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري؟ قالوا: أقررنا. قال: فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين**﴾[1]. قال ابن عباس: ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق؛ لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره بأخذ الميثاق على امته لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه.

وفي سنن النسائي عن جابر أن النبي ـ ﷺ. رأى بيد عمر بن الخطاب ورقة من التوراة فقال: «أمتهوكون يا ابن الخطاب؟ لند جئتكم بها بيضاء نقية، لو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي» ـ هذا أو نحوه ـ ورواه أحمد في المسند ولفظه: «ولو كان موسى حياً ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم» وفي مراسيل أبي داود قال: «كفى يقوم ضلالة أن يبتغوا كتاباً غير كتابكم. أنزل على نبي غير نبيهم» وأنزل الله تعالى: ﴿**أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم**﴾[2] الآية.

بل قد ثبت بالأحاديث الصحيحة «أن المسيح عيسى بن مريم إذا نزل من السماء فإنه يكون متبعاً لشريعة محمد بن عبد الله ﷺ» فإذا كان ﷺ يجب اتباعه ونصره على من يدركه من الأنبياء. فكيف بمن دونهم؟

بل مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام أنه لا يجوز لمن بلغته دعوته أن يتبع شريعة رسول غيره، كموسى وعيسى. فإذا لم يجز الخروج عن شريعته إلى شريعة رسول، فكيف بالخروج عنه والرسل؟ كما قال تعالى: ﴿**قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى، وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون. فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق. فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم**﴾[3]. وقال تعالى: ﴿**آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من**

---

(١) سورة آل عمران آية ٨١.

(٢) سورة العنكبوت آية ٥١.

(٣) سورة البقرة آية ١٣٦ ـ ١٣٧.

رسله، وقالوا سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير﴾[1].

ولهذا لما كان قد دخل فيما ينقله أهل الكتاب عن الأنبياء تحريف وتبديل: كان ما علمنا أنه صدق عنهم آمنا به. وما علمنا أنه كذب رددناه، وما لم نعلم حاله لم نصدقه ولم نكذبه، كما روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم، ولا تكذبوهم. فإما أن يحدثونكم بباطل فتصدقوهم، وإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوهم. وقولوا: آمنا بما أنزل إلينا وما أنزل إليكم».

ومما يبين الغلط الذي وقع لهم في الاحتجاج بقصة موسى والخضر على مخالفة الشريعة: أن موسى عليه السلام لم يكن مبعوثاً إلى الخضر ولا أوجب الله على الخضر متابعته وطاعته؛ بل قد ثبت في الصحيحين «أن الخضر قال له: يا موسى! إني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه، وأنت على علم من علم الله، علمكه الله لا أعلمه» وذلك أن دعوة موسى كانت خاصة.

وقد ثبت في الصحاح من غير وجه عن النبي ﷺ أنه قال: فيما فضله الله به على الأنبياء قال: «كان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة» فدعوة محمد ﷺ لجميع العباد، ليس لأحد الخروج عن متابعته وطاعته، ولا استغناء عن رسالته، كما ساغ للخضر الخروج عن متابعة موسى وطاعته مستغنياً عنه بما علمه الله. وليس لأحد ممن أدركه الإسلام أن يقول لمحمد: إني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه، ومن سوغ هذا أو اعتقد أن أحداً من الخلق: الزهاد والعباد أو غيرهم له الخروج عن دعوة محمد ﷺ ومتابعته، فهو كافر باتفاق المسلمين. ودلائل هذا من الكتاب والسنة أكثر من أن تذكر هنا.

وقصة الخضر ليس فيها خروج عن الشريعة؛ ولهذا لما بين الخضر لموسى الأسباب التي فعل لأجلها ما فعل وافقه موسى، ولم يختلفا حينئذ. ولو كان ما فعله الخضر مخالفاً لشريعة موسى لما وافقه.

ومثل هذا وأمثاله يقع للمؤمنين بأن يختص أحد الشخصين بالعلم بسبب

---

(١) سورة البقرة آية ٢٨٥.

يبيح له الفعل في الشريعة، والآخر لا يعلم ذلك السبب، وإن كان قد يكون أفضل من الأول. مثل شخصين: دخلا إلى بيت شخص، وكان أحدهما يعلم طيب نفسه بالتصرف في منزله، إما باذن لفظي أو غيره، فيتصرف. وذلك مباح في الشريعة، والآخر الذي لم يعلم هذا السبب لا يتصرف، وخرق السفينة كان من هذا الباب، فإن الخضر كان يعلم أن أمامهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً، وكان من المصلحة التي يختارها أصحاب السفينة، إذا علموا ذلك؛ لئلا يأخذها[1] خير من انتزاعها منهم.

ونظير هذا حديث الشاة التي أصابها الموت فذبحتها امرأة بدون إذن أهلها. فسألوا النبي ﷺ عنها فأذن لهم في أكلها ولم يلزم التي ذبحت بضمان ما نقصت بالذبح؛ لأنه كان مأذوناً فيه عرفاً، والإذن العرفي كالإذن اللفظي؛ ولهذا بايع النبي ﷺ عن عثمان في غيبته بدون استئذانه لفظاً، ولهذا لما دعاه أبو طلحة ونفراً قليلاً إلى بيته، قام بجميع أهل المسجد. لما علم من طيب نفس أبي طلحة، وذلك لما يجعله الله من البركة. وكذلك حديث جابر.

وقد ثبت أن لحاماً دعاه فاستأذنه في شخص يستتبعه؛ لأنه لم يكن يعلم من طيب نفس اللحام ما علمه من طيب نفس أبي طلحة وجابر وغيرهما، وكذلك قتل الغلام كان من باب دفع الصائل على أبويه، لعلمه بأنه كان يفتنهما عن دينهما، وقتل الصبيان يجوز إذا قاتلوا المسلمين، بل يجوز قتلهم لدفع الصول على الأموال؛ فلهذا ثبت في صحيح البخاري أن نجدة الحروري لما سأل ابن عباس عن قتل الغلمان قال: «إن كنت تعلم منهم ما علمه الخضر من الغلام فاقتلهم، وإلا فلا تقتلهم».

وكذلك في الصحيحين «أن عمر لما استأذن النبي ﷺ في قتل ابن صياد، وكان مراهقاً، لما ظنه الدجال، فقال: «إن يكنه فلن تسلط عليه، وإن لم يكنه فلا خير لك في قتله» فلم يقل إن يكنه فلا خير لك في قتله، بل قال: «فلن تسلط عليه». وذلك يدل على أنه لو أمكن إعدامه قبل بلوغه لقطع فساده لم يكن ذلك محذوراً، وإلا كان التعليل بالصغر كافياً، فإن الأعم إذا كان مستقلاً بالحكم كان

---

(١) بياض بالأصل.

الأخص عديم التأثير، كما قال في الهرة: «إنها ليست بنجس إنها من الطوافين عليكم والطوافات»[1].

وأما بناء الجدار فإنما ترك أخذ الجعل مع جوعهم، وقد بين الخضر: أن أهله فيهم من الشيم وصلاح الوالد ما يستحقون به التبرع؛ وإن كان جائعاً.

ومن ذلك أن من أسباب الوجوب والتحريم والإباحة ما قد يكون ظاهراً، فيشترك فيها الناس، ومنه ما يكون خفياً عن بعضهم ظاهراً لبعضهم على الوجه المعتاد، ومنه ما يكون خفياً يعرف بطريق الكشف. وقصة الخضر من هذا الباب، وذلك يقع كثيراً في أمتنا. مثل أن يقدم لبعضهم طعام فيكشف له أنه مغصوب فيحرم عليه أكله. وإن لم يحرم ذلك على من لم يعلم ذلك، أو يظفر بمال يعلم أن صاحبه أذن له فيه فيحل له أكله، فإنه لا يحل ذلك لمن لم يعلم الإذن. وأمثال ذلك.

فمثل هذا إذا كان الشيخ من المعروفين بالصدق والإخلاص كان مثل هذا من مواقع الاجتهاد، الذي يصيب فيه تارة ويخطىء أخرى، فإن المكاشفات يقع فيها من الصواب والخطأ نظير ما يقع في الرؤيا وتأويلها، والرأي، والرواية، وليس شيء معصوماً على الإطلاق إلا ما ثبت عن الرسول؛ ولهذا يجب رد جميع الأمور إلى ما بعث به ولهذا كان الصديق المتلقي عن الرسول كل شيء؛ مثل أبي بكر أفضل من المحدث مثل عمر؛ وكان الصديق يبين للمجدث المواضع التي اشتبهت عليه؛ حتى يرده إلى الصواب. كما فعل أبو بكر بعمر يوم الحديبية؛ ويوم موت النبي ﷺ، وفي قتال مانعي الزكاة، وغير ذلك. وهذا الباب قد بسطناه في غير هذا الموضع.

والمقصود انه ليس في قصة الخضر ما يسوغ مخالفة شريعة رسول الله ﷺ لأحد من الخلق. نعم لفظ «الشرع» قد صار فيه اشتراك في عرف العامة، منهم من

---

(١) أخرجه أبو داود في الطهارة ٣٨، والترمذي في الطهارة ٦٩، والنسائي في الطهارة ٥٣ والمياه ٨، وابن ماجة في الطهارة ٣٢، والدارمي في الوضوء ٥٨، وفي الموطأ في الطهارة ١٣، وفي المسند ٥/٢٣٦، ٣٠٣، ٣٠٩.

يجعله عبارة عن حكم الحكام، ولا ريب أن حكم الحاكم قد يطابق الحق في الباطن. وقد يخالفه، ولهذا قال ﷺ في الحديث المتفق عليه عن أم سلمة: «إنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض. وإنما أقضي بنحو مما اسمع فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار».

وقد اتفق المسلمون على أن حكم الحاكم بالحقوق المرسلة لا يغير الشيء عن صفته في الباطن، فلو حكم بمال زيد لعمر، لإقرار أو بينة كان ذلك باطلاً في الباطن، ولم يبح ذلك له في الباطن. ولا يجوز له أخذه مع العلم بالحال باتفاق المسلمين، وكذلك عند جماهير الأمة لو حكم بعقد أو فسخ نكاح أو طلاق وبيع فإن حكمه لا يغير الباطن عندهم. وإن كان منهم من يقول: حكمه بغير ذلك في هذا الموضع: لأن له ولاية العقود والفسوخ. فالصحيح قول الجمهور. وهو مذهب مالك والشافعي وأحمد، وسائر فقهاء أهل الحجاز والحديث. وكثير من فقهاء العراق.

وأيضاً فلفظ «الشرع» في هذا الزمان، يطلق على ثلاثة معان:

شرع منزل، وشرع متأول، وشرع مبدل.

«فالمنزل» الكتاب والسنة، فهذا الذي يجب اتباعه على كل واحد، ومن اعتقد أنه لا يجب اتباعه على بعض الناس فهو كافر.

و «المتأول» موارد الاجتهاد التي تنازع فيها العلماء، فاتباع احد المجتهدين جائز لمن اعتقد أن حجته هي القوية، أو لمن ساغ له تقليده، ولا يجب على عموم المسلمين اتباع أحد بعينه إلا رسول الله ﷺ. فكثير من المتفقهة إذا رأى بعض الناس من المشائخ الصالحين، [يرى أنه] يكون الصواب مع ذلك، وغيره قد خالف الشرع، وإنما خالف ما يظنه هو الشرع، وقد يكون ظنه خطأ فيثاب على اجتهاده، وخطؤه مغفور له وقد يكون الآخر مجتهداً مخطئاً.

وأما «الشرع المبدل»: فمثل الأحاديث الموضوعة، والتأويلات الفاسدة، والأقيسة الباطلة والتقليد المحرم، فهذا يحرم أيضاً. وهذا من مثار النزاع، فإن

كثيراً من المتفقهة والمتكلمة قد يوجب على كثير من المتصوفة والمتفقرة اتباع مذهبه المعين، وتقليد متبوعة؛ والتزام حكم حاكمه باطناً وظاهراً، ويرى خروجه عن ذلك خروجاً عن الشريعة المحمدية، وهذا جهل منه وظلم؛ بل دعوى ذلك على الإطلاق كفر ونفاق.

كما أن كثيراً من المتصوفة والمتفقرة يرى مثل ذلك في شيخه ومتبوعه، وهو في هذا نظير ذلك. وكل من هؤلاء قد يسوغ الخروج عما جاء به الكتاب والسنة، لما يظنه معارضاً لهما، إما لما يسميه هذا ذوقاً ووجداً، ومكاشفات ومخاطبات، وإما لما يسميه هذا قياساً ورأياً وعقليات وقواطع، وكل ذلك من شعب النفاق، بل يجب على كل أحد تصديق الرسول ﷺ في جميع ما أخبر به، وطاعته في جميع ما أمر به، وليس لأحد أن يعارضه بضرب الأمثال، ولا بآراء الرجال، وكل ما عارضه فهو خطأ وضلال.

وقد ذكرنا من تفصيل ذلك في غير هذا الموضع ما لا يتسع له هذا المجال.

والله تعالى بوفقنا وسائر إخواننا لما يحبه ويرضاه؛ من الأقوال والأفعال الباطنة والظاهرة، وفي جميع الأحوال. والله سبحانه وتعالى أعلم. والحمد لله وحده، وصلواته وسلامه على نبيه محمد وآله وصحبه وسلم.

الباب الثامن

في ذكر بعض مصطلحات المتصوفة

سئل شيخ الإسلام عن الحديث المروي في «الإبدال هل هو صحيح أم مقطوع؟ وهل «الإبدال» مخصوصون بالشام؟ أم حيث تكون شعائر الإسلام قائمة بالكتاب والسنة يكون بها الإبدال بالشام وغيره من الاقاليم؟ وهل صحيح أن الولي يكون قاعداً في جماعة ويغيب جسده؟.

وما قول السادة العلماء في هذه الأسماء التي تسمى بها أقوام من المنسوبين إلى الدين والفضيلة، ويقولون هذا غوث الأغواث، وهذا قطب الأقطاب وهذا قطب العالم، وهذا القطب الكبير، وهذا خاتم الأولياء؟!

فأجاب: أما الأسماء الدائرة على السنة كثير من النساك والعامة مثل «الغوث» الذي بمكة، و«الأوتاد الأربعة» و«الأقطاب السبعة» و«الأبدال الأربعين» و«النجباء الثلاثمائة»: فهذه أسماء ليست موجودة في كتاب الله تعالى؛ ولا هي أيضاً مأثورة عن النبي ﷺ بإسناد صحيح، ولا ضعيف يحمل [عليه] ألفاظ الأبدال.

فقد روي فيهم حديث شامي منقطع الإسناد عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه قال: «إن فيهم - يعني أهل الشام - الأبدال الأربعين رجلاً، كلما مات رجل أبدل الله تعالى مكانه رجلاً». ولا توجد هذه الأسماء في كلام السلف، كما هي على هذا الترتيب؛ ولا هي مأثورة على هذا الترتيب والمعاني عن المشائخ المقبولين عند الأمة قبولاً عاماً؛ وإنما توجد على هذه الصورة عن بعض المتوسطين من المشائخ؛ وقد قالها إما آثراً لها عن غيره أو ذاكراً.

وهذا الجنس ونحوه من علم الدين قد التبس عند أكثر المتأخرين حقه بباطله، فصار فيه من الحق ما يوجب قبوله، ومن الباطل ما يوجب رده، وصار كثير من الناس على طرفي نقيض.

قوم كذبوا به كله لما وجدوا فيه من الباطل.

وقوم صدقوا به كله لما وجدوا فيه من الحق، وإنما الصواب التصديق بالحق والتكذيب بالباطل، وهذا تحقيق لما أخبر به النبي عليه السلام عن ركوب هذه الأمة سنن من قبلها حذو القذة بالقذة[1].

فإن أهل الكتابين لبسوا الحق بالباطل، وهذا هو التبديل والتحريف الذي وقع في دينهم؛ ولهذا يتغير الدين بالتبديل تارة، وبالنسخ أخرى، وهذا الدين لا ينسخ أبداً لكن يكون فيه من يدخل من التحريف والتبديل والكذب والكتمان ما يلبس به الحق بالباطل، ولا بد أن يقيم الله فيه من تقوم به الحجة خلفاً عن الرسل، فينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، فيحق الله الحق ويبطل الباطل ولو كره المشركون.

فالكتب المنزلة من السماء، والإثارة من العلم المأثورة عن خاتم الأنبياء، يميز الله بها الحق من الباطل، ويحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وبذلك يتبين أن هذه الأسماء على هذا العدد، والترتيب والطبقات ليست حقاً في كل زمان، بل يجب القطع بأن هذا على عمومه وإطلاقه باطل؛ فإن المؤمنين يقلون تارة ويكثرون أخرى، ويقل فيهم السابقون المقربون تارة ويكثرون أخرى، وينتقلون في الأمكنة، وليس من شرط أولياء الله أهل الإيمان والتقوى ومن يدخل فيهم من السابقين المقربين لزوم مكان واحد في جميع الأزمنة، وليس من شرط أولياء الله أهل الإيمان والتقوى ومن يدخل فيهم من السابقين المقربين تعيين العدد.

وقد بعث الله رسوله بالحق وآمن معه بمكة نفر قليل كانوا أقل من سبعة، ثم أقل من أربعين، ثم أقل من سبعين. ثم أقل من ثلاثمائة فيعلم أنه لم يكن فيهم

(١) القذة: ريشة الطائر كالنسر والصقر بعد تسويتها وإعدادها لتركب في السهم، وقوله: حذو القذة بالقذة، يضرب مثلاً للشيئين يستويان ولا يتفاوتان.

هذه الأعداد، ومن الممتنع أن يكون ذلك في الكفار ثم هاجر هو وأصحابه إلى المدينة، وكانت هي دار الهجرة والسنة والنصرة، ومستقر النبوة وموضع خلافة النبوة، وبها انعقدت بيعة الخلفاء الراشدين، أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وإن كان قد خرج منها بعد أن بويع فيها؛ ومن الممتنع أنه قد كان بمكة في زمنهم من يكون أفضل منهم.

ثم إن الإسلام انتشر في مشارق الأرض ومغاربها، وكان في المؤمنين في كل وقت من أولياء الله المتقين؛ بل من الصديقين السابقين المقربين عدد لا يحصى عدده إلا رب العالمين، لا يحصرون بثلاثمائة ولا بثلاثة آلاف، ولما انقرضت القرون الثلاثة الفاضلة كان في القرون الخالية من أولياء الله المتقين؛ بل من السابقين المقربين من لا يعرف عدده، وليسوا بمحصورين بعدد ولا محدودين بأمد، وكل من جعل لهم عدداً محصوراً فهو من المبطلين عمداً أو خطأ، فنسأله من كان القطب والثلاثة إلى سبعمائة، في زمن آدم ونوح وإبراهيم، وقبل محمد عليهم الصلاة والسلام في الفترة حين كان عامة الناس كفرة؟! قال الله تعالى: **﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً﴾**[1] أي كان مؤمناً وحده وكان الناس كفاراً جميعاً. وفي صحيح البخاري «أنه قال لسارة: ليس على الأرض اليوم مؤمن غيري وغيرك» وقال الله تعالى: **﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾**[2].

وإن زعموا أنهم كانوا بعد رسولنا عليه السلام نسألهم في أي زمان كانوا؟ ومن أول هؤلاء؟ وبأية آية؟ وبأي حديث مشهور في الكتب الستة؟ وبأي إجماع متواتر من القرون الثلاثة ثبت وجود هؤلاء بهذه الأعداد حتى نعتقده؟ لأن العقائد لا تعتقد إلا من هذه الأدلة الثلاثة، ومن البرهان العقلي: **﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾**[3] فإن لم يأتو بهذه الأدلة الأربعة الشرعية فهم الكاذبون بلا ريب فلا نعتقد أكاذيبهم.

---

(١) سورة النحل آية ١٢٠.

(٢) سورة البقرة آية ١٢٩.

(٣) سورة النحل آية ٦٤.

ويلزم منه أن يرزق الله سبحانه وتعالى الكفار وينصرهم على عدوهم بالذات بلا واسطة، ويرزق المؤمنين وينصرهم بواسطة المخلوقات والتعظيم في عدم الواسطة، كروح الله، وناقة الله. تدبر ولا تتحير، واحفظ القاعدة حفظاً.

«**فأما لفظ الغوث والغياث**» فلا يستحقه إلا الله فهو غياث المستغيثين، فلا يجوز لأحد الاستغاثة بغيره، لا يملك مقرب ولا نبي مرسل.

ومن زعم أن أهل الأرض يرفعون حوائجهم التي يطلبون بها كشف الضر عنهم، ونزول الرحمة إلى الثلاثمائة إلى السبعين، والسبعون إلى الأربعين، والأربعون إلى السبعة، والسبعة إلى الأربعة، والأربعة إلى الغوث فهو كاذب ضال مشرك. فقد كان المشركون كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿**وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه**﴾(١) وقال سبحانه وتعالى: ﴿**أمن يجيب المضطر إذا دعاه**﴾(٢).

فكيف يكون المؤمنون يرفعون إليه حوائجهم بعده بوسائط من الحجاب؟ وهو القائل تعالى: ﴿**وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون**﴾(٣) وقال إبراهيم عليه السلام داعياً لأهل مكة ﴿**ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم. ربنا ليقيموا الصلوة،فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون. ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء، الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحق إن ربي لسميع الدعاء**﴾(٤).

وقال النبي عليه السلام لأصحابه لما رفعوا أصواتهم بالذكر «أيها الناس إربعوا على أنفسكم فإنكم لاتدعون أصم ولا غائباً وإنما تدعون سميعاً قريباً؛ إن

---

(١) سورة الإسراء آية ٦٧.

(٢) سورة النمل آية ٦٢.

(٣) سورة البقرة آية ١٨٦.

(٤) سورة البقرة الآيات ١٨٦ ـ ١٨٨.

الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحته»[1] وهذا باب واسع.

وقد علم المسلمون كلهم أنه لم يكن عامة المسلمين ولا مشايخهم المعرفون يرفعون إلى الله حوائجهم، لا ظاهراً ولا باطناً بهذه الوسائط والحجاب، فتعالى الله عن تشبيهه بالمخلوقين من الملوك وسائر ما يقوله الظالمون علواً كبيراً، وهذا من جنس دعوى الرافضة أنه لا بد في كل زمان من إمام معصوم يكون حجة الله على المكلفين لا يتم الإيمان إلا به، ثم مع هذا يقولون إنه كان صبياً دخل السرداب من أكثر من أربعمائة وأربعين سنة، ولا يعرف له عين ولا أثر، ولا يدرك له حس ولا خبر.

وهؤلاء الذين يدعون هذه المراتب فيهم مضاهاة للرافضة من بعض الوجوه؛ بل هذا الترتيب والإعداد تشبه من بعض الوجوه ترتيب الاسماعيلية، والنصيرية، ونحوهم في السابق والتالي والناطق، والأساس والجسد[2] وغير ذلك من الترتيب. الذي ما نزل الله به من سلطان.

وأما الأوتاد فقد يوجد في كلام البعض أنه يقول: فلان من الأوتاد، يعني بذلك أن الله تعالى يثبت به الإيمان، والدين في قلوب من يهديهم الله به، كما يثبت الأرض بأوتادها، وهذا المعنى ثابت لكل من كان بهذه الصفة من العلماء، فكل من حصل به تثبيت العلم والإيمان في جمهور الناس كان بمنزلة الأوتاد العظيمة، والجبال الكبيرة ومن كان بدونه كان بحسبه، وليس ذلك محصوراً في أربعة ولا أقل ولا أكثر، بل جعل هؤلاء أربعة مضاهاة بقول المنجمين في أوتاد الأرض.

وأما القطب فيوجد أيضاً في كلامهم فلان من الأقطاب، أو فلان قطب، فكل من دار عليه أمر من أمور الدين أو الدنيا، باطناً أو ظاهراً، فهو قطب ذلك الأمر ومداره، سواء كان الدائر عليه أمر داره أو دربه، أو قريته أو مدينته، أمر دينها أو دنياها، باطناً أو ظاهراً، ولا اختصاص لهذا المعنى بسبعة ولا أقل ولا أكثر؛

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد ١٣١ والمغازي ٣٨ والدعوات ٥١، وأبو داود في الوتر ٢٦، وأحمد ٣٩٤/٤، ٤٠٢، ٤١٨.

(٢) في نسخة والحد.

لكن الممدوح من ذلك من كان مداراً لصلاح الدنيا والدين دون مجرد صلاح الدنيا؛ فهذا هو القطب في عرفهم فقد يتفق في بعض الأعصار أن يكون شخص أفضل أهل عصره، وقد يتفق في عصر آخر أن يتكافأ اثنان أو ثلاثة في الفضل عند الله سواء، ولا يجب أن يكون في كل زمان شخص واحد هو أفضل الخلق عند الله مطلقاً.

وكذلك لفظ «البدل» جاء في كلام كثير منهم، فأما الحديث المرفوع فالأشبه أنه ليس من كلام النبي عليه السلام، فإن الإيمان كان بالحجاز وباليمن قبل فتوح الشام، وكانت الشام والعراق دار كفر، ثم لما كان في خلافة علي رضي الله عنه قد ثبت عنه عليه السلام أنه قال: «تمرق مارقة من المسلمين تقتلهم أولى الطائفتين بالحق»[1] فكان علي وأصحابه أولى بالحق ممن قاتلهم من أهل الشام؛ ومعلوم أن الذين كانوا مع علي رضي الله عنه من الصحابة مثل عمار بن ياسر، وسهل بن حنيف ونحوهما، كانوا أفضل من الذين كانوا مع معاوية، وإن كان سعد بن أبي وقاص ونحوه من القاعدين أفضل ممن كان معهما، فكيف يعتقد مع هذا أن الأبدال جميعهم الذين هم أفضل الخلق كانوا في أهل الشام؟! هذا باطل قطعاً، وإن كان قد ورد في الشام وأهله فضائل معروفة فقد جعل الله لكل شيء قدراً.

والكلام يجب أن يكون بالعلم والقسط، فمن تكلم في الدين بغير علم دخل في قوله تعالى: **﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾**[2] وفي قوله تعالى: **﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾**[3] ومن تكلم بقسط وعدل دخل في قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله﴾**[4] وفي قوله تعالى: **﴿وإذا قلتم فاعدلوا﴾**[5] وفي قوله تعالى: **﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾**[6].

---

(١) أخرجه مسلم بلفظ: «تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين، يقتلها أولى الطائفتين بالحق» (٢/٧٤٥) وأخرجه أيضاً أبو داود في السنة ١٢، وأحمد ٣/٣٢، ٤٨.

(٢) سورة الإسراء آية ٣٦.

(٣) سورة البقرة آية ١٦٩.

(٤) سورة النساء آية ١٣٥.

(٥) سورة الأنعام آية ١٥٥.

(٦) سورة الحديد آية ٢٥.

والذين تكلموا باسم البدل فسروه بمعان: منها أنهم إبدال الأنبياء ومنها أنه كلما مات منهم رجل أبدل الله تعالى مكانه رجلاً، ومنها أنهم أبدلوا السيئات من أخلاقهم وأعمالهم وعقائدهم بحسنات. وهذه الصفات كلها لا تختص بأربعين ولا بأقل ولا بأكثر، ولا تحصر بأهل بقعة من الأرض؛ وبهذا التحرير يظهر المعنى في اسم «النجباء».

فالغرض أن هذه الأسماء تارة تفسر بمعان باطلة بالكتاب والسنة وإجماع السلف، مثل تفسير بعضهم «الغوث» هو الذي يغيث الله به أهل الأرض في رزقهم ونصرهم. فإن هذا نظير ما تقوله النصارى في الباب وهو معدوم العين والأثر شبيه بحال المنتظر الذي دخل السرداب من نحو أربعمائة وأربعين سنة.

وكذلك من فسر «الأربعين الأبدال» بأن الناس إنما ينصرون ويرزقون بهم فذلك باطل؛ بل النصر والرزق يحصل بأسباب من آكدها دعاء المؤمنين، وصلاتهم وإخلاصهم، ولا يتقيد ذلك بأربعين ولا بأقل ولا بأكثر؛ كما جاء في الحديث المعروف أن سعد بن أبي وقاص قال: يا رسول الله! الرجل يكون حامية القوم، أيسهم له مثل ما يسهم لأضعفهم؟ فقال: «يا سعد! وهل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم بدعائهم وصلاتهم وإخلاصهم».

وقد يكون للرزق والنصر أسباب أخر؛ فإن الفجار والكفار أيضاً يرزقون وينصرون؛ وقد يجدب الأرض على المؤمنين ويخيفهم من عدوهم لينيبوا إليه ويتوبوا من ذنوبهم، فيجمع لهم بين غفران الذنوب وتفريج الكروب، وقد يملي للكفار ويرسل السماء عليهم مدراراً؛ ويمددهم بأموال وبنين ويستدرجهم من حيث لا يعلمون، إما ليأخذهم في الدنيا أخذ عزيز مقتدر، وإما ليضعف عليهم العذاب في الآخرة فليس كل إنعام كرامة، ولا كل امتحان عقوبة؛ قال الله تعالى: ﴿**فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن. وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن كلا**﴾[1].

وليس في أولياء الله المتقين: ولا عباد الله المخلصين، الصالحين ولا أنبيائه

---

(١) سورة الفجر آية ١٥ ـ ١٦.

المرسلين؛ من كان غائب الجسد دائماً عن إبصار الناس بل هذا من جنس قول القائلين إن علياً في السحاب، وأن محمد بن الحنفية في جبال رضوى[1]، وأن محمد بن الحسن بسرداب سامري، وأن الحاكم بجبل مصر، وأن الإبدال الأربعين رجال الغيب بجبل لبنان فكل هذا ونحوه من قول أهل الإفك والبهتان؛ نعم قد تخرق العادة في حق الشخص، فيغيب تارة عن أبصار الناس إما لدفع عدو عنه وإما لغير ذلك، وإما أنه يكون هكذا طول عمره فباطل، نعم! يكون نور قلبه وهدى فؤاده وما فيه من أسرار الله تعالى وأمانته وأنواره ومعرفته غيباً عن أعين الناس، ويكون صلاحه وولايته غيباً عن أكثر الناس، فهذا هو الواقع، وأسرار الحق بينه وبين أوليائه، وأكثر الناس لا يعلمون، وقد بينا بطلان اسم الغوث مطلقاً، واندرج في ذلك غوث العجم ومكة والغوث السابع.

وكذا لفظ «خاتم الألياء» لفظ باطل لا أصل له، وأول من ذكره محمد بن علي الحكيم الترمذي، وقد انتحله طائفة كل منهم يدعي أنه خاتم الأولياء: كابن حمويه وابن عربي وبعض الشيوخ الضالين بدمشق وغيرها، وكل منهم يدعي أنه أفضل من النبي عليه السلام من بعض الوجوه، إلى غير ذلك من الكفر والبهتان، وكل ذلك طمعاً في رياسة خاتم الأولياء لما فاتتهم رياسة خاتم الأنبياء، وقد غلطوا؛ فإن خاتم الأنبياء إنما كان أفضلهم للأدلة الدالة على ذلك، وليس كذلك خاتم الأولياء، فإن أفضل أولياء هذه الأمة السابقون الألون من المهاجرين والأنصار، وخير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر رضي الله عنه، ثم عمر رضي الله عنه، ثم عثمان رضي الله عنه، ثم علي رضي الله عنه، وخير قرونها القرن الذي بعث فيه النبي ﷺ، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، وخاتم الألياء في الحقيقة آخر مؤمن تقي يكون في الناس، وليس ذلك بخير الألياء، ولا أفضلهم بل خيرهم وأفضلهم أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، ثم عمر: اللذان ما طلعت شمس ولا غربت على أحد بعد النبيين والمرسلين أفضل منهما.

---

(١) جبل رضوى المقصود هنا هو من ينبع على مسيرة يوم، ومن المدينة على سبع مراحل ميامنه طريق مكة، وهو جبل منيف ذو شعاب وأودية وبه مياه كثيرة (انظر معجم البلدان ٣/٥١).

الباب التاسع



قال شيخ الإسلام قدسَ الله روحُه الحمد لله رب العالمين؛ واشهد أن لا إله إلا الله رب السموات والأرضين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله خاتم النبيين، صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم تسليماً دائماً إلى يوم الدين.

أما بعد، فقد كتبت ما حضرني ذكره في المشهد الكبير بقصر الإمارة والميدان بحضرة الخلق من الأمراء والكتاب والعلماء والفقراء العامة وغيرهم في أمر «البطائحية» يوم السبت تاسع جمادى الأولى سنة خمس، لتشوف الهمم إلى معرفة ذلك وحرص الناس على الاطلاع عليه، فإن من كان غائباً عن ذلك قد يسمع بعض أطراف الواقعة، ومن شهدها فقد رأى وسمع ما رأى وسمع، ومن الحاضرين من سمع ورأى ما لم يسمع غيره ويره لانتشار هذه الواقعة العظيمة، ولما حصل بها من عز الدين؛ وظهور كلمته العليا. وقهر الناس على متابعة الكتاب والسنة، وظهور زيف من خرج عن ذلك من أهل البدع المضلة، والأحوال الفاسدة والتلبيس على المسلمين.

وقد كتبت في غير هذا الموضع صفة حال هؤلاء «البطائحية»، وطريقهم وطريق الشيخ أحمد بن الرفاعي وحاله، وما وافقوا فيه المسلمين وما خالفوهم؛ ليتبين ما دخلوا فيه من دين الإسلام وما خرجوا فيه عن دين الإسلام؛ فإن ذلك يطول وصفه في هذا الموضع، وإنما كتبت هنا ما حضرني ذكره من حكاية هذه الواقعة المشهورة في مناظرتهم ومقابلتهم.

وذلك أني كنت أعلم من حالهم بما قد ذكرته في غير هذا الموضع ـ وهو أنهم وإن كانوا منتسبين إلى الإسلام وطريقة الفقر والسلوك ويوجد في بعضهم

التعبد والتأله والوجد والمحبة والزهد والفقر والتواضع ولين الجانب والملاطفة في المخاطبة والمعاشرة والكشف والتصرف ونحو ذلك ما يوجد - فيوجد أيضاً في بعضهم من الشرك وغيره من أنواع الكفر، ومن الغلو والبدع في الإسلام والإعراض عن كثير مما جاء به الرسول، والاستخفاف بشريعة الإسلام، والكذب والتلبيس، وإظهار المخارق الباطلة وأكل أموال الناس بالباطل، والصد عن سبيل الله ما يوجد. . .

وقد تقدمت لي معهم وقائع متعددة بينت فيها لمن خاطبته منهم ومن غيرهم بعض ما فيهم من حق وباطل، وأحوالهم التي يسمونا الإشارات، وتاب منهم جماعة وأدب منهم جماعة من شيوخهم، وبينت صورة ما يظهرونه من المخاريق: مثل ملابسة النار والحيات، وإظهار الدم، واللاذن والزعفران وماء الورد والعسل والسكر وغير ذلك، وإن عامة ذلك عن حيل معروفة وأسباب مصنوعة، وأراد غير مرة منهم قوم إظهار ذلك فلما رأوا معارضتي لهم رجعوا ودخلوا على أن أسترهم فأجبتهم إلى ذلك بشرط التوبة، حتى قال لي شيخ منهم في مجلس عام فيه جماعة كثيرة ببعض البساتين لما عارضتهم بأني أدخل معكم النار بعد أن نغتسل بما يذهب الحيلة، ومن احترق كان مغلوباً، فلما رأوا الصدق أمسكوا عن ذلك.

وحكى ذلك الشيخ أنه كان مرة عند بعض أمراء التتر بالمشرق، وكان له صنم يعبده، قال: فقال لي: هذا الصنم يأكل من هذا الطعام كل يوم ويبقى أثر الأكل في الطعام بيناً يرى فيه!! فأنكرت ذلك، فقال لي إن كان يأكل أنت تموت؟ فقلت نعم، قال فأقمت عنده إلى نصف النهار ولم يظهر في الطعام أثر! فاستعظم ذلك التتري وأقسم بأيمان مغلظة أنه كل يوم يرى فيه أثر الأكل، لكن اليوم بحضورك لم يظهر ذلك. فقلت لهذا الشيخ: أنا أبين لك سبب ذلك. ذلك التتري كافر مشرك، ولصنمه شيطان يغويه بما يظهره من الأثر في الطعام، وأنت كان معك من نور الإسلام وتأييد الله تعالى ما أوجب انصراف الشيطان عن أن يفعل ذلك بحضورك، وأنت وأمثالك بالنسبة إلى أهل الإسلام الخالص كالتتري بالنسبة إلى أمثالك، فالتتري وأمثاله سود، وأهل الإسلام المحض بيض، وأنتم بلق فيكم سواد وبياض. فأعجب هذا المثل من كان حاضراً!!!

وقلت لهم في مجلس آخر لما قالوا تريد أن نظهر هذه الإشارات؟ قلت: إن علمتموها بحضور من ليس من أهل الشأن: من الأعراب والفلاحين، أو الأتراك أو العامة أو جمهور المتفقهة والمتفقرة والمتصوفة لم يحسب لكم ذلك. فمن معه ذهب فليأت به إلى سوق الصرف إلى عند الجهابذة الذين يعرفون الذهب الخالص من المغشوش ومن الصفر؛ لا يذهب إلى عند أهل الجهل بذلك. فقالوا لي: لا نعمل هذا إلا أن تكون همتك معنا، فقلت: ليست معكم؛ بل أنا معارض لكم مانع لكم؛ لأنكم تقصدون بذلك إبطال شريعة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فإن كان لكم قدرة على إظهار ذلك فافعلوا. فانقلبوا صاغرين.

فلما كان قبل هذه الواقعة بمدة كان يدخل منهم جماعة مع شيخ لهم من شيوخ البر، مطوقين بأغلال الحديد في أعناقهم، وهو وأتباعه معروفون بأمور، وكان يحضر عندي مرات فأخاطبه بالتي هي أحسن؛ فلما ذكر الناس ما يظهرونه من الشعار المبتدع الذي يتميزون به عن المسلمين، ويتخذونه عبادة وديناً يوهمون به الناس إن هذا لله سر من أسرارهم، وإنه سيماء أهل الموهبة الإلهية السالكين طريقهم - أعني طريق ذلك الشيخ وأتباعه - خاطبته في ذلك بالمسجد الجامع، وقلت هذا بدعة لم يشرعها الله تعالى ولا رسوله، ولا فعل ذلك أحد من سلف هذه الأمة ولا من المشايخ الذين يقتدى بهم، ولا يجوز التعبد بذلك، ولا التقرب به إلى الله تعالى لأن عبادة الله بما لم يشرعه ضلالة، ولباس الحديد على غير وجه التعبد قد كرهه من كرهه من العلماء للحديث المروي في ذلك وهو أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رأى على رجل خاتماً من حديد فقال «مالي أرى عليك حلية أهل النار»[1]. وقد وصف الله تعالى أهل النار بأن في أعناقهم الأغلال فالتشبه بأهل النار من المنكرات. وقال بعض الناس قد ثبت في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في حديث الرؤيا قال في آخره «أحب القيد وأكره الغل. القيد ثبات في الدين»[2] فإذا كان مكروهاً في المنام فكيف في اليقظة؟!.

(١) أخرجه الترمذي في اللباس ٤٣ و٤١، وأبو داود في الخاتم ٤، والنسائي في الزينة ٤٦، وأحمد ٢/١٦٢، ١٧٩.

(٢) أخرجه البخاري في التعبير ٢٦، ومسلم في الرؤيا ٦، وأبو داود في الأدب ٨٨، والترمذي في الرؤيا ١ =

فقلت له في ذلك المجلس ما تقدم من الكلام أو نحواً منه مع زيادة، وخوفته من عاقبة الإصرار على البدعة، وإن ذلك يوجب عقوبة فاعله، ونحـو ذلك من الكلام الذي نسيت أكثره لبعد عهدي به. وذلك أن الأمور التي ليست مستحبة في الشرع لا يجوز التعبد بها باتفاق المسلين، ولا التقرب بها إلى الله ولا اتخاذها طريقاً إلى الله وسبباً لأن يكون الرجل من أولياء الله وأحبائه. ولا اعتقاد أن الله يحبها أو يحب أصحابها كذلك، أو أن اتخاذها يزداد به الرجل خيراً عند الله وقربة إليه، ولا أن يجعل شعاراً للتائبين المريدين وجه الله، الذين هم أفضل ممن ليس مثلهم.

فهذا أصل عظيم تجب معرفته والاعتناء به، وهو أن المباحات إنما تكون مباحة إذا جعلت مباحات، فأما إذا اتخذت واجبات أو مستحبات كان ذلك ديناً لم يشرعه الله، وجعل ما ليس من الواجبات والمستحبات منها بمنزلة جعل ماليس من المحرمات منها، فلا حرام إلا ما حرمه الله؛ ولا دين إلا ما شرعه الله؛ ولهذا عظم ذم الله في القرآن لمن شرع ديناً لم يأذن الله به، ولمن حرم ما لم يأذن الله بتحريمه فإذا كان هذا في المباحات فكيف بالمكروهات أو المحرمات؟! ولهذا كانت هذه الأمور لا تلزم بالنذر، فلو نذر الرجل فعل مباح أو مكروه أو محرم لم يجب عليه فعله كما يجب عليه إذا نذر طاعة الله أن يطيعه ؛ بل عليه كفارة يمين إذا لم يفعل عند أحـمد وغيره، وعند آخرين لا شيء عليه، فلا يصير بالنذر ما ليس بطاعة ولا عبادة [طاعة وعبادة].

ونحو ذلك العهود التي تتخذ على الناس لالتزام طريقة شيخ معين كعهود أهل «الفتوة» و «رماة البندق» ونحو ذلك ليس على الرجل أن يلتزم من ذلك على وجه الدين والطاعة لله إلا ما كان ديناً وطاعة لله ورسوله في شرع الله؛ لكن قد يكون عليه كفارة عند الحنث في ذلك؛ ولهذا أمرت غير واحد أن يعدل عما أخذ عليه من العهد بالتزام طريقة مرجوحة أو مشتملة على أنواع من البدع إلى ما هو خير منها من طاعة الله ورسوله ﷺ واتباع الكتاب والسنة؛ إذ كان المسلمون متفقين على أنه لا يجوز لأحد أن يعتقد أو يقول عن عمل: إنه قربة وطاعة وبر وطريق إلى

= و٧ و١٠، وابن ماجة في الرؤيا ١٠، والدارمي في الرؤيا ١٣، وأحمد ٢/٢٦٩، ٥٠٧.

الله واجب أو مستحب إلا أن يكون مما أمر الله به ورسوله ﷺ؛ وذلك يعلم بالأدلة المنصوبة على ذلك، وما علم باتفاق الأمة أنه ليس بواجب ولا مستحب ولا قربة لم يجز أن يعتقد أو يقال إنه قربة وطاعة.

فكذلك هم متفقون على أنه لا يجوز قصد التقرب به إلى الله، ولا التعبد به ولا اتخاذه ديناًولا عمله من الحسنات، فلا يجوز جعله من الدين لا باعتقاد وقول، ولا بإرادة وعمل.

وباهمال هذا الأصل غلط خلق كثير من العلماء والعباد يرون الشيء إذا لم يكن محرماً لا ينهى عنه؛ بل يقال إنه جائز، ولا يفرقون بين اتخاذه ديناً وطاعة وبراً، وبين استعماله كما تستعمل المباحات المحضة، ومعلوم أن اتخاذه ديناً بالاعتقدا أو الاقتصاد أو بهما أو بالقول أو بالعمل أو بهما من أعظم المحرمات وأكبر السيئات، وهذا من البدع المنكرات التي هي أعظم من المعاصي التي يعلم أنها معاصي وسيئات.

فَصْل
[بيان حال البطائحية]

فلما نهيتهم عن ذلك أظهروا الموافقة والطاعة ومضت على ذلك مدة والناس يذكرون عنهم الإصرار على الابتداع في الدين، وإظهار ما يخالف شرعة المسلمين، ويطلبون الإيقاع بهم، وأنا أسلك مسلك الرفق والأناة، وانتظر الرجوع والفيئة، وأؤخر الخطاب إلى أن يحضر ذلك الشيخ لمسجد الجامع. وكان قد كتب إلي كتاباً بعد كتاب فيه احتجاج واعتذار، وعتب وآثار، وهو كلام باطل لا تقوم به حجة، بل إما أحاديث موضوعة، أو اسرائليات غير مشروعة، وحقيقة الأمر الصد عن سبيل الله وأكل أموال الناس بالباطل.

فقلت لهم: الجواب يكون بالخطاب. فإن جواب مثل هذا الكتاب لا يتم إلا بذلك وحضر عندها منهم شخص فنزعنا الغل من عنقه، وهؤلاء هم من أهل الأهواء الذين يتعبدون في كثير من الأمور بأهوائهم لا بما أمر الله تعالى ورسوله ﷺ

﴿ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله﴾[1]؛ ولهذا غالب وجدهم هوى مطلق لا يدرون من يعبدون، وفيهم شبه قوي من النصارى الذين قال الله تعالى فيهم: **﴿يا أهل الكتاب! لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل، وأضلوا كثيراً، وضلوا عن سواء السبيل﴾**[2] ولهذا كان السلف يسمون أهل البدع أهل الأهواء.

فحملهم هواهم على أن تجمعوا تجمع الأحزاب، ودخلوا إلى المسجد الجامع مستعدين للحراب، بالأحوال التي يعدونها للغلاب، فلما قضيت صلاة الجمعة أرسلت إلى شيخهم لنخاطبه بأمر الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم، ونتفق على اتباع سبيله ـ فخرجوا من المسجد الجامع في جموعهم إلى قصر الإمارة، وكأنهم اتفقوا مع بعض الأكابر على مطلوبهم، ثم رجعوا إلى مسجد الشاغو[3] ـ على ما ذكر لي ـ وهم من الصياح والاضطراب، على أمر من أعجب العجاب، فأرسلت إليهم مرة ثانية لإقامة الحجة والمعذرة، وطلباً للبيان والتبصرة، ورجاء المنفعة والتذكرة. فعمدوا إلى القصر مرة ثانية، وذكر لي أنهم قدموا من الناحية الغربية مظهرين الضجيج والعجيج والإزباد[4] والإرعاد واضطراب الرؤوس والأعضاء، والتقلب في نهر بردى، وإظهار التوله الذي يخيلوا به على الردى، وإبراز ما يدعونه من الحال والمحال، الذي يسلمه إليهم من أضلوا من الجهال.

فلما رأى الأمير ذلك هاله ذلك المنظر، وسأل عنهم فقيل له هم مشتكون، فقال ليدخل بعضهم، فدخل شيخهم، وأظهر من الشكوى عليّ ودعوى الاعتداء مني عليهم كلاماً كثيراً لم يبلغني جميعه؛ لكن حدثني من كان حاضراً أن الأمير قال لهم: فهذا الذي يقوله من عنده أو يقوله عن الله ورسوله ﷺ؟ فقالوا بل يقوله

---

(١) سورة القصص آية ٥٠.

(٢) سورة المائدة آية ٧٧.

(٣) لا أدري إن كان هناك تحريف من النساخ، ففي معجم البلدان «الشاغور محلة بالباب الصغير من دمشق مشهورة وهي في ظاهر المدينة» (٣/٣١٠).

(٤) الإزباد: يقال أرغى فلان وأزبد: غضب وتوعد وتهدد.

عن الله ورسوله ﷺ، قال فأي شيء يقال له؟ قالوا نحن لنا أحوال وطريق يسلم إلينا، قال فنسمع كلامه فمن كان الحق معه نصرناه، قالوا تريد أن تشد منا، قال: لا، ولكن أشد من الحق سواء كان معكم أو معه، قالوا: ولا بد من حضوره؟ قال: نعم، فكرروا ذلك فأمر بإخراجهم، فأرسل إلي بعض خواصه من أهل الصدق والدين ممن يعرف ضلالهم وعرفني بصورة الحال وأنه يريد كشف أمر هؤلاء.

فلما علمت ذلك ألقي في قلبي أن ذلك لأمر يديده الله من إظهار الدين، وكشف حال أهل النفاق المبتدعين، لانتشارهم في أقطار الأرضين، وما أحببت البغي عليهم والعدوان، ولا أن أسلك معهم إلا أبلغ ما يمكن من الإحسان، فأرسلت إليهم من عرفهم بصورة الحال، وإني إذا حضرت كان ذلك عليكم من الوبال، وكثر فيكم القيل والقال، وإن من قعد أو قام قدام وماح أهل الإيمان، فهو الذي أوقع نفسه في الهوان. فجاء الرسول وأخبر أنهم اجتمعوا بشيوخهم الكبار، الذين يعرفون حقيقة الأسرار، وأشاروا عليهم بموافقة ما أمروا به من اتباع الشريعة، والخروج عما ينكر عليهم من البدع الشنيعة. وقال شيخهم الذي يسيح بأقطار الأرض كبلاد الترك ومصر وغيرها: أحوالنا تظهر عند التتار لا تظهر عند شرع محمد بن عبد الله. وأنهم نزعوا الأغلال من الأعناق، وأجابوا إلى الوفاق.

ثم ذكر لي أنه جاءهم بعض أكابر غلمان المطاع وذكر أنه لا بد من حضورهم لموعد الاجتماع. فاستخرت الله تعالى تلك الليلة واستعنته، واستنصرته واستهديته، وسلكت سبيل عباد الله في مثل هذه المسالك، حتى ألقي في قلبي أن أدخل النار عند الحاجة إلى ذلك، وإنها تكون برداً وسلاماً على من اتبع ملة الخليل، وإنها تحرق أشباه الصابئة أهل الخروج عن هذه السبيل. وقد كان بقايا الصابئة أعداء إبراهيم أمام الحنفاء بنواحي البطائح منضمين إلى من يضاهيهم من نصارى الدهماء.

وبين الصابئة ومن ضل من العباد المنتسبين إلى هذا الدين، نسب يعرفه من عرف الحق المبين، فالغالية من القرامطة والباطنية كالنصيرية والإسماعيلية. يخرجون إلى مشابهة الصابئة الفلاسفة، ثم إلى الإشراك، ثم إلى جحود الحق تعالى. ومن شركهم الغلو في البشر، والابتداع في العبادات، والخروج عن

الشريعة له نصيب من ذلك بحسب ما هو به لائق، كالملحدين من أهل الاتحاد، والغلية من أصناف العباد.

فلما أصبحنا ذهبت للميعاد. وما أحببت أن أستصحب أحداً للإسعاد، لكن ذهب أيضاً بعض من كان حاضراً من الأصحاب، والله هو المسبب لجميع الأسباب. وبلغني بعد ذلك أنهم طافوا على عدد من أكابر الأمراء، وقالوا أنواعاً مما جرت به عادتهم من التلبيس والافتراء، الذي استحوذوا به على أكثر أهل الأرض من الأكابر والرؤوساء، مثل زعمهم أن لهم أحوالاً لا يقاومهم فيها أحد من الأولياء، وإن لهم طريقاً لا يعرفها أحد من العلماء. وإن شيخهم هو في المشايخ كالخليفة، وإنهم يتقدمون على الخلق بهذه الأخبار المنيفة ، وأن المنكر عليهم هو آخذ بالشرع الظاهر، غير واصل إلى الحقائق والسرائر. وأن لهم طريقاً وله طريق. وهم الواصلون إلى كنه التحقيق، وأشباه هذه الدعاوى ذات الزخرف والتزويق.

وكانوا لفرط انتشارهم في البلاد، واستحواذهم على الملوك والأمراء والأجناد، لخفاء نور الإسلام واستبدال أكثر الناس بالنور الظلام، وطموس آثار الرسول في أكثر الأمصار، ودروس حقيقة الإسلام في دولة التتار، لهم في القلوب موقع هائل، ولهم فيهم من الاعتقاد ما لا يزول بقول قائل.

قال المخبر: فغدا أولئك الأمراء والأكابر، وخاطبوا فيهم نائب السلطان بتعظيم أمرهم الباهر، وذكر لي أنواعاً من الخطاب، والله تعالى أعلم بحقيقة الصواب، والأمير مستشعر ظهور الحق عند التحقيق فأعاد الرسول، إلي مرة ثانية فبلغه أنا في الطريق، وكان كثير من أهل البدع الأضداد، كطوائف من المتفقهة والمتفقرة واتباع أهل الاتحاد،مجدين في نصرهم بحسب مقدورهم، مجهزين لمن يعينهم في حضورهم، فلما حضرت وجدت النفوس في غاية الشوق إلى هذا الاجتماع، متطلعين إلى ما سيكون طالبين للاطلاع. فذكر لي نائب السلطان وغيره من الأمراء بعض ما ذكروه من الأقوال المشتملة على الافتراء. وقال إنهم قالوا: إنك طلبت منهم الامتحان، وأن يحموا الأطواق ناراً ويلبسوها فقلت هذا من البهتان. وها أناذا أصف ما كان.

قلت للأمير: نحن لا نستحل أن نأمر أحداً بأن يدخل ناراً، ولا تجوز طاعة

من يأمر بدخول النار. وفي ذلك الحديث الصحيح. وهؤلاء يكذبون في ذلك، وهم كذابون مبتدعون قد افسدوا من أمر دين المسلمين ودنياهم ما الله به عليم. وذكرت تلبيسهم على طوائف من الأمراء، وأنهم لبسوا على الأمير المعروف بالأيدمرى. وعلى قفجق نائب السلطنة وعلى غيرهما، وقد لبسوا أيضاً على الملك العادل كتغا في ملكه، وفي حالة ولاية حماه، وعلى أمير السلاح أجل أمير بديار مصر، وضاق المجلس عن حكاية جميع تلبيسهم. فذكرت تلبيسهم على الأيدمري، وأنهم كانوا يرسلون من النساء من يستخبر عن أحوال بيته الباطنة، ثم يخبرونه بها على طريق المكاشفة، ووعدوه بالملك، وأنهم وعدوه أن يروه رجال الغيب، فصنعوا خشباً طوالاً وجعلوا عليها من يمشي كهيئة الذي يلعب باكر الزجاج، فجعلوا يمشون على جبل المزة وذاك يرى من بعيد قوماً يطوفون على الجبل وهم يرتفعون عن الأرض وأخذوا منه مالاً كثيراً ثم انكشف له أمرهم.

قلت للأمير: وولده هو الذي في حلقة الجيش يعلم ذلك، وهو ممن حدثني بهذه القصة. وأما قفجق فإنهم أدخلوا رجلاً في القبر يتكلم وأوهموه أن الموتى تتكلم، وأتوا به في مقابر باب الصغير إلى رجل زعموا أنه الرجل الشعراني الذي بجبل لبنان ولم يقربوه منه بل من بعيد لتعود عليه بركته، وقالوا إنه طلب منه جملة من المال؛ فقال قفجق الشيخ يكاشف وهو يعلم أن خزائني ليس فيها هذا كله، وتقرب قفجق منه وجذب الشعر فانقلع الجلد الذي ألصقوه على جلده من جلد الماعز، فذكرت للأمير هذا؛ ولهذا قيل لي إنه لما انقضى المجلى وانكشف حالهم للناس كتب أصحاب قفجق إليه كتاباً وهو نائب السلطنة بحماه يخبره بصورة ما جرى.

وذكرت للأمير أنهم مبتدعون بأنواع من البدع مثل الأغلال ونحوها وإنا نهيناهم عن البدع الخارجة عن الشريعة، فذكر الأمير حديث البدعة وسألني عنه، ة فذكرت حديث العرباض بن سارية، وحديث جابر بن عبد الله، وقد ذكرتهما بعد ذلك بالمجلس العام كما سأذكره.

قلت للأمير: أنا ما امتحنت هؤلاء، لكن هم يزعمون أن لهم أحوالاً يدخلون بها النار. وأن أهل الشريعة لا يقدرون على ذلك. ويقولون لنا هذه الأحوال التي

يعجز عنها أهل الشرع ليس لهم أن يعترضوا علينا، بل يسلم إلينا ما نحن عليه ـ سواء وافق الشرع أو خالفه ـ وأنا قد استخرت الله سبحانه أنهم إن دخلوا النار أدخل أنا وهم ومن احترق منا ومنهم فعليه لعنة الله، وكان مغلوباً، وذلك بعد أن نغسل جسومنا بالخل والماء الحار.

فقال الأمير ولم ذاك؟ قلت: لأنهم يطلون جسومهم بأدوية يصنعونها من دهن الضفادع، وباطن قشر النارنج، وحجر الطلق وغير ذلك من الحيل المعروفة لهم، وأنا لا أطلي جلدي بشيء فإذا اغتسلت أنا وهم بالخل والماء الحار بطلت الحيلة وظهر الحق، فاستعظم الأمير هجومي على النار، وقال: أتفعل ذلك؟ فقلت له: نعم! قد استخرت الله في ذلك وألقى في قلبي أن أفعله، ونحن لا نرى هذا وأمثاله ابتداء؛ فإن خوارق العادات إنما تكون لأمة محمد ﷺ المتبعين له باطناً وظاهراً لحجة أو حاجة، فالحجة لإقامة دين الله، والحاجة لما لا بد منه من النصر والرزق الذي به يقوم دين الله، وهؤلاء إذا أظهروا ما يسمونه إشاراتهم وبراهينهم التي يزعمون أنها تبطل دين الله وشرعه وجب علينا أن ننصر الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ونقوم في نصر دين الله وشريعته بما نقدر عليه من أرواحنا وجسومنا وأموالنا، فلنا حينئذ أن نعارض ما يظهرونه من هذه المخاريق بما يؤيدنا الله به من الآيات.

وليعلم أن هذا مثل معارضة موسى للسحرة لما أظهروا سحرهم أيد الله موسى بالعصا التي ابتلعت سحرهم. فجعل الأمير يخاطب من حضره من الأمراء على السماط[1] بذلك، وفرح بذلك، وكأنهم كانوا قد أوهموه أن هؤلاء لهم حال لا يقدر أحد على رده. وسمعته يخاطب الأمير الكبير الذي قدم من مصر الحاج بهادر وأنا جالس بينهما على رأس السماط بالتركي ما فهمته منه إلا أنه قال اليوم ترى حرباً عظيماً، ولعل ذاك كان جواباً لمن كان خاطبه فيهم على ما قيل.

وحضر شيوخهم الأكابر فجعلوا يطلبون من الأمير الاصلاح وإطفاء هذه القضية ويترفقون، فقال الأمير: إنما يكون الصلح بعد ظهور الحق، وقمنا إلى

---

(١) السماط: ربما أراد به الصف، يقال مشى بين سماطين من الجنود وغيرهم.

مقعد الأمير بزاوية القصر أنا وهو وبهادر فسمعته يذكر له أيوب الحمال بمصر والمولهين ونحو ذلك، فدل ذلك على أنه كان عند هذا الأمير لهم صورة معظمة، وأن لهم فيهم ظناً حسناً والله أعلم بحقيقة الحال؛ فإنه ذكر لي ذلك.

وكان الأمير أحب أن يشهد بهادر هذه الواقعة ليتبين له الحق فإنه من أكابر الأمراء وأقدمهم وأعظمهم حرمة عنده، وقد قدم الآن وهو يحب تأليفه وإكرامه، فأمر ببساط يبسط في الميدان. وقد قدم البطائحية وهم جماعة كثيرون، وقد أظهروا أحوالهم الشيطانية من الإزباد والإرغاء وحركة الرؤوس والأعضاء، والطفر والحبو والتقلب، ونحو ذلك من الأصوات المنكرات، والحركات الخارجية عن العادات، المخالفة لما أمر به لقمان لابنه في قوله: ﴿**واقصد في مشيك واغضض من صوتك**﴾[1].

فلما جلسنا وقد حضر خلق عظيم من الأمراء والكتاب والعلماء والفقراء والعامة وغيرهم، وحضر شيخهم الأول المشتكي، وشيخ آخر يسمي نفسه خليفة سيده أحمد، ويركب بعلمين، وهم يسمونه: عبد الله الكذاب، ولم أكن أعرف ذلك. وكان من مدة قد قدم علي منهم شيخ بصورة لطيفة وأظهر ما جرت به عادتهم من المسألة فأعطيته طلبته ولم أتفطن لكذبه حتى فارقني، فبقي في نفسي أن هذا خفي علي تلبيسه إلى أن غاب، وما يكاد يخفى علي تلبيس أحد، بل أدركه في أول الأمر فبقي ذلك في نفسي ولم أره قط إلى حين ناظرته، ذكر لي أنه ذاك الذي كان اجتمع بي قديماً فتعجبت من حسن صنع الله أنه هتكه في أعظم مشهد يكون حيث كتم تلبيسه بيني وبينه.

فلما حضروا تكلم منهم شيخ يقال له حاتم بكلام مضمونه طلب الصلح والعفو عن الماضي والتوبة، وإنا مجيبون إلى ما طلب من ترك هذه الأغلال وغيرها من البدع، ومتبعون للشريعة. فقلت: أما التوبة فمقبولة. قال الله تعالى: ﴿**غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب**﴾[2] هذه إلى جنب هذه. وقال تعالى: ﴿**نبىء**

---

(١) سورة لقمان آية ١٩.

(٢) سورة غافر آية ١.

عبادي أني أنا الغفور الرحيم. وإن عذابي هو العذاب الأليم﴾[1].

فأخذ شيخهم المشتكي ينتصر للبسهم الأطواق وذكر أن وهب بن منبه روى أنه كان في بني إسرائيل عابد وأنه جعل في عنقه طوقاً في حكاية من حكايات بني إسرائيل لا تثبت.

فقلت لهم: ليس لنا أن نتعبد في ديننا بشيء من الإسرائيليات المخالفة لشرعنا، قد روى الإمام أحمد في مسنده عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ رأى بيد عمر بن الخطاب ورقة من التوراة فقال: «أمتهوكون يا ابن الخطاب؟ لقد جئتكم بها بيضاء نقية لو كان موسى حياً ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم» وفي مراسيل أبي داود أن النبي ﷺ رأى مع بعض أصحابه شيئاً من كتب أهل الكتاب فقال «كفى بقوم ضلالة أن يتبعوا كتاباً غير كتابهم أنزل إلى نبي غير نبيهم» وأنزل الله تعالى **﴿أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم﴾**[2].

فنحن لا يجوز لنا اتباع موسى ولا عيسى فيما علمنا أنه أنزل عليهما من عند الله إذا خالف شرعنا، وإنما علينا أن نتبع ما أنزل علينا من ربنا ونتبع الشرعة والمنهاج الذي بعث الله به إلينا رسولنا. كما قال تعالى: **﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً﴾**[3]. فكيف يجوز لنا أن نتبع عباد بني إسرائيل في حكاية لا تعلم صحتها؟! وما علينا من عباد بني إسرائيل؟! **﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾**[4] هات ما في القرآن وما في الأحاديث الصحاح كالبخاري ومسلم وذكرت هذا وشبهه بكيفية قوية.

فقال هذا الشيخ منهم يخاطب الأمير: نحن نريد أن تجمع لنا القضاة الأربعة والفقهاء ونحن قوم شافعية.

فقلت له: هذا غير مستحب ولا مشروع عند أحد من علماء المسلمين؛ بل

---

(١) سورة الحجر آية ٤٩ - ٥٠.

(٢) سورة العنكبوت آية ٥١.

(٣) سورة المائدة آية ٤٨.

(٤) سورة البقرة آية ٤١.

كلهم ينهى عن التعبد به ويعده بدعة، وهذا الشيخ كمال الدين بن الزملكاني مفتي الشافعية ودعوته وقلت: يا كمال الدين! ما تقول في هذا؟ فقال هذا بدعة غير مستحبة بل مكروهة، أو كما قال. وكان مع بعض الجماعة فتوى فيها خطوط طائفة من العلماء بذلك.

وقلت: ليس لأحد الخروج عن شريعة محمد ﷺ ولا الخروج عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم، وأشك هل تكلمت هنا في قصة موسى والخضر؛ فإني تكلمت بكلام بعد عهدي به.

فانتدب ذلك الشيخ «عبد الله» ورفع صوته. وقال: نحن لنا أحوال وأمور باطنة لا يوقف عليها، وذكر كلاماً لم أضبط لفظه: مثل المجالس والمدارس والباطن والظاهر؛ ومضمونه أن لنا الباطن ولغيرنا الظاهر، وأن لنا أمراً لا يقف عليه أهل الظاهر فلا ينكرونه علينا، فقلت له ـ ورفعت صوتي وغضبت ـ: الباطن والظاهر والمجالس والمدارس، والشريعة والحقائق، كل هذا مردود إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ ليس لأحد الخروج عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لا من المشايخ والفقراء، ولا من الملوك والأمراء، ولا من العلماء والقضاة وغيرهم؛ بل جميع الخلق عليهم طاعة الله ورسوله ﷺ. وذكرت هذا ونحوه.

فقال ـ ورفع صوته ـ: نحن لنا الأحوال وكذا وكذا. وادعى الأحوال الخارقة كالنار وغيرها، واختصاصهم بها، وأنهم يستحقون تسليم الحال إليهم لأجلها.

فقلت ـ ورفعت صوتي وغضبت ـ أنا أخاطب كل أحمدي من مشرق الأرض إلى مغربها أي شيء فعلوه في النار فأنا أصنع مثل ما تصنعون، ومن احترق فهو مغلوب؛ وربما قلت فعليه لعنة الله؛ ولكن بعد أن نغسل جسومنا بالخل والماء الحار؛ فسألني الأمراء والناس عن ذلك؟ فقلت: لأن لهم حيلاً في الاتصال بالنار يصنعونها من أشياء: من دهن الضفادع. وقشر النارنج. وحجر الطلق، فضج الناس بذلك، فأخذ يظهر القدرة على ذلك فقال: أنا وأنت نلف في بارية بعد أن تطلى جسومنا بالكبريت (فقلت) فقم، وأخذت أكرر عليه في القيام إلى ذلك، فمد يده يظهر خلع القميص فقلت: لا! حتى تغتسل في الماء الحار والخل، فأظهر الوهم على عادتهم فقال من كان يحب الأمير فليحضر خشباً أو قال حزمة حطب.

فقلت هذا تطويل وتفريق للجمع؛ ولا يحصل به مقصود؛ بل قنديل يوقد وأدخل أصبعي وأصبعك فيه بعد الغسل؛ ومن احترقت أصبعه فعليه لعنة الله؛ أو قلت: فهو مغلوب. فلما قلت ذلك تغير وذل. وذكر لي أن وجهه أصفر.

ثم قلت لهم: ومع هذا فلو دخلتم النار وخرجتم منها سالمين حقيقة، ولو طرتم في الهواء؛ ومشيتم على الماء؛ ولو فعلتم ما فعلتم لم يكن في ذلك ما يدل على صحة ما تدعونه من مخالفة الشرع. ولا على إبطال الشرع؛ فإن الدجال الأكبر يقول للسماء أمطري فتمطر؛ وللأرض أنبتي فتنبت، وللخربة أخرجي كنوزك فتخرج كنوزها تتبعه؛ ويقتل رجلاً ثم يمشي بين شقيه، ثم يقول له قم فيقوم، ومع هذا فهو دجال كذاب ملعون، لعنه الله، ورفعت صوتي بذلك فكان لذلك وقع عظيم في القلوب.

وذكرت قول أبي يزيد البسطامي: لو رأيتم الرجل يطير في الهواء ويمشي على الماء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف وقوفه عند الأوامر والنواهي، وذكرت عن يونس بن عبد الأعلى أنه قال للشافعي أتدري ما قال صاحبنا يعني الليث بن سعد؟ قال: لو رأيت صاحب هوى يمشي على الماء فلا تغتر به. فقال الشافعي: لقد قصر الليث لو رأيت صاحب هوى يطير في الهواء فلا تغتر به؛ وتكلمت في هذا ونحوه بكلام بعد عهدي به. ومشايخهم الكبار يتضرعون عند الأمير في طلب الصلح وجعلت ألح عليه في إظهار ما ادعوه من النار مرة بعد مرة وهم لا يجيبون، وقد اجتمع عامة مشايخهم الذين في البلد والفقراء المولهون منهم، وهم عدد كثير، والناس يضجون في الميدان، ويتكلمون بأشياء لا أضبطها.

فذكر بعض الحاضرين أن الناس قالوا ما مضمونه: ﴿**فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون. فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين**﴾[1] وذكروا أيضاً أن هذا الشيخ يسمى عبد الله الكذاب. وأنه الذي قصدك مرة فأعطيته ثلاثين درهماً، فقلت: ظهر لي حين أخذ الدراهم وذهب أنه ملبس، وكان قد حكى حكاية عن نفسه مضمونها أنه أدخل النار في لحيته قدام صاحب حماة، ولما فارقني وقع في قلبي أن لحته مدهونة. وأنه دخل إلى الروم واستحوذ عليهم.

---

(١) سورة الأعراف آية ١٨ ـ ١٩.

فلما ظهر للحاضرين عجزهم وكذبهم وتلبيسهم، وتبين للأمراء الذين كانوا يشدون منهم أنهم مبطلون رجعوا، وتخاطب الحاج بهادر ونائب السلطان وغيرهما بصورة الحال، وعرفوا حقيقة المحال؛ وقمنا إلى داخل ودخلنا، وقد طلبوا التوبة عما مضى، وسألني الأمير عما تطلب منهم فقلت: متابعة الكتاب والسنة مثل أن [لا] يعتقد أنه لا يجب عليه اتباعهما، أو أنه يسوغ لأحد الخروج من حكمهما ونحو ذلك، أو أنه يجوز اتباع طريقة تخالف بعض حكمهما، ونحو ذلك من وجوه الخروج عن الكتاب والسنة التي توجب الكفر وقد توجب القتل دون الكفر، وقد توجب قتال الطائفة الممتنعة دون قتل الواحد المقدور عليه.

فقالوا: نحن ملتزمون الكتاب والسنة أتنكر علينا غير الأطواق؟ نحن نخلعها. فقلت: الأطواق وغير الأطواق، ليس المقصود شيئاً معيناً؛ وإنما المقصود أن يكون جميع المسلمين تحت طاعة الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم. فقال الأمير فأي شيء الذي يلزمهم من الكتاب والسنة؟ فقلت: حكم الكتاب والسنة كثير لا يمكن ذكره في هذا المجلس، لكن المقصود أن يلتزموا هذا التزاماً عاماً، ومن خرج عنه ضربت عنقه ـ وكرر ذلك وأشار بيده إلى ناحية الميدان ـ وكان المقصود أن يكون هذا حكماً عاماً في حق جميع الناس؛ فإن هذا مشهد عام مشهور قد توفرت الهمم عليه، فيتقرر عند المقاتلة، وأهل الديوان، والعلماء والعباد، وهؤلاء وولاة الأمور ـ أنه من خرج عن الكتاب والسنة ضربت عنقه.

قلت: ومن ذلك الصلوات الخمس في مواقيتها كما أمر الله ورسوله؛ فإن من هؤلاء من لا يصلي، ومنهم من يتكلم في صلاته، حتى إنهم بالأمس بعد أن اشتكوا علي في عصر الجمعة جعل أحدهم يقول في صلب الصلاة: يا سيدي أحمد شيء لله. وهذا مع أنه مبطل للصلاة فهو شرك بالله ودعاء لغيره في حال مناجاته التي أمرنا أن نقول فيها: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ وهذا قد فعل بالأمس بحضرة شيخهم فأمر قائل ذلك لما أنكر عليه المسلمون بالاستغفار على عادتهم في صغير الذنوب. ولم يأمره بإعادة الصلاة. وكذلك يصيحون في الصلاة صياحاً عظيماً وهذا منكر يبطل الصلاة.

فقال: هذا يغلب على أحدهم كما يغلب العطاس.

فقلت: العطاس من الله والله يحب العطاس ويكره التثاؤب ولا يملك أحدهم دفعه، وأما هذا الصياح فهو من الشيطان، وهو باختيارهم وتكلفهم، ويقدرون على دفعه، ولقد حدثني بعض الخبيرين بهم بعد المجلس أنهم يفعلون في الصلاة ما لا تفعله اليهود والنصارى: مثل قول أحدهم أنا على بطن امرأة الإمام، وقول الآخر كذا وكذا من الإمام، ونحو ذلك من الأقوال الخبيثة، وأنهم إذا أنكر عليهم المنكر ترك الصلاة يصلون بالنوبة ،وأنا أعلم أنهم متولون للشياطين ليسوا مغلوبين على ذلك كما يغلب الرجل في بعض الأوقات على صيحة أو بكاء في الصلاة أو غيرها.

فلما أظهروا التزام الكتاب والسنة وجموعهم بالميدان بأصواتهم وحركاتهم الشيطانية يظهرون أحوالهم **قلت له**: أهذا موافق للكتاب والسنة؟ **فقال**: هذا من الله حال يرد عليهم، **فقلت**: هذا من الشيطان الرجيم لم يأمر الله به ولا رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم، ولا أحبه الله ولا رسوله، **فقال**: ما في السموات والأرض حركة ولا كذا ولا كذا إلا بمشيئته وإرادته، **فقلت له**: هذا من باب القضاء والقدر، وهكذا كل ما في العالم من كفر وفسوق وعصيان هو بمشيئته وإرادته، وليس ذلك بحجة لأحد في فعله؛ بل ذلك مما زينه الشيطان وسخطه الرحمن.

فقال: فبأي شيء تبطل هذه الأحوال. **فقلت**: بهذه السياط الشرعية. فأعجب الأمير وضحك، وقال: أي والله! بالسياط الشرعية، تبطل هذه الأحوال الشيطانية، كما قد جرى مثل ذلك لغير واحد، ومن لم يجب إلى الدين بالسياط الشرعية فبالسيوف المحمدية. وأمسكت سيف الأمير **وقلت**: هذا نائب رسول الله ﷺ وغلامه، وهذا السيف سيف رسول الله ﷺ، فمن خرج عن كتاب الله وسنة رسوله ضربناه بسيف الله، وأعاد الأمير هذا الكلام، وأخذ بعضهم يقول: فاليهود والنصارى يقرون ولا نقر نحن؟ فقلت: اليهود والنصارى يقرون بالجزية على دينهم المكتوم في دورهم، والمبتدع لا يقر على بدعته. فأفحموا لذلك.

و «حقيقة الأمر» أن من أظهر منكراً في دار الإسلام لم يقر على ذلك، فمن دعا إلى بدعة وأظهرها لم يقر، ولا يقر من أظهر الفجور، وكذلك أهل الذمة لا

يقرون على إظهار منكرات دينهم، ومن سواهم فإن كان مسلماً أخذ بواجبات الإسلام وترك محرماته، وإن لم يكن مسلماً ولا ذمياً فهو إما مرتد وإما مشرك وإما زنديق ظاهر الزندقة.

وذكرت ذم «المبتدعة» فقلت روى مسلم في صحيحه عن جعفر بن محمد الصادق عن أبيه أبي جعفر الباقر عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ كان يقول في خطبته «إن أصدق الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة». وفي السنن عن العرباض بن سارية قال: خطبنا رسول الله ﷺ خطبة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال قائل يا رسول كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا؟ فقال «أوصيكم بالسمع والطاعة فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة» وفي رواية «وكل ضلالة في النار».

فقال لي: البدعة مثل الزنا، وروى حديثاً في ذم الزنا، فقلت هذا حديث موضوع على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، والزنا معصية، والبدعة شر من المعصية، كما قال سفيان الثوري: البدعة أحب إلى إبليس من المعصية؛ فإن المعصية يتاب منها والبدعة لا يتاب منها. وكان قد قال بعضهم: نحن نتوب الناس، فقلت: مماذا تتوبونهم؟ قال: من قطع الطريق، والسرقة، ونحو ذلك. فقلت: حالهم قبل تتويبكم خير من حالهم بعد تتويبكم؛ فإنهم كانوا فساقاً يعتقدون تحريم ما هم عليه، ويرجون رحمة الله، ويتوبون إليه، أو ينوون التوبة، فجعلتموهم بتتويبكم ضالين مشركين خارجين عن شريعة الإسلام، يحبون ما يبغضه الله ويبغضون ما يحبه الله، وبينت أن هذه البدع التي هم وغيرهم عليها شر من المعاصي.

قلت مخاطباً للأمير والحاضرين: أما المعاصي فمثل ما روى البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب أن رجلاً كان يدعى حماراً[1]، وكان يشرب الخمر،

(١) اسمه عبد الله وملقب بحمار باسم الحيوان المعروف. قيل كان يهدي (لرسول الله ﷺ العكة من =

وكان يضحك النبي ﷺ، وكان كلما أتي به إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم جلده الحد فلعنه رجل مرة. وقال: لعنه الله، ما أكثر ما يؤتى به إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ؟! فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: «لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله». قلت: فهذا رجل كثير الشرب للخمر، ومع هذا فلما كان صحيح الاعتقاد يحب الله ورسوله شهد له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك ونهى عن لعنه.

وأما المبتدع فمثل ما أخرجا في الصحيحين عن علي بن أبي طالب وعن أبي سعيد الخدري وغيرهما ـ دخل حديث بعضهم في بعض ـ أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يقسم، فجاءه رجل ناتىء الجبين كث اللحية، محلوق الرأس، بين عينيه أثر السجود وقال ما قال. فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: «يخرج من ضئضيء هذا قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، وقراءته مع قراءتهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية؛ لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد» وفي رواية، «لو يعلم الذين يقاتلونهم ماذا لهم على لسان محمد لنكلوا عن العمل» وفي رواية «شر قتلى تحت أديم السماء خير قتلى من قتلوه».

«قلت»: فهؤلاء مع كثرة صلاتهم وصيامهم وقراءتهم وما هم عليه من العبادة والزهادة أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بقتلهم، وقتلهم علي بن أبي طالب ومن معه من أصحاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وذلك لخروجهم عن سنة النبي وشريعته، وأظن أني ذكرت قول الشافعي: لأن يبتلى العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير من أن يبتلى بشيء من هذه الأهواء. فلما ظهر قبح البدع في الإسلام، وأنها أظلم من الزنا والسرقة وشرب الخمر، وأنهم مبتدعون بدعاً منكرة فيكون حالهم أسوأ من حال الزاني والسارق وشارب الخمر. أخذ شيخهم عبد الله يقول: يا مولانا لا تتعرض لهذا الجناب العزيز ـ يعني اتباع أحمد ابن الرفاعي ـ فقلت منكراً بكلام غليظ: ويحك؛ أي شيء هو الجناب العزيز، وجناب من خالفه

= السمن أو العسل، ثم يجيء بصاحبها فيقول أعطه ثمنه (انظر الإصابة في تمييز الصحابة ١/٣٥١ـ ٣٥٢).

أولى بالعز يا ذو الزرجنة[1] تريدون أن تبطلوا دين الله ورسوله، فقال: يا مولانا يحرقك الفقراء بقلوبهم، فقلت: مثل ما أحرقني الرافضة لما قصدت الصعود إليهم وصار جميع الناس يخوفوني منهم ومن شرهم، ويقول أصحابهم إن لهم سراً مع الله فنصر الله وأعان عليهم. وكان الأمراء الحاضرون قد عرفوا بركة ما يسره الله في أمر غزو الرافضة بالجبل.

وقلت لهم: يا شبه الرافضة يا بيت الكذب - فإن فيهم من الغلو والشرك والمروق عن الشريعة ما شاركوا به الرافضة في بعض صفاتهم، وفيهم من الكذب ما قد يقاربون به الرافضة في ذلك، أو يساوونهم، أو يزيدون عليهم، فإنهم من أكذب الطوائف حتى قيل فيهم: لا تقولوا أكذب من اليهود على الله، ولكن قولوا أكذب من الأحمدية على شيخهم، وقلت لهم: أنا كافر بكم وبأحوالكم **﴿فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون﴾**[2].

ولما رددت عليهم الأحاديث المكذوبة أخذوا يطلبون مني كتباً صحيحة ليهتدوا بها فبذلت لهم ذلك، وأعيد الكلام أنه من خرج عن الكتاب والسنة ضربت عنقه، وأعاد الأمير هذا الكلام واستقر الكلام على ذلك. والحمد لله الذي صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.

---

(١) كذا بالأصل

(٢) سورة هود آية ٥٥.

الباب العاشر

المبالغة في اتباع المشايخ

سئل شيخ الإسلام قدس الله روحه عن قوم منتسبين إلى المشائخ: يتوبونهم عن قطع الطريق، وقتل النفس والسرقة؛ وألزموهم بالصلاة؛ لكنهم يصلون صلاة عادة البادية، فهل يجب إقامة حدود الصلاة أم لا؟ ومع هذا شعارهم الرقص، وكشف الرؤوس وتفتيل الشعر، وحمل الحيات. ثم غلب على قلوبهم حب الشيوخ. حتى كلما عثر أحدهم أو همه أمر استغاث بشيخه،ويسجدون لهم مرة في غيبتهم، ومرة في حضورهم، فتارة يصادف السجود إلى القبلة، وتارة إلى غيرها ـ حيث كان شيخه ـ ويزعمون هذا لله. ومنهم من يأخذ أولاد الناس حوارات برضى الوالدين، وبغير رضاهم، وربما كان ولد الرجل معيناً لوالديه على السعي في الحلال فيأخذه ويعلمه الدروزة، وينذر للموتى. ومنهم من يواخي النسوان فإذا نهوا عن ذلك قال: لو حصل لي أمك وأختك وأختيهما فإذا قيل: لا تنظر أجنبية. قال: انظر عشرين نظرة، ويحلفون بالمشايخ. وإذا نهوا عن شيء من ذلك. قال: أنت شرعي. فهل المنكر عليهم مأجور أم لا؟

وهل اتخاذ الخرقة على المشائخ له أصل في الشرع أم لا؟ وهل انتساب كل طائفة إلى شيخ معين يثاب عليه. أم لا؟ وهل التارك له آثم أم لا؟ ويقولون: إن الله يرضى لرضا المشائخ، ويغضب بغضبهم ويستندون إلى قوله ﷺ: «المرء مع من أحب» و «أوثق عرى الإسلام الحب في الله والبغض في الله» فهل ذلك دليل لهم، أم هو شيء آخر؟ ومن هذه حاله هل يجوز دفع الزكاة إليه؟؟

فأجاب ـ قدس الله روحه.

وأما كشف الرؤوس وتفتيل الشعر وحمل الحيات: فليس هذا من شعار أحد

من الصالحين؛ لا من الصحابة ولا التابعين ولا شيوخ المسلمين لا المتقدمين ولا المتأخرين ولا الشيخ أحمد بن الرفاعي ولا غيره وإنما ابتدع هذا بعد موت الشيخ أحمد بمدة طويلة، ابتدعه طائفة انتسبت إليه فخالفوا طريق المسلمين وخرجوا عن حقائق الدين، وفارقوا طريق عباد الله الصالحين وهم نوعان:

أهل حال إبليسي. وأهل محال تلبيسي. فاما أهل «الأحوال» منهم: فهم قوم اقترنت بهم الشياطين، كما يقتربون بإخوانهم؛ فإذا حضروا سماع المكاء والتصدية أخذهم الحال، فيزبدون ويرغون. كما يفعله المصروع. ويتكلمون بكلام لا يفهمونه هم ولا الحاضرون؛ وهي شياطينهم تتكلم على ألسنتهم عند غيبة عقولهم، كما يتكلم الجني على لسان المصروع، ولهم مشابهون في الهند من عباد الأصنام، ومشابهون بالمغرب يسمى أحدهم المصلي؛ وهؤلاء الذين في المغرب من جنس الزط الذين لاخلاق لهم؛ فإذا كان لبعض الناس مصروع أو نحوه أعطاهم شيئاً فيجيئون ويضربون لهم بالدف والملاهي ويحرقون ويوقدون ناراً عظيمة مؤججة ويضعون فيها الحديد العظيم حتى يبقى أعظم من الجمر وينصبون رماحاً فيها أسنة، ثم يصعد أحدهم يقعد فوق أسنة الرماح قدام الناس، ويأخذ ذلك الحديد المحمى ويمره على يديه، وأنواع ذلك.

ويرى الناس حجارة يرمى بها ولا يرون من رمي بها، وذلك من شياطينهم الذين يصعدون بهم فوق الرمح، وهم الذين يباشرون النار، وأولئك قد لا يشعرون بذلك، كالمصروع الذي يضرب ضرباً وجيعاً وهو لا يحس بذلك؛ لأن الضرب يقع على الجني، فكذا حال أهل الأحوال الشيطانية، ولهذا كلما كان الرجل أشبه بالجن والشياطين كان حاله أقوى، ولا يأتيهم الحال إلا عند مؤذن الشيطان وقرآنه، فمؤذنه المزمار، وقرآنه الغناء.

ولا يأتيهم الحال عند الصلاة والذكر والدعاء والقراءة، فلا لهذه الأحوال فائدة في الدين، ولا في الدنيا، ولو كانت أحوالهم من جنس عباد الله الصالحين، وأولياء الله المتقين، لكانت تحصل عندما أمر الله به من العبادات الدينية، ولكان فيها فائدة في الدين والدنيا لتكثير الطعام والشراب عند الفاقات، واستنزال المطر عند الحاجات، والنصر على الاعداء عند المخافات، وهؤلاء أهل الأحوال

الشيطانية في التلبيس يمحقون البركات، ويقوون المخافات، ويأكلون أموال الناس بالباطل، لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، ولا يجاهدون في سبيل الله بل هم مع من أعطاهم وأطعمهم وعظمهم، وإن كان تترياً؛ بل يرجحون التتر على المسلمين؛ ويكونون من أعوانهم ونصرائهم الملاعين، وفيهم من يستعين على الحال بأنواع من السحر والشرك الذي حرمه الله تعالى ورسوله.

وأما أهل «المحال» منهم: فهم يضعون أدوية كحجر الطلق، ودهن الضفادع، وقشور النارنج، ونحو ذلك. يمشون بها على النار ويمسكون نوعاً من الحيات يؤخذونها بضعة، ويقدمون على أكلها بفجور، وما يصنعونه من السكر واللاذن، وماء الورد، وماء الزعفران والدم، فكل ذلك حيل وشعوذة يعرفها الخبير بهذه الأمور.

ومنهم من تأتيه الشياطين، وذلك هم أهل المحال الشيطاني.

فصل
[الغلو في الشيوخ]

وأما ما ذكروا من غلوهم في الشيوخ: فيجب أن يعلم أن الشيوخ الصالحين الذين يقتدى بهم في الدين هم المتبعون لطريق الأنبياء والمرسلين كالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، ومن له في الأمة لسان صدق ـ وطريقة هؤلاء دعوة الخلق إلى الله، وإلى طاعته وطاعة رسوله، واتباع كتابه وسنة رسوله ﷺ.

والمقصود أن يكون الدين كله لله، وتكون كلمة الله هي العليا. فإن الله تعالى يقول: **﴿وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون. ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون. إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾**(١).

والرسل أمروا الخلق أن لا يعبدوا إلا الله وأن يخلصوا له الدين فلا يخافون غيره، ولا يرجون سواه، ولا يدعون إلا إياه. قال تعالى: **﴿وان المساجد لله. فلا**

---

(١) سورة الذاريات الآيات ٢١ ـ ٢٣.

تدعوا مع الله احداً﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون﴾[2] فجعل الطاعة لله والرسول، وجعل الخشية والتقوى لله وحده. وقال تعالى: ﴿ولو أنهم رضوا ما أتاهم الله ورسوله، وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله. إنا إلى الله راغبون﴾[3] فالإيتاء لله والرسول: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾[4]. والحلال ما حلله رسول الله والحرام ما حرمه، والدين ما شرعه، ليس لأحد من الأولين والآخرين خروج عن طاعته وشريعته، ومن لم يقر به باطناً وظاهراً فهو كافر مخلد في النار.

وخير الشيوخ الصالحين، وأولياء الله المتقين: أتبعهم له وأقر بهم وأعرفهم بدينه وأطوعهم لأمره: كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي. وسائر التابعين بإحسان، وأما الحسب فلله وحده ولهذا قالوا: ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾[5] ولم يقولوا ورسوله. كما قال تعالى: ﴿الذين قال لهم الناس: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم. فزادهم إيماناً وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل﴾[6] وقال تعالى: ﴿يا ايها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين﴾[7] أي: إن الله وحده حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين. فهو وحده يكفيهم فإنه سبحانه له الملك وله الحمد وهو كاف عبده. كما قال تعالى: ﴿أليس الله بكاف عبده﴾[8]؟ وقال تعالى: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب. أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾[9] الآية.

وروي أن بعض الصحابة قال: يا رسول الله! هل ربنا قريب فنناجيه؟ أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية، فهو سبحانه سميع قريب مجيب رحيم، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وهو يعلم من أحوال العباد ما لا يعلمه غيره، ويقدر على قضاء حوائجهم التي لا يقدر عليها غيره، ويرحمهم رحمة لا يرحمهم بها غيره.

---

(١) سورة الجن آية ١٨.
(٢) سورة الجن آية ٥٢.
(٣) سورة التوبة آية ٥٩.
(٤) سورة الحشر آية ٧.
(٥) سورة آل عمران آية ١٧٣.
(٦) سورة آل عمران آية ١٧٣.
(٧) سورة الأنفال آية ٦٤.
(٨) سورة الزمر آية ٣٦.
(٩) سورة البقرة آية ١٨٦.

والشيوخ الذين يقتدى بهم يدلون عليه، ويرشدون إليه، بمنزلة الأئمة في الصلاة، يصلون ويصلي الناس خلفهم، وبمنزلة الدليل الذي للحاج هو يدلهم على البيت، وهو وهم جميعاً يحجون إليه، ليس لهم من الإلهية نصيب؛ بل من جعل لهم شيئاً من ذلك فهو من جنس النصارى المشركين، الذين قال الله في حقهم: **﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، والمسيح بن مريم، وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾**[1] وقد قال نوح عليه السلام: **﴿قل لا أقول لكم: عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب. ولا أقول لكم إني ملك﴾**[2] وهكذا أمر الله محمداً ﷺ أن يقول.

فليس لأحد أن يدعو شيخاً ميتاً أو غائباً؛ بل ولا يدعو ميتاً ولا غائباً: لا من الأنبياء ولا غيرهم، فلا يقول لأحدهم: يا سيـدي فلان! أنـا في حسبك أو في جوارك، ولا يقول: بك استغيث، وبك استجير، ولا يقول: إذا عثر: يا فلان! ولا يقول: محمد! وعلي! ولا الست نفيسة ولا سيدي الشيخ أحمد! ولا الشيخ عدي! ولا الشيخ عبد القادر! ولا غير ذلك، ولا نحو ذلك مما فيه دعاء الميت والغائب، ومسألته، والاستغاثة به، والاستنصار به، بل ذلك من أفعال المشركين، وعبادات الضالين.

ومن المعلوم أن سيد الخلق محمد ﷺ، وقد ثبت في صحيح البخاري «أن الناس لما أجدبوا استسقى عمر بالعباس. وقال اللهم إنا إذا أجدبنا توسلنا إليك بنبينا، فتسقينا. وإنا نتوسل بعم نبينا فاسقنا فيسقون» فكانـوا في حياة النبي ﷺ يتوسلون بدعائه، وشفاعته لهم، كما يتوسل به الناس يوم القيامة، ويستشفعون به إلى ربهم، فيأذن الله له في الشفاعة فيشفع لهم. ألا ترى أن الله يقول **﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا باذنه﴾**[3]. وقال تعالى: **﴿قل: ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الارض ومالهم فيهما من شرك وماله منهم من ظهير. ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له﴾**[4] فبين سبحانه أن المخلوقات

---

(١) سورة التوبة آية ٣١.

(٢) سورة الأنعام آية ٥٠.

(٣) سورة البقرة آية ٢٥٥.

(٤) سورة سبأ آية ٢٢ ـ٢٣.

كلها ليس لأحد منها شيء في الملك، ولا له شريك فيه، ولا له ظهير، أي: معين لله تعالى كما تعاون الملوك، وبين أن الشفاعة عنده لا تنفع إلا لمن أذن له.

وإذا كان يوم القيامة يجيء الناس إلى آدم، ثم نوح، ثم إبراهيم ثم موسى، ثم عيسى، فيطلبون الشفاعة منهم، فلا يشفع لهم أحد من هؤلاء الذين هم سادة الخلق، حتى يأتوا محمداً ﷺ فيأتي ربه فيحمده بمحامد ويسجد له، فإذا أذن له في الشفاعة شفع لهم. فهذه حال هؤلاء الذين هم أفضل الخلق؛ فكيف غيرهم؟

فلما مات النبي ﷺ لم يكونوا يدعونه، ولا يستغيثون به ولا يطلبون منه شيئاً لا عند قبره ولا بعيداً من قبره؛ بل ولا يصلون عند قبره ولا قبر غيره، لكن يصلون ويسلمون عليه ويطيعون أمره ويتبعون شريعته، ويقومون بما أحبه الله تعالى من حق نفسه وحق رسوله وحق عباده المؤمنين، فإنه ﷺ قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم. فإنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله»(١) وقال: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد»(٢) وقال: «لا تتخذوا قبري عيداً. وصلوا علي حيث كنتم فإن صلاتكم تبلغني»(٣) وقال: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر ما فعلوا.

وفي المسند أن معاذ بن جبل سجد له. فقال: «ما هذا يا معاذ»؟ فقال: يا رسول الله! رأيتهم في الشام يسجدون لأساقفتهم ويذكرون ذلك عن أنبيائهم فقال: يا معاذ! «لو أمرت أحداً أن يسجد لاحد لأمرت المرأة ان تسجد لزوجها من عظم حقه عليها» وقال: يا معاذ! أريت لو مررت بقبري اكنت ساجداً لقبري قال: لا قال: فإنه لا يصلح السجود إلا لله» أو كما قال.

فإذا كان السجود لا يجوز لرسول الله ﷺ حياً ولا ميتاً، ولا لقبره، فكيف

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٤٨، والدارمي في الرقاق ٦٨، وأحمد ١/٢٣، ٢٤، ٤٧، ٥٥.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ في كتاب السفر حديث رقم ٨٥، وأحمد ٢/٢٤٦.

(٣) أخرجه أبو داود في المناسك ٩٦، وأحمد ٢/٢٦٧.

(٤) أخرجه البخاري في الصلاة ٤٨ والجنائز ٦٢ والأنبياء ٥٠ والمغازي ٨٣، ومسلم في المساجد ١٩، وأبو داود في الجنائز ٧٢، والنسائي في المساجد ١٣ والجنائز ١٠٦، والدارمي في الصلاة ١٢٠، وفي الموطأ كتاب المدينة حديث رقم ١٧، وأحمد ١/٢١٨، و٢/٢٦٠، ٢٨٤، ٢٨٥، ٣٦٦، ٣٦٩، و٥/١٨٤، ٢٠٤، و٦/٣٤، ٨٠، ١٤٦.

السجود لغيره؟ بل قد ثبت عنه في الصحيح أنه قال: «لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها» فقد نهى عن الصلاة إليها، كما نهى عن اتخاذها مساجد ولهذا لما أدخلوا حجرته في المسجد لما وسعوه جعلوا مؤخرها مسنماً منحرفا عن سمت القبلة لئلا يصلي أحد إلى الحجرة النبوية، فما الظن بالسجود إلى جهة غيره كائناً من كان؟!.

وأما قول القائل: هذا السجود لله تعالى فإن كان كاذباً في ذلك فكفى بالكذب خزياً، وإن كان صادقاً في ذلك فإنه يستتاب، فإن تاب وإلا قتل، فإن السجود لا يكون إلا على الوجه المشروع وهو السجود في الصلاة، وسجود السهو وسجود التلاوة، وسجود الشكر على أحد قولي العلماء. وأما السجود عقيب الصلاة بلا سبب فقد كرهه العلماء وكذلك ما يفعله بعض المشايخ من سجدتين بعد الوتر لم يفعله أحد من السلف ولا استحبه أحد من الأئمة، ولكن هؤلاء بلغهم حديث رواه أبو موسى الذي في الوظائف أن النبي ﷺ كان يصلي سجدتين بعد الوتر ففعلوا[1] الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه «أنه كان يصلي بعد الوتر ركعتين وهو جالس ولم يداوم على ذلك» فسميت الركعتان سجدتين. كما في أحاديث أخر. فهذا هو أصل ذلك. والكلام في هاتين الركعتين مذكور في غير هذا الموضع.

وأما السجدتان فلا أصل لهما لا للسجود المجرد بلا سبب وقالوا هو بدعة فكيف بالسجود إلى جهة مخلوق من غير مراعاة شروط الصلاة وهذا يشابه من يسجد للشرق في الكنيسة مع النصارى ويقول: لله، أو يسجد مع اليهود إلى الصخرة ويقول: لله؛ بل سجود النصارى واليهود لله وإن كان إلى غير قبلة المسلمين خير من السجود لغير الله. بل هذا بمنزلة من يسجد للشمس عند طلوعها وغروبها ويسجد لبعض الكواكب والأصنام ويقولون: لله.

(١) بياض في الأصل.

فَصل
[إفساد الأولاد]

وأما فساد الأولاد: بحيث يعلمه الشحاذة، ويمنعه من الكسب الحلال، أو يخرجه ببلاده مكشوف الشعر[1] في الناس، فهذا يستحق صاحبه العقوبة البليغة، التي تزجره عن هذا الإفساد، لا سيما إن أدخلوهم في الفواحش، غير ذلك من المنكرات؛ ويجب تعليم الأولاد المسلمين ما أمر الله بتعليمهم إياه، وتربيتهم على طاعة الله ورسوله. كما قال النبي ﷺ «مروهم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع»[2].

فَصل
[النذر للموتى]

وأما «النذر للموتى» من الأنبياء والمشائخ وغيرهم: أو لقبورهم أو المقيمين عند قبورهم. فهو نذر شرك ومعصية لله تعالى. سواء كان النذر نفقة أو ذهباً أو غير ذلك وهو شبيه بمن ينذر للكنائس؛ والرهبان وبيوت الأصنام. وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله لا يعصه» وقد اتفق العلماء على أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به؛ بل عليه كفارة يمين في أحد قولي العلماء، وهذا إذا كان النذر لله وأما إذا كان النذر لغير الله، فهو كمن يحلف بغير الله، وهذا شرك. فيستغفر الله منه، وليس في هذا وفاء ولا كفارة. ومن تصدق بالنقود على أهل الفقر والدين فأجره على رب العالمين.

وأصل عقد النذر منهي عنه. كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه نهى عن النذر وقال: «إنه لا يأتي بخير وإنما يستخرج به من البخيل» وإذا نذر فعليه الوفاء بما كان طاعة لله كالصلاة والصدقة والصيام والحج؛ دون ما لم يكن طاعة لله تعالى.

---

(١) بياض في الأصل.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة، وأحمد ٢/١٨٠، ١٨٧.

فَصل
[مؤاخاة النساء الرجال الأجانب]

فأما مؤاخاة الرجال النساء الأجانب، وخلوهم بهن ونظرهم إلى الزينة الباطنة منهن: فهذا حرام باتفاق المسلمين، ومن جعل ذلك من الدين، فهو من أخوان الشياطين. قال الله تعالى: ﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها. قل إن الله لا يأمر بالفحشاء. أتقولون على الله ما لا تعلمون؟﴾[1].

وقال النبي ﷺ: «لا يخلون رجل بامرأة فإن ثالثهما الشيطان»[2] وقال: «إياكم والدخول على النساء. قالوا: يا رسول الله: أرأيت الحمو؟ قال: الحمو الموت»[3] ومن لم ينته عن ذلك عوقب عقوبة بليغة تزجره، وأمثاله من أهل الفساد والعناد.

فَصل
[الحلف بغير الله]

وأما الحلف بغير الله من الملائكة والأنبياء والمشائخ والملوك وغيرهم فإنه منهي عنه، غير منعقد باتفاق الأئمة، ولم ينازعوا إلا في الحلف برسول الله ﷺ خاصة. والجمهور على أنه لا تنعقد اليمين لا به ولا بغيره، وقد قال النبي ﷺ: «من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت»[4] وقال: «من حلف بغير الله فقد

---

(١) سورة الأعراف آية ٢٨.

(٢) أنظر البخاري في النكاح ١١١، ١١٢، ومسلم في الحج ٤٢٤، والترمذي في الرضاع ١٦ والفتن ٧، وأحمد ١/٢٢٢، و٣/٣٣٩، ٤٤٦.

(٣) أخرجه البخاري في النكاح ١١١، ومسلم في السلام ٢٠، والترمذي في الرضاع ١٦، والدارمي في الاستئذان ١٤، وأحمد ٤/١٤٩، ١٥٣.

(٤) بروايات متعددة أنظر البخاري في مناقب الأنصار ٢٦ والأدب ٧٤ والإيمان ٤ وأبو داود في الإيمان ٤، والترمذي في النذور ٩، والنسائي في الإيمان ٤، وابن ماجة في الكفارات ٢، والدارمي في النذور ٦، والموطأ في النذور ١٤، وأحمد ١/٧، و٢/١١، ٣٤، ٨٧، و٣/٤٨٧.

اشرك»(1) فمن حلف بشيخه أو بتربته أو بحياته أو بحقه على الله، أو بالملوك أو بنعمة السلطان أو بالسيف أو بالكعبة أو أبيه أو تربة أبيه أو نحو ذلك كان منهياً عن ذلك، ولم تنعقد يمينه باتفاق المسلمين.

فَصل
[الشرع]

وأما قول القائل: لمن أنكر عليه أنت شرعي. فكلام صحيح فإن أراد بذلك أن الشرع لا يتبعه، أو لا يجب عليه اتباعه، وأنا خارج عن اتباعه، فلفظ الشرع قد صار له في عرف الناس «ثلاث معان» الشرع المنزل، والشرع المؤول، والشرع المبدل.

فأما الشرع المنزل: فهو ما ثبت عن الرسول من الكتاب والسنة وهذا الشرع يجب على الأولين والآخرين اتباعه، وأفضل أولياء الله أكملهم اتباعاً له، ومن لم يلتزم هذا الشرع، أو طعن فيه أو جوز لأحد الخروج عنه، فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل.

وأما المؤول فهو ما اجتهد فيه العلماء من الأحكام، فهذا من قلد فيه إماماً من الأئمة ساغ ذلك له، ولا يجب على الناس التزام قول إمام معين.

وأما الشرع المبدل فهو الأحاديث المكذوبة، والتفاسير المقلوبة، والبدع المضلة التي أدخلت في الشرع وليست منه، والحكم بغير ما أنزل الله. فهذا ونحو لا يحل لأحد اتباعه.

وإنما حكم الحكام بالظاهر، والله تعالى يتولى السرائر، وحكم الحاكم لا يحيل الأشياء عن حقائقها. فقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض. وإنما أقضي بنحو

---

(1) أخرجه الترمذي في النذور ٩، والنسائي في الإيمان ٤، وابن ماجة في الكفارات ٢، والدارمي في النذور ٦، وأحمد ١/٤٧، و٢/٣٤، ٦٧، ٦٩، ٨٧، ٣٨، ١٤٢.

ما أسمع فمن قضيت له من أخيه شيئاً فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار» فهذا قول إمام الحكام، وسيد ولد آدم.

وقال ﷺ «إذا اجتهد الحاكم: فإن أصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر»[1] وقال «القضاة الثلاثة: قاضيان في النار، وقاض في الجنة. رجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة، ورجل قضى للناس بجهل فهو في النار، ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو في النار»[2].

ومن خرج عن الشرع الذي بعث الله به محمداً ﷺ ظاناً أنه متبع للحقيقة، فإنه مضاه للمشركين المكذبين للرسل، ولفظ «الحقيقة» يقال: على «حقيقة كونية» و «حقيقة بدعية» و «حقيقة شرعية».

فـ «الحقيقة الكونية» مضمونها الإيمان بالقضاء والقدر، وأن الله خالق كل شيء وربه ومليكه. وهذا مما يجب أن يؤمن به، ولا يجوز أن يحتج به، بل لله علينا الحجة البالغة، فمن احتج بالقدر فحجته داحضة، ومن اعتذر بـالقدر عن المعاصي فعذره غير مقبول.

وأما «الحقيقة البدعية» فهو سلوك طريق الله سبحانه وتعالى، مما يقع في قلب العبد من الذوق والوجد، والمحبة والهوى، من غير اتباع الكتاب والسنة، كطريق النصارى، فهم تارة يعبدون غير الله وتارة تعبدون بغير أمر الله. كالنصارى المشركين الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم، وابتدعوا الرهبانية فأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، وشرعوا من الدين ما لم يأذن به الله. وأما دين المسلمين فكما قال الله تعالى: **﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾**[3] وقال تعالى: **﴿ليبلوكم أيكم احسن عملاً﴾**[4] قال الفضيل بن عياض: [أخلصه وأصوبه قالوا:] وما أخلصه وأصوبه.

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام ٢١، ومسلم في الأقضية ١٥، وأبو داود في الأقضية ٢، والنسائي في الأحكام ٢ والقضاء ٣، وابن ماجة في الأحكام ٣، وأحمد ١٩٨/٤، ٢٠٤، ٢٠٥.

(٢) أنظر أبو داود في الأقضية ٢، وابن ماجة في الأحكام ٣.

(٣) سورة الكهف آية ١١٠.

(٤) سورة الملك آية ٢.

قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً. والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة ولهذا كان عمر بن الخطاب يقول في دعائه: «اللهم اجعل عملي كله صالحاً، واجعله لوجهك خالصاً، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً».

وأما «الحقيقة الدينية» وهي تحقيق ما شرعه الله ورسوله، مثل الإخلاص لله، والتوكل على الله، والخوف من الله، والشكر لله، والصبر لحكم الله والحب لله ورسوله والبغض في الله ورسوله، ونحو ذلك مما يحبه الله ورسوله. فهذا حقائق أهل الإيمان، وطريق أهل العرفان.

فصل
[الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر]

والأمر بالمعروف، وهو الحق الذي بعث الله به رسوله. والنهي عن المنكر، وهو ما خالف ذلك من أنواع البدع والفجور، بل هو من أعظم الواجبات، وأفضل الطاعات؛ بل هو طريق أئمة الدين، ومشائخ الدين، نقتدي بهم فيه. قال الله تعالى: **﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾**[1] وهذه الآية بها استدل المستدلون على أن شيوخ الدين، يقتدى بهم في الدين، فمن لم يأمر بالمعروف وينه عن المنكر لم يكن من شيوخ الدين، ولا ممن يقتدى به.

فصل
[لباس الخرقة]

وأما لباس الخرقة التي يلبسها بعض المشائخ المريدين: فهذه ليس لها أصل يدل عليها الدلالة المعتبرة من جهة الكتاب والسنة، ولا كان المشائخ المتقدمون وأكثر المتأخرين يلبسونها المريدين. ولكن طائفة من المتأخرين رأوا ذلك واستحبوه، وقد استدل بعضهم بأن النبي صلى الله عليه وسلم ألبس أم خالد بنت

(١) سورة آل عمران آية ١٠٤.

خالد بن سعيد بن العاص ثوباً، وقال لها: سنا، والسنا بلسان الحبشة الحسن. وكانت قد ولدت بأرض الحبشة، فلهذا خاطبها بذلك اللسان، واستدلوا أيضاً بحديث البردة التي نسجتها امرأة للنبي ﷺ: فسأله إياها بعض الصحابة فأعطاه إياها وقال: «أردت أن تكون كنفاً لي».

وليس في هذين الحديثين دليل على الوجه الذي يفعلونه. فإن إعطاء الرجل لغيره ما يلبسه كإعطائه إياه ما ينفعه، وأخذ ثوب من النبي ﷺ على وجه البركة كأخذ شعره على وجه البركة، وليس هذا كلباس ثوب أو قلنسوة على وجه المتابعة والاقتداء؛ ولكن [يشبه] من بعض الوجوه خلع الملوك [التي] يخلعونها على من يولونه كأنها شعار وعلامة على الولاية والكرامة؛ ولهذا يسمونها تشريفاً. وهذا ونحوه غايته أن يجعل من جنس المباحات؛ فإن اقترن به نية صالحة كان حسناً من هذه الجهة، وأما جعل ذلك سنة وطريقاً إلى الله سبحانه وتعالى فليس الأمر كذلك.

وأما انتساب الطائفة إلى شيخ معين: فلا ريب أن الناس يحتاجون من يتلقون عنه الإيمان والقرآن. كما يتلقى الصحابة ذلك عن النبي ﷺ، وتلقاه عنهم التابعون؛ وبذلك يحصل اتباع السابقين الأولين باحسان، فمكا أن المرأ له من يعلمه القرآن ونحوه، فكذلك له من يعلمه الدين الباطن والظاهر؛ ولا يتعين ذلك في شخص معين؛ ولا يحتاج الإنسان في ذلك أن ينتسب إلى شيخ معين، كل من أفاد غيره إفادة دينية هو شيخه فيها؛ وكل ميت وصل إلى الإنسان من أقواله وأعماله وآثاره ما انتفع به في دينه فهو شيخه من هذه الجهة؛ فسلف الأمة شيوخ الخلفاء قرناً بعد قرن؛ وليس لأحد أن ينتسب إلى شيخ يوالي على متابعته، ويعادي على ذلك؛ بل عليه أن يوالي كل من كان من أهل الإيمان، ومن عرف منه التقوى من جميع الشيوخ وغيرهم، ولا يخص أحداً بمزيد موالات، إلا إذا ظهر له مزيد إيمانه وتقواه، فيقدم من قدم الله تعالى ورسوله عليه، ويفضل من فضله الله ورسوله، قال الله تعالى: **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾**[1].

---

(١) سورة الحجرات آية ١٣.

وقال النبي ﷺ «لا فضل لعربي على عجمي؛ ولا لعجمي على عربي؛ ولا أسود على أبيض؛ ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى»[1] [2].

فصل
[التزام شيخ واحد]

وأما قول القائل: أنت للشيخ فلان، وهو شيخك في الدنيا والآخرة.

فهذه بدعة منكرة من جهة أنه جعل نفسه لغير الله، ومن جهة أن قوله: شيخك في الدنيا والآخرة كلام لا حقيقة له، فإنه إن أراد أنه يكون معه في الجنة، فهذا إلى الله لا إليه، وإن أراد أنه يشفع فيه فلا يشفع أحد لأحد إلا بإذن الله تعالى، إن أذن له أن يشفع فيه وإلا لم يشفع؛ وليس بقوله: أنت شيخي في الآخرة يكون شافعاً له ـ هذا إن كان الشيخ ممن له شفاعة ـ فقد تقدم أن سيد المرسلين والخلق لا يشفع حتى يأذن الله له في الشفاعة بعد امتناع غيره منها. وكم من مدع للمشيخة وفيه نقص من العلم والإيمان ما لا يعلمه إلا الله تعالى.

وقول القائل: «لو أحسن أحدكم ظنه بحجر لنفعه الله به»[3] هو من كلام أهل الشرك والبهتان، فإن عباد الأصنام أحسنوا ظنهم بها فكانوا هم وإياها من حصب جهنم، كما قال الله تعالى: ﴿**إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون**﴾[4]. لكن قال النبي ﷺ «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إلي ذراعاً

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ٥/٤١١.

(٢) ذكر السخادي في لبس الخرقة قوله: «لبس الخرقة الصوفية وكون الحسن البصري لبسها من علي، قال ابن دحية وابن الصلاح: إنه باطل، وكذا قال شيخنا: إنه ليس في شيء من طرقها ما يثبت ولم يرد في خبر صحيح ولا حسن ولا ضعيف أن النبي ألبس الخرقة على الصورة المتعارفة بين الصوفية لأحد من أصحابه ولا أمر أحداً من أصحابه بفعل ذلك، وكل ما يروى صريحاً فباطل». (المقاصد الحسنة ص ٣٣١).

(٣) انظر الكلام في هذا القول في المقاصد الحسنة ٣٤١.

(٤) سورة الأنبياء آية ٩٨.

تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هـرولة»[1] ومن أمكنه الهدى من غيـر انتساب إلى شيخ معين فلا حاجة به إلى ذلك، ولا يستحب له ذلك، بل يكره له.

وأما إن كان لا يمكنه أن يعبد الله بما أمره إلا بذلك، مثل أن يكون في مكان يضعف فيه الهدى والعلم والإيمان والدين، يعلمونه ويؤدبونه لا يبذلون له ذلك إلا بانتساب إلى شيخهم أو يكون انتسابه إلى شيخ يزيد في دينه وعلمه، فإنه يفعل الأصلح لدينه. وهذا لا يكون في الغالب إلا لتفريطه، وإلا فلو طلب الهدى على وجهه لوجده.

فـأما الانتسـاب الذي يفـرق بين المسلمين، وفيه خـروج عن الجمـاعـة والائتلاف إلى الفرقة، وسلوك طريق الابتداع، ومفارقة السنة والاتباع، فهذا مما ينهى عنه، ويأثم فاعله، ويخرج بذلك عن طاعة الله ورسوله ﷺ.

فصل
[رضى وغضب المشايخ]

وأما قول القائل: إن الله يرضى لرضا المشائخ، ويغضب لغضبهم.

فهذا الحكم ليس هو لجميع المشائخ، ولا مختص بالمشائخ، بل كل من كان موافقاً لله: يرضى مـا يرضـاه الله، ويسخط ما يسخط الله كـان الله يرضى لرضاه، ويغضب لغضبه، من المشائخ وغيرهـم، ومن لم يكن كذلك من المشائخ، لم يكن من أهل هذه الصفة. ومنه قول النبي ﷺ لأبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ وكان قد جرى بينه وبين صهيب وخباب وبلال وغيرهم كلام في أبي سفيان ابن حرب؛ فإنه مر بهم فقالوا: «ما أخذت السيوف من عدو الله مأخذها. فقال اتقولون هذا لكبير قريش؟ ودخل على النبي ﷺ فأخبره، فقال: لعلك أغضبتهم يا أبا بكر، لئن كنت أغضبتهم، لقد أغضبت ربك» أو كما قال. قال: فخرج عليهم

(١) أخرجه البخاري في التوحيد ١٥ و٥٠، ومسلم في التوبة ١ والذكر ١ و٢٠ -٢٢، والترمذي في الدعاء ١٣١، وابن ماجة في الأدب ٥٨، وأحمد ٢/٢٥١، ٤١٣، ٤٨٠، ٤٨٢، ٥٠٠، و٣/٤٠، ١٢٢، ١٢٧، ٢٧٢، و٥/١٥٣، ١٦٩.

أبو بكر فقال لهم: يا إخواني! أغضبتكم؟ قالوا: يغفر الله لك يا أبا بكر. فهؤلاء كان غضبهم لله[1].

وفي صحيح البخاري عن النبي ﷺ قال: «يقول الله تعالى من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إلي عبدي بمثل ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به. وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطيته، ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه».

فهذا المؤمن الذي تقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض أحبه الله لأنه فعل ما أحبه الله، والجزاء من جنس العمل. قال الله تعالى: ﴿**رضي الله عنهم ورضوا عنه**﴾[2] وفي الحقيقة فالعبد الذي يرضى الله لرضاه، ويغضب لغضبه، هو يرضى لرضا الله، ويغضب لغضب الله وليكن هذان مثالان: فمن أحب الله، وأبغض ما أبغض الله ورضي ما رضي الله لما يرضي الله، ويغضب لما يغضب؛ لكن هذا لا يكون للبشر على سبيل الدوام، بل لا بد لأكمل الخلق أن يغضب أحياناً غضب البشر، ويرضى رضا البشر.

ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «اللهم إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر، فأيما مسلم سببته أو لعنته وليس لذلك بأهل فاجعل ذلك له صلاة وزكاة وقربة تقربه إليك يوم القيامة» وقول النبي ﷺ لأبي بكر: لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك في قضية معينة، لكون غضبه لأجل أبي سفيان وهم كانوا يغضبون لله، وإلا فأبو بكر أفضل من ذلك، وبالجملة فالشيوخ والملوك وغيرهم إذا أمروا بطاعة الله ورسوله أطيعوا، وإن أمروا بخلاف ذلك لم يطاعوا؛ فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وليس أحد معصوماً إلا رسول الله ﷺ، وهذا في الشيخ الذي ثبت معرفته بالدين وعمله به.

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة ١٧٠، وأحمد ٥/٦٤.

(٢) سورة المجادلة آية ٢٢.

وأما من كان مبتدعاً بدعة ظاهرة، أو فاجراً فجوراً ظاهراً. فهذا إلى أن تنكر عليه بدعته وفجوره، أحوج منه إلى أن يطاع فيما يأمر به؛ لكن إن أمر هو أو غيره بما أمر الله به ورسوله، وجبت طاعة الله ورسوله، فإن طاعة الله ورسوله واجبة على كل أحد، في كل حال؛ ولو كان الآمر بها كائناً من كان.

فصل
[المرء مع من أحب]

وأما قوله ﷺ «المرء مع من أحب» فهو من أصح الأحاديث. وقال أنس: فما فرح المسلمون بشيء بعد الإسلام فرحهم بهذا الحديث، فأنا أحب رسول الله وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أحشر معهم، وإن لم أعمل مثل أعمالهم. وكذلك «أوثق عرى الإسلام الحب في الله والبغض في الله» لكن هذا بحيث أن يحب المرء ما يحبه الله ومن يحب الله، فيحب أنبياء الله كلهم؛ لأن الله يحبهم ويحب كل من علم أنه مات على الإيمان والتقوى، فإن هؤلاء أولياء الله والله يحبهم كالذين شهد لهم النبي ﷺ بالجنة وغيرهم من أهل بدر وأهل بيعة الرضوان.

فمن شهد له النبي ﷺ بالجنة شهدنا له بالجنة، وأما من لم يشهد له بالجنة. فقد قال طائفة من أهل العلم: لا نشهد له بالجنة ولا نشهد أن الله يحبه، وقال طائفة: بل من استفشى من بين الناس إيمانه وتقواه، واتفق المسلمون على الثناء عليه، كعمر بن عبد العزيز والحسن البصري وسفيان الثوري وأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والفضيل بن عياض وأبي سليمان الداراني ومعروف الكرخي وعبد الله بن مبارك ـ رضي الله عنهم ـ وغيرهم. شهدنا لهم بالجنة؛ لأن في الصحيح « إن النبي ﷺ مر عليه بجنازة فأثنوا عليها خيراً فقال: وجبت، وجبت، ومر عليه بجنازة، فأثنوا عليها شراً. فقال: وجبت، وجبت. قالوا: يا رسول الله! ما قولك: وجبت، وجبت؟ قال: هذه الجنازة أثنيتم عليها خيراً فقلت: وجبت لها الجنة، وهذه الجنازة أثنيتم عليها شراً فقلت وجبت لها النار. قيل: بم يا رسول الله؟ قال: بالثناء الحسن، والثناء السيء».

وإذا علم هذا فكثير من المشهورين بالمشيخة في هذه الأزمان، قد يكون

فيهم من الجهل والضلال والمعاصي والذنوب ما يمنع شهادة الناس لهم بذلك، بل قد يكون فيهم المنافق والفاسق، كما أن فيهم من هو من أولياء الله المتقين، وعباد الله الصالحين، وحزب الله المفلحين، كما أن غير المشايخ فيهم هؤلاء، وهؤلاء في الجنة، والتجار والفلاحون وغيرهم من [هذه] الأصناف.

إذا كان كذلك فمن طلب أن يحشر مع شيخ لم يعلم عاقبته كان ضالاً؛ بل عليه أن يأخذ بما يعلم؛ فيطلب أن يحشره الله مع نبيه والصالحين من عباده. كما قال الله تعالى: **﴿وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين﴾**(١). وقال الله تعالى: **﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون؛ ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾**(٢) وعلى هذا فمن أحب شيخاً مخالفاً للشريعة كان معه؛ فإذا دخل الشيخ النار كان معه. ومعلوم أن الشيوخ المخالفين للكتاب والسنة أهل الضلال والجهالة، فمن كان معهم كان مصيره مصير أهل الضلال والجهالة، وأما من كان من أولياء الله المتقين: كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم؛ فمحبة هؤلاء من أوثق عرى الإيمان؛ وأعظم حسنات المتقين.

ولو أحب الرجل لما ظهر له من الخير الذي يحبه الله ورسوله، أثابه الله على محبة ما يحبه الله ورسوله، وإن لم يعلم حقيقة باطنه، فإن الأصل هو حب الله وحب ما يحبه الله، فمن أحب الله وأحب ما يحبه الله كان من أولياء الله. وكثير من الناس يدعي المحبة من غير تحقيق قال الله تعالى: **﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله، ويغفر لكم ذنوبكم﴾**(٣) قال بعض السلف: ادعى قوم عل عهد رسول الله ﷺ: أنهم يحبون الله، فأنزل الله هذه الآية، فمحبة الله ورسوله وعباده المتقين تقتضي فعل محبوباته، وترك مكروهاته، والناس يتفاضلون في هذا تفاضلاً عظيماً، فمن كان أعظم نصيباً من ذلك، كان أعظم درجة عند الله.

وأما من أحب شخصاً لهواه، مثل أن يحبه لدنيا يصيبها منه، أو لحاجة يقوم

---

(١) سورة التحريم آية ٤.

(٢) سورة المائدة آية ٥٦.

(٣) سورة آل عمران آية ٣١.

بها، أو لمال يتآكله به. أو بعصبية فيه. ونحو ذلك من الأشياء فهذه ليست محبة لله؛ بل هذه محبة لهوى النفس، وهذه المحبة هي التي توقع أصحابها في الكفر والفسوق والعصيان. وما أكثر من يدعي حب المشائخ لله، ولو كان يحبهم لله لأطاع الله الذي أحبهم لأجله، فإن المحبوب لأجل غيره تكون محبته تابعة لمحبة ذلك الغير.

وكيف يحب شخصاً لله من لا يكون محباً لله، وكيف يكون محباً لله من يكون معرضاً عن رسول الله ﷺ وسبيل الله. وما أكثر من يحب شيوخاً أو ملوكاً أو غيرهم فيتخذهم أنداداً يحبهم كحب الله.

والفرق بين المحبة لله والمحبة مع الله ظاهر، فأهل الشرك يتخذون أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله، وأهل الإيمان يحبون ذلك؛ لأن أهل الإيمان أصل حبهم هو حب الله ومن أحب الله أحب من يحبه، ومن أحبه الله، فمحبوب المحبوب محبوب ومحبوب الله يحب الله فمن أحب الله فيحبه من أحب الله.

وأما أهل الشرك فيتخذون أنداداً أو شفعاء يدعونهم من دون الله قال الله تعالى: **﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون﴾**[1] وقال الله تعالى: **﴿وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون. أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون. إني إذاً لفي ضلال مبين. إني آمنت بربكم فاسمعون﴾**[2] وقال الله تعالى: **﴿وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون﴾**[3] وقال الله تعالى: **﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله. ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون. ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة**

---

(١) سورة الأنعام آية ٩٤.

(٢) سورة يس الآيات ٢٢ ـ ٢٥.

(٣) سورة الأنعام آية ٥١.

والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾(١).

والله تعالى بعث الرسل وأنزل الكتب؛ ليكون الدين كله لله، وقال النبي ﷺ في الحديث الصحيح «إنا معشر الأنبياء ديننا واحد» فالدين واحد وإن تفرقت الشرعة والمنهاج، قال الله تعالى: **﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾**(٢) وقال تعالى: **﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون؟﴾**(٣) وقال الله تعالى: **﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾**(٤).

ومن حين بعث الله محمداً ﷺ ما يقبل من أحد بلغته الدعوة إلا الدين الذي بعثه به؛ فإن دعوته عامة لجميع الخلائق، قال الله تعالى: **﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس﴾**(٥). وقال ﷺ: «لا يسمع بي من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار» قال الله تعالى: **﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون. الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون. قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون﴾**(٦).

فعلى الخلق كلهم اتباع محمد ﷺ، فلا يعبدون إلا الله، ويعبدونه بشريعة محمد ﷺ، لا بغيرها، قال الله تعالى: **﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها، ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون أنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً، وأن الظالمين بعضهم أولياء بعض، والله ولي المتقين﴾**(٧) ويجتمعون على ذلك ولا يتفرقون، كما

---

(١) سورة آل عمران آية ٧٩ ـ ٨٠.
(٢) سورة الأنبياء آية ٢٥.
(٣) سورة الزخرف آية ٤٥.
(٤) سورة النحل آية ٣٦.
(٥) سورة سبأ آية ٢٨.
(٦) سورة الأعراف الآيات ١٥٦ ـ ١٥٨.
(٧) سورة الجاثية آية ١٨.

ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأت تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم» وعبادة الله تتضمن كمال محبة الله، وكمال الذل لله، فأصل الدين وقاعدته يتضمن أن يكون الله هو المعبود الذي تحبه القلوب وتخشاه ولا يكون لها إله سواه، والإله ما تألهه القلوب بالمحبة والرجاء والخوف والإجلال والإعظام ونحو ذلك.

والله سبحانه أرسل الرسل بأنه لا إلا هو فتخلوا القلوب عن محبة ما سواه [بمحبته، وعن رجاء ما سواه] برجائه وعن سؤال ما سواه بسؤاله وعن العمل لما سواه بالعمل له وعن الاستعانة بما سواه بالاستعانة به؛ ولهذا كان وسط الفاتحة **﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾** قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «يقول الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي، نصفين، فإذا قال: **﴿الحمد لله رب العالمين﴾** قال: الله حمدني عبدي، فإذا قال: **﴿الرحمن الرحيم﴾** قال: أثنى علي عبدي، وإذا قال: **﴿مالك يوم الدين﴾** قال: مجدني عبدي. وإذا قال: **﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾** قال: هذه الآية بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل، وإذا قال: **﴿إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾** قال: هؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل».

فوسط السورة **﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾** فالدين أن لا يعبد إلا الله ولا يستعان إلا إياه، والملائكة والأنبياء وغيرهم عباد الله كما قال تعالى: **﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله. وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾**[1] فالحب لغير الله كحب النصارى للمسيح، وحب اليهود لموسى وحب الرافضة لعلي، وحب الغلاة لشيوخهم وأئمتهم: مثل من يوالي شيخاً أو إماماً وينفر عن نظيره وهما متقاربان أو متساويان في الرتبة، فهذا من جنس أهل الكتاب الذين آمنوا ببعض الرسل وكفروا بعض،

---

(١) سورة النساء آية ١٧٢ ـ ١٧٣.

وحال الرافضة الذين يوالون بعض الصحابة ويعادون بعضهم، وحال أهل العصبية من المنتسبين إلى فقه وزهد: الذين يوالون [بعض] الشيوخ والأئمة دون البعض. وإنما المؤمن من يوالي جميع أهل الإيمان. قال الله تعالى **﴿إنما المؤمنون إخوة﴾**[1]. وقال النبي ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»[2] وشبك بين أصابعه ـ وقال: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»[3]. وقال عليه السلام: «لا تقاطعوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً»[4].

ومما يبين الحب لله والحب لغير الله: أن أبا بكر كان يحب النبي ﷺ مخلصاً لله، وأبو طالب عمه كان يحبه وينصره لهوا لا لله، فتقبل الله عمل أبي بكر وأنزل فيه: **﴿وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي ماله يتزكى. وما لأحد عنده من نعمة تجزى. إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى. ولسوف يرضى﴾**[5] وأما أبو طالب فلم يتقبل عمله؛ بل أدخله النار: لأنه كان مشركاً عاملاً لغير الله، وأبو بكر لم يطلب أجره من الخلق، لا من النبي ولا من غيره؛ بل آمن به وأحبه وكلأه وأعانه بنفسه وماله متقرباً بذلك إلى الله وطالباً الأجر من الله. ورسوله يبلغ عن الله أمره ونهيه ووعده ووعيده، قال تعالى: **﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾**.[6]

والله هو الذي يخلق ويرزق ويعطي ويمنع ويخفض ويرفع ويعز ويذل، وهو سبحانه مسبب الأسباب، ورب كل شيء ومليكه.

والأسباب التي يفعلها العباد مما أمر الله به وأباحه فهذا يسلك، وأما ما ينهى عنه نهياً خالصاً، أو كان من البدع التي لم يأذن الله به

---

(١) سورة الحجرات آية ١٠.

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة ٨٨ والأدب ٣٦ والمظالم ٥، ومسلم في البر ٦٥، والترمذي في البر ١٨، والنسائي في الزكاة ٦٧، وأحمد ٤/١٠٤، ٤٠٥، ٤٠٩.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب ٢٧، ومسلم في البر ٦٦، وأحمد ٤/٢٧٠.

(٤) أخرجه أحمد ٣/١، ٥، ٧.

(٥) سورة الليل الآيات ١٧ ـ ٢٣.

(٦) سورة الرعد آية ٤٠.

فهذا لا يسلك. قال تعالى: ﴿**قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير. ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له**﴾[1] بين سبحانه ضلال الذين يدعون المخلوق من الملائكة والأنبياء وغيرهم المبين، إن المخلوقين لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، ثم بين أنه لا شركة لهم، ثم بين أنه لا عون له ولا ظهير؛ لأن أهل الشرك يشبهون الخالق بالمخلوق. كما يقول بعضهم: إذا كانت لك حاجة استوصي الشيخ فلان، فإنك تجده، أو توجه إلى ضريحه خطوات وناده، يا شيخ! يقضي حاجتك، وهذا غلط، لا يحل فعله وإن كان من هؤلاء الداعين لغير الله من يرى صورة المدعو أحياناً فذلك شيطان تمثل له. كما وقع مثل هذا لعدد كثير.

ونظير هذا قول بعض الجهال من اتباع الشيخ عدي وغيره، كل رزق لا يجيء على يد الشيخ لا أريده. والعجب من ذي عقل سليم يستوصي من هو ميت، يستغيث به، ولا يستغيث بالحي الذي لا يموت، ويقوى الوهم عنده أنه لولا استغاثته بالشيخ الميت لما قضيت حاجته. فهذا حرام فعله.

ويقول أحدهم إذا كانت لك حاجة إلى ملك توسلت إليه بأعوانه، فهكذا يتوسل إليه بالشيوخ. وهذا كلام أهل الشرك والضلال، فإن الملك لا يعلم حوائج رعيته، ولا يقدر على قضائها وحده، ولا يريد ذلك إلا لغرض يحصل له بسبب ذلك، والله أعلم بكل شيء، يعلم السر وأخفى، وهو على كل شيء قدير. فالأسباب منه وإليه، وما من سبب من الأسباب، إلا دائر موقوف على أسباب أخرى، وله معارضات. فالنار لا تحرق إلا إذا كان المحل قابلا، فلا تحرق السمندل[2]، وإذا شاء الله منع أثرها كما فعل بإبراهيم عليه السلام.

وأما مشيئة الرب فلا تحتاج إلى غيره ولا مانع لها، بل ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. وهو سبحانه أرحم من الوالدة بولدها: يحسن إليهم ويرحمهم،

---

(١) سورة سبأ آية ٢٢ - ٢٣.

(٢) السمندل: نسيج من ريش بعض الطيور لا يحترق.

ويكشف ضرهم، مع غناه عنهم، وافتقارهم إليه، ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾[1].

فنفى الرب هذا كله فلم يبق إلا الشفاعة. فقال: ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾[2] وقال: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾[3] فهو الذي يأذن في الشفاعة، وهو الذي يقبلها، فالجميع منه وحده، وكلما كان الرجل أعظم إخلاصاً: كانت شفاعة الرسول أقرب إليه. قال له أبو هريرة: من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله؟ قال: «من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله».

وأما الذين يتوكلون على فلان ليشفع لهم من دون الله تعالى، ويتعلقون بفلان، فهؤلاء من جنس المشركين الذين اتخذوا شفعاء من دون الله تعالى. قال الله تعالى: ﴿أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل: أولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون. ! قل: لله الشفاعة جميعاً﴾[4] وقال الله تعالى: ﴿ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع﴾[5] وقال: ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا. أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً﴾[6].

قال طائفة من السلف: كان قوم يدعون المسيح والعزير والملائكة فبين الله تعالى أن هؤلاء الملائكة والأنبياء عباده، كما أن هؤلاء عباده وهؤلاء يتقربون إلى الله، وهؤلاء يرجون رحمة الله، وهؤلاء يخافون عذاب الله. فالمشركون اتخذوا مع الله أنداداً يحبونهم كحب الله؛ واتخذوا شفعاء يشفعون لهم عند الله، ففيهم محبة لهم وإشراك بهم، وفيهم من جنس ما في النصارى من حب المسيح وإشراك به، والمؤمنون أشد حباً لله: فلا يعبدون إلا الله وحده، ولايجعلون معه شيئاً يحبونه كمحبته لا أنبيائه ولا غيرهم؛ بل أحبوا ما أحبه بمحبتهم لله؛ وأخلصوا دينهم لله

(١) سورة الشورى آية ١١.
(٢) سورة سبأ آية ٢٣.
(٣) سورة البقرة آية ٢٥٥.
(٤) سورة الزمر آية ٤٣ ـ ٤٤.
(٥) سورة السجدة آية ٤.
(٦) سورة الإسراء آية ٥٦ ـ ٥٧.

وعلموا أن أحداً لا يشفع له إلا بإذن الله؛ فأحبوا عبد الله ورسوله محمداً ﷺ لحب الله، وعلموا أنه عبد الله المبلغ عن الله، فأطاعوه فيما أمر وصدقوه فيما أخبر ولم يرجوا إلا الله؛ ولم يخافوا إلا الله، ولم يسألوا إلا الله، وشفاعته لمن يشفع له هو بإذن الله، فلا ينفع رجاؤنا للشفيع، ولا مخافتنا له، وإنما ينفع توحيدنا، وإخلاصنا لله، وتوكلنا عليه، فهو الذي يأذن للشفيع.

فعلى المسلم أن يفرق بين محبة المؤمنين ودينهم، ومحبة النصارى والمشركين ودينهم، ويتبع أهل التوحيد والإيمان. ويخرج عن مشابهة المشركين، وعبدة الصلبان.

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار». وقال تعالى **﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم؛ وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره، والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾**[1] وقال الله تعالى: **﴿من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه: أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله، ولا يخافون لومة لائم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾**[2] وهذا باب واسع، ودين الإسلام مبني على هذا الأصل، والقرآن يدور عليه. والله أعلم.

(١) سورة التوبة آية ٢٤.

(٢) سورة المائدة آية ٥٤.



المصادر والمراجع

١ ـ **الإصابة في تمييز الصحابة**، الحافظ ابن حجر العسقلاني، بيروت، دار الفكر، ١٩٧٨.

٢ ـ **البداية والنهاية**، ابن كثير الدمشقي، بيروت، دار المعارف، لات.

٣ ـ **تفسير غريب القرآن**، ابن الملقن، تحقيق سمير طه المجذوب، بيروت، عالم الكتب، ط ١، ١٩٨٧.

٤ ـ **تفسير الفخر الرازي**، محمد الرازي، بيروت، دار الفكر، ط ١، ١٩٨١.

٥ ـ **تفسير القرآن العظيم**، ابن كثير الدمشقي، ضبطه حسين بن إبراهيم زهران، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٨.

٦ ـ **تفسير مجاهد**، مجاهد بن جبر التابعي، تحقيق عبد الرحمن الطاهر السورتي، باكستان، مجمع البحوث الإسلامية، ط ١، ١٩٧٦.

٧ ـ **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، ابن حجر العسقلاني، حيدر آباد الدكن، ١٩٥٠.

٨ ـ **سنن ابن ماجة**، الحافظ محمد بن يزيد القزويني، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٧٥.

٩ ـ **سنن أبي داود**، سليمان بن الأشعث السجستاني، مراجعه محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، دار الفكر، لات.

١٠ ـ **سنن الترمذي**، محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٠.

١١ ـ **سنن الدارمي**، عبد الله الدارمي، عناية محمد أحمد دهمان، بيروت، دار الكتب العلمية، لات.

١٢ ـ **سنن النسائي**، أحمد بن شعيب النسائي، بيروت، دار الكتب العلمية، لات.

١٣ ـ **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، ابن العماد الحنبلي، بيروت، دار الآفاق الجديدة، لات.

١٤ ـ **صحيح البخاري**، محمد بن اسماعيل البخاري، بيروت، دار إحياء التراث العربي، لات.

١٥ ـ **صحيح مسلم**، مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار الفكر، ط ٢، ١٩٧٨.

١٦ ـ **صحيح مسلم بشرح النووي**،محيي الدين النووي،بيروت، دار الفكر، لات.

١٧ ـ **طبقات المفسرين**، محمد بن علي الداودي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٨٣.

١٨ ـ **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، ابن حجر العسقلاني، بيروت، دار الفكر، لات.

١٩ ـ **فتح القدير**، محمد بن علي الشوكاني، مصر، مصطفى البابي الحلبي، ط ٢، ١٩٦٤.

٢٠ ـ **القاموس المحيط**، الفيروز أبادي، بيروت، دار الفكر، ١٩٧٨.

٢١ ـ **كتاب التعريفات**، علي بن محمد الجرجاني، بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٧٨.

٢٢ ـ **كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس**، اسماعيل العجلوني، بيروت، مؤسسة الرسالة، لات.

٢٣ ـ **الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها**، لأبي محمد مكي بن أبي طالب، تحقيق د. محيي الدين رمضان، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ٣، ١٩٨٤.

٢٤ ـ **المجموع شرح المهذب**، محيـي الدين بن شرف النووي، المدينة المنورة، المكتبة السلفية، لات.

٢٥ ـ **مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية**، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الرباط، مكتبة المعارف، لات.

٢٦ ـ **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، أحمد بن حنبل، بيروت، المكتب الإسلامي، ط ٢، ١٩٧٨.

٢٧ ـ **المعجم الوسيط**، د. إبراهيم انيس وغيره، بيروت، دار الفكر، لات.

٢٨ ـ **المغني والشرح الكبير**، ابن قدامة المقدسي، بيروت، دار الكتاب العربي، لات.

٢٩ ـ **المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة في الألسنة**، للحافظ محمد بن عبد الـرحمن السخاوي، بيـروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٧٩.

٣٠ ـ **موطأ الإمام مالك**، مالك بن أنس، مصر، مصطفى البابي الحلبي، ١٩٥١.

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ، ابن تغري بردي، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٣٧٥ هـ.



الفهرس